

المراقبة السائلة



زيجمونت باومان و ديفيد ليون

تقديم: هبة رءوف عزت

ترجمة: حجاج أبو جبر





المراقبة الساعية





المراقبة السائلة

زيجمونت باومان وديفيد ليون

ترجمة

حجاج أبو جبر

تقديم

هبة رءوف عزت



الشبكة العربية للأبحاث والنشر
ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بيروت - المكتب الرئيسي:

رأس بيروت، المنارة،

شارع نجيب الورداني

ص.ب: ٥٢٨٥ - ١١٣ حيدر أباد بيروت

ت: ١١٠٢٢٠٣٠

هاتف: ٣٩٨٧٧

محمول: ٧٩٤٧

ayanetwork.com

بيروت - مكتبة

السولدير،

بناية المركز العربي

هاتف: ٠٠٩٦١١٩٩١٨٤١

القاهرة - مكتبة

وسط البلد، ٢٢ شارع عبد الخالق ثروت

هاتف: ٠٠٢٠٢٢٣٩٥٠٨٢٥

الاسكندرية - مكتبة

عمارة التراث،

٢٤ شارع عبد السلام حارث

هاتف: ٠٠٢٠١٢٠٥٢٨٩٦٨٥

الدار البيضاء - مكتبة

٢٨ زنقة روماء، تقاطع شارع

مولاي إدريس الأول

هاتف: ٠٠٢١٢٥٢٢٨٠٦٨٨٧

تونس - مكتبة

١٠ نهج تانيت، نوتردام،

قبة وزارة الخارجية

هاتف: ٠٠٢١٦٥٠٨٣٠٥٥٤

اسطنبول - مكتبة

حي الفاتح، شارع الخوخة الغريبة،

المتفرع من شارع فوزي باشا

هاتف: ٠٠٩٠٥٥٢٦٩٥٢١٧٧

الفهرسة أثناء النشر - إعداد الشبكة العربية للأبحاث والنشر

باومان، زيجمونت

المراقبة السائلة/ زيجمونت باومان وديفيد

ليون؛ ترجمة حجاج أبو جبر؛ تقديم هبة رؤوف

عزت.



وجيات

و جبر،

حجاج (مترجم). ج. عزت، هبة رؤوف (مقدمة).

د. العنوان.

303.483

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن وجهة نظر الشبكة العربية للأبحاث والنشر»

Liquid Surveillance

© Zygmunt Bauman and David Lyon, 2013

All Rights Reserved. This Edition is Published

by Arrangement with Polity Press Ltd., Cambridge

جميع حقوق الترجمة العربية والنشر محفوظة حصراً

للشبكة العربية

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٧

المحتويات

٧	كلمة المترجم
	تقديم: المراقبة والمحاسبة والمعاينة:
١١	عن السيولة والأمن والتحرر
٢٣	تصدير وتقدير
٢٥	تمهيد
٤١	الفصل الأول: الطائرات من دون طيار ووسائل التواصل الاجتماعي
٦٩	الفصل الثاني: المراقبة السائلة: مرحلة ما بعد البانوبتيكون
٨٩	الفصل الثالث: البعد والإبعاد والتحكم الإلكتروني
١٠٧	الفصل الرابع: اللا(أمن) والمراقبة
	الفصل الخامس: النزعة الاستهلاكية والمواقع الإلكترونية والفرز
١٢٣	الاجتماعي
١٣٣	الفصل السادس: المراقبة من منظور أخلاقي
١٤١	الفصل السابع: القدرة والأمل
١٥٥	المراجع



كلمة المترجم

ما التنوير؟ سؤال طرحته مجلة برلين الشهرية عام ١٧٨٤، وأجاب عنه الفيلسوف إيمانويل كانط في مقالة يتألف عنوانها من السؤال نفسه «ما التنوير؟» وقد أوجز كانط الأطروحة الرئيسة في إجابته عن هذا السؤال في عبارة واحدة: «تجرأ واستعمل عقلك أنت» (sapere aude).

وهكذا كان التنوير يعني التحرر من الوصاية والجهل، وارتبط ذلك بسيادة العقل والارتقاء به إلى مرتبة السلطة العليا. لكن هذا العقل الفلسفي لم يكن وحيداً في رحلة التحرير، بل كان في صحبة «الطاغية المستنير»، وكان متناغماً مع رؤية الدولة الحديثة الطامحة إلى إرساء النظام والحفاظ عليه.

فمع التنوير، جرى علمنة فكرة الإله الرقيب، وأصبح الإنسان الحديث هو الرقيب الذي لا بد أن يُخضع العالم لسلطته ونظامه، ويحقق الانضباط والامتثال، ويستعين بالعلم في تأسيس نظام مثالي. فكانت «المراقبة» تشير إلى سيطرة الإنسان وإلى إدارته للأمور بما يحقق النظام والانضباط والانسجام والكمال النهائي والوضوح التام الذي لا يعرف الغموض ولا الإبهام ولا الالتباس.

وفق هذه الرؤية، كان السجن المثالي الكبير (البانوبيكون) هو النموذج الأصلي لفكرة النظام والانضباط والوضوح التام، وكان برج المراقبة الذي يتوسط هذا السجن هو انعكاس واضح لعلمنة فكرة الإله الرقيب، ولم يكن هذا السجن مجرد صورة مجازية ولا لوحة معمارية، بل كان خطة منهجية، وهندسة معمارية لها قواعدها وضوابطها الخاصة داخل أسوارها، فكان هذا السجن يستمد شرعيته وقواعده من داخله، وتمكن بذلك من إزاحة القيود

الأخلاقية، والوازع الأخلاقي، والضمير الإنساني، والعاطفة الإنسانية خارج أسواره.

هذه الفكرة شغلت زيجمونت باومان منذ أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات من القرن العشرين، لا سيما في كتابه **الحداثة والإبهام** (١٩٩١)؛ وكان باومان يرى أن فكرة السيطرة والتحكم من أجل إرساء النظام تتناغم مع مبادئ عصر التنوير، لا سيما فكرة الإدارة البشرية للعالم، واستبعاد فكرة العناية الإلهية والقدر ليحل محلها العقل الإداري؛ يقول باومان في كتاب **الحداثة والإبهام**:

«راود إيمانويل كانط ورينيه ديكارت وجون لوك (وفرانسيس بيكون من قبلهم) الحلم بإنسانية حرة تتمتع بالإرادة (إنسانية متحررة تحراً جماعياً من القيود) - فهو الوضع الوحيد الذي يمكن فيه، كما كانوا يعتقدون، احترام الكرامة الإنسانية وحفظها. فكانت سيادة الإنسان هي اهتمامهم المعلن الحقيقي من منظورهم، وباسم هذه السيادة كان يراودهم الأمل بالارتقاء بالعقل إلى مرتبة المشرع الأعلى. ولكن كان ثمة افتراض بين استراتيجية العقل التشريعي للفلسفة الحديثة وممارسة سلطة الدولة القائمة على فرض نظام مخطط على واقع غير منتظم. وبغض النظر عن المقاصد الواعية لدى المفكرين، كان العقل التشريعي للفلسفة الحديثة والعقلية العلمية بوجه عام في تناغم مع المهام العملية التي تؤكد الدولة الحديثة، فكان بينهما تفاهم متبادل، ودعم متبادل، وتعزيز متبادل للثقة والمصادقية».

وانسجاماً مع عصر التنوير، جاء جيرمي بنتام في القرن الثامن عشر بتصوره للسجن المثالي الكبير («البانوبيكون»); فكانت الرؤية الكاملة والحرية التامة من نصيب المراقب العليم بكل ما يدور في الزنازين، وكانت الحركة المقيدة والامتثال للقواعد والنظام من نصيب السجناء. وتجلت آليات البانوبيكون في المصانع الرأسمالية الحديثة والمدارس والمستشفيات والمؤسسات العسكرية، وصار البانوبيكون هو النموذج العام للسلطة والهيمنة، بل والنموذج العام لكل نظام اجتماعي، واتضح ذلك بفضل دراسات ميشيل فوكو وأبحاثه عن المراقبة والمعاقبة.

ولعل جورج أورويل هو من أبدع في تصوير التحكم القائم على المراقبة

في روايته ١٩٨٤، حتى أن عبارة «الأخ الكبير يُراقبك» صارت الصورة المجازية الأساسية للمراقبة؛ فهذه الصورة تستحضر شاشات الرصد والمراقبة التي يستحوذ من خلالها شخص واحد (الأخ الكبير) أو حزب واحد على جهاز الدولة من أجل التحكم الكامل في مصير ملايين البشر ورؤيتهم للعالم والوجود والماضي والحاضر والمستقبل، ناهيك عن التوغل في أدق تفاصيل الحياة بكل حركاتها وسكناتها، بما في ذلك الحياة الجنسية وغاياتها، وقد استبطن الناس هذه المراقبة، وصاروا يراقبون أنفسهم حتى في غرف نومهم.

لقد تبين أن «لعبة تحرير الإنسان كانت في واقع الأمر لعبة السيطرة»؛ فربما كان مشروع التنوير حلمًا نبيلًا بنشر نور الحرية والعدل والتسامح والسلام والرخاء، لكنه تحول إلى أداة تعزز طموحات الدولة الحديثة وآليات المراقبة الرامية إلى التحكم والانضباط. واتضح أن فردوس التحرر الموعود هو سجن مثالي كبير تتوغل فيه علاقات السلطة؛ سجنٌ تدّعي فيه وزارة الداخلية أنها وزارة «الحب»، وهي وزارة التجسس والاعتقال والاختفاء القسري والغدر والتعذيب والقتل؛ سجنٌ تدّعي فيه وزارة الخارجية أنها راعية أبناء الوطن في الخارج، وهي أداة إذلالهم وكسر نفوسهم وتزوير أصواتهم؛ سجنٌ تدّعي فيه وزارة الإعلام أنها وزارة «الحقيقة»، وهي وزارة الكذب والتزييف والتضليل والتعصب والتحريض على الإقصاء والعنف؛ سجنٌ تدّعي فيه وزارة الثقافة أنها تنشر ثقافة التنوير، وهي عائق أمام الثقافة والتنوير؛ سجنٌ تدّعي فيه وزارة العدل أنها سند المظلومين والمستضعفين، وهي وزارة الظلم والاستعباد؛ سجنٌ تدّعي فيه وزارة الاقتصاد أنها وزارة «الوفرة والرخاء»، وهي وزارة توزيع المكاسب الرأسمالية وتوجيه السياسات التي تخدم النخب والطبقات الموالية؛ سجنٌ تدّعي فيه وزارة التعليم أنها تنشر المعرفة وتربي الأجيال، وهي تصنع قوالب جامدة لا تعرف الفكر ولا الاجتهاد؛ سجنٌ تدّعي فيه وزارة الزراعة أنها توفر المحاصيل، وهي تتحكم في توزيع الأرض وما يزرع فيها وتملك نزع ملكيتها وإعادة تخصيصها لمن تشاء؛ سجنٌ تدّعي فيه وزارة الصحة أنها ترعى المرضى، وهي تفلص موارد الحق في الصحة... سجنٌ تدّعي فيه وزارة الدفاع أنها «حامية الوطن»، وهي تدخل في حروب تخدم الآلة العسكرية المُصنّعة للسلاح... والمستهلكة له.

إن صورة «الأخ الكبير» لم تفقد حضورها ومقدرتها التفسيرية للواقع، لكن انتقداً من الحداثة الصسة إلى الحداثة السائدة، وحذر من الممكن أن تجمع سلطة المراقبة بين سجن المثالي واسمى لمثالي، بين لفهر والإغواء، بين الألم والندة، بين التهيب والترعيب، بين العصا والحررة إنها هيمة هجبة في زمن تتقل فيه السلطة «بسرعة الإشارة الإلكترونية»، في زمن الهواتف النقالة والهواتف الذكية، في زمن الطائرات من دون طيار، في زمن مواقع التواصل الاجتماعي والمواقع الإلكترونية الاستهلاكية، في زمن أسلحة الدمار الشامل، في زمن انفصال الفعل عن الفعل، في زمن انفصال الفعل عن الأخلاق، في زمن فقدان الثقة بأفكار الديمقراطية والليبرالية والمجتمع المفتوح، في زمن «العبودية الطوعية» على طريقة «راقب نفسك بنفسك» و«استعد نفسك بنفسك» و«كن على حذر». وهذا ما يتناوله ريجمونت باومان وديفيد ليو في حوارهما بالتفصيل.

وتتردد في كتاب المراقبة السائلة أصداء كتب أخرى من سلسلة السيولة التي ترجم منها خمسة كتب الحداثة السائلة، والحياة السائلة، والحب السائل، والأزمة السائلة، والخوف السائل. وهذا هو الكتب السادس في هذه السلسلة. وكما فعلت في الكتب السابقة، أحدد الشكر للأستاذ الدكتور وائل عاصي ولذكورة هبة رءوف عربت بقراءتهما معطوبة الكتاب ومرجعتهما إياها.

حجاج أبو جبر

منيل شحة، الحيزة

أيلول/سبتمبر ٢٠١٦

تقديم

المراقبة والمحاسبة والمعاقبة عن السيولة والأمن والتحرر

هبة رموف عزت

ليس هذا كتاباً في تكنولوجيا المراقبة ولكاميرات، بل هو كتاب في علم اجتماع الآلة وأثرها في الوعي بالذات، وفي توظيف المستجدات التكنولوجية لخدمة الأحداث السياسية التي تجور على الحريات وتنهك الحدود الشخصية. إنه كتاب في حياة اليومية، التي تغزوها المعلومات وتسبنا كل ما عندنا من بيانات لتقوم بتوظيفها لمصلحه شبكات كبرى - اقتصادية وسياسية - فتريد من قدرتها على النفاذ إلى أدق خصوصياتنا.

والكتاب حوار بين اثنين من علماء الاجتماع، سور حول أثر انتشار منصت الرقابة بما فيها أدوات الاتصال الاجتماعي التي باتت نافذة يمكنك أن تطل منها على العالم... وفي الوقت ذاته يطل منها العالم عليك ويتابعك، وصولاً لاحتراق كاميرا الهاتف المحمول وكاميرا جهر اللاتوب لمراقبك وتتبع خطواتك وتسجيل حركاتك الخاصة. فكيف يؤثر ذلك فينا وفي تصوراتنا عن الذات وسلوكنا الاجتماعي وعلاقتنا بالعالم؟

ويأتي هذا الكتاب بعد سلسلة من كتب «الحداثة السائلة»، بدءاً ببيان المفهوم في كتاب يحمل هذا العنوان، مروراً بـ «الحياة السائلة»، والحب السائل، والأزمنة السائلة، وتقاطع قضايا لرقابة السائلة مع ما سبق استعرضه في تلك الكتب للمؤلف ريموننت باومان، خاصة كتاب الخوف

السائل لذي تُرجم إلى العربية وصدر في هذه السلسلة مؤخراً، لتعيد أفكار باومان شرح ما نمرّ به من مرحلة جديدة من الحداثة تحاوزت العلاية والعمانية وصعود الأيدولوجية إلى حالة من السية المفرطة التي دات في ظلها المعاي وتفتكت الروابط وبات وعد الأمن واحرية الذي قطعته الحداثة على نفسها بعد المال.

بلعت هذ لكذب بطرنا إلى التمسز سن العلاقة المتعاصدة ووجود الأعراف المرعية في المجتمعات تاريخياً، وانتي رأت الحداثة أيا تقيد الفرد وتوقعت أن تحرزه شأة المدد الحديثة منها من ناحية، وبين المراقبة التي تسلسل إلى التفاصيل على جناح التكنولوجيا، والتي لم تتوأ مكاتها امركزية إلا في الأرمته الحديثة من ناحية أخرى، ومن ثم يرى الحوار أن أحد سسل فهم المادح الجديده للمراقبة هو استكشاف طريقة ارساط هذه المادج بالحداثة اسائلة.

و«المراقبة لسائلة» ليست مجرد آلة رصد أو كاميرا في ركن المتحر أو أمام نانة سكنة، إياها التطسق الذي ستخدمه للبحث عن طريقك فسدّ جهات أخرى على مساره وحركتك، وعين صغيرة منة على جهاز اللابوب تسجل محادثات مع الأصدقاء، وهي أحهرة رصد وتحليل لكن ما يخصك من تفاصيل تُدخلها عفوية عند التسجيل لخدمة أو موقع إلكتروني لتراكم هذه المعلومات ويتم تبادلها بين جهات السيادة ومؤسسات التسويق لتتحدث عنك بدلاً من أن تتحدث أنت عن نفسك، وهي مطومة متاعة وعقّب وتتبع وفرد وفحص ورصد ممهج. واستهدف

فمن يحاسب على هذه الفانورة الجديدة من الخدمات المتاحة البراقة؟ ومن يتحكّم فيها؟ فالمحالان لافتراضي والاتصالي بم يعودا منفكيين عن الهيكل الرقائي - نحن مرفقون من مجهولين وثق التكنولوجيا قادر على ابتلاعا... بلا رحمة.

أجهزة الفحص الدقيق للجسد في مداحل محطات المترو وعد بوابات المطارات، وأجهزة مطدقة اصصات حتى في تسحيل لحضور في مكان العمل، وأجهزة مضائق بصمة العين عند الحصول على ناشيرة كثير من الدول، وفي المؤسسات السيادية وفتح الحسابات الاستثمارية المعتمدة في

النوك الكبرى، كلها أجهزة انتشرت على نطاق واسع بعد أحداث لحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وإذا كانت هذه الأجهزة تتعلق بالأمن، فتم انتشار واسع لأنواع أخرى من المراقبة تتعلق بأنشطة الحياة العادية، فنحن مضطرون إلى إظهار بطاقات هويتنا، وإدخال كلمات السر، واستخدام شيفرات في سياقات عديدة، بدايةً من شراء مسرمانا عبر الإنترنت، وحتى عند دخول مساكننا التي صارت تشبه الثكنات العسكرية. وكل يوم نستخدم هه محرك البحث جوجل أو حساب الفيس بوك يتم رصد ما نبحث عنه، بما يعزز استراتيجيات التسويق فظهر إعلانات ذات صلة على صفحاتنا أو يتم اقتراح صديق ظهر اسمه في دعوة إلى حفل ضمن قائمة أصدقاء صديق مشترك آخر، فسي دهشنا ولا ندرك خطورة ذلك علينا وعلى خصوصيتنا

وهذا الكتاب مشعل لكثير من الأسئلة الأخلاقية، فكثير من الحدل يناول الكفاءة والسرعة التي تتيحها التكنولوجيات الحديثة أو أنظمة التحكم، لكن قلما يشغل لبقاش بالآثار الاجتماعية والأخلاقية، الكرى التي ستترك أثرها في صيغة الاجتماع الأساسي ووعيد كأفراد بالذات، وبالخطأ والصواب... والحقوق والعدل.

إن هذا الكتاب يحتر المقدرة التفسيرية للإطار النظري بحاثة السائلة عبد تناول الدور المعاصر للمراقبة، تلك المراقبة التي صدرت أكثر مرونة وحركة بعدما كنت تبدو صلبة وثابتة، إنها تتسرب الآن وتنتشر في نواح كثيرة قلما كانت تؤثر فيها... وقلما ننتبه إلى وجودها في تفاصيل حياتنا وعلاقاتنا.

ولا شك في أن ما نحن نصدده نتج عن تطوّر مذهل في «تكنولوجيا الإنسان»، تلك التي تتيح تحويل آلات والأدوات إلى أجهزة دقيقة الحجم، سهلة الاستخدام، أقلّ ثمناً وأعلى كفاءة، لكنها في الوقت ذاته تحترق أسوار الانتباه وتصبح جزءاً من متطلبات الحياة اليومية الحديثة، فلا نلتفت إلى ما نحمله من خطر على الحرية والخصوصية وما تتيحها من اختراق، فالطائرة من دون طيار ليست فقط آلة للحرب، بل يمكن إطلاق المسمى نفسه على أجهزة دقيقة للصوت تنحرك حول أو تسكن في الأدوات التي نستخدمها لتلقط لصورة والصوت وتسخل الحركة بما يجعلها خاضعين لرعايته أكثر تعقيداً

بكثير من أفكارنا القديمة عن مفهوم «التجسس»، وهو ما يصفه الكتاب بأنه لون جديد من «النات الرافقة».

يبدأ الكتاب ببيان التصور القديم عن الرقابة التي تمثلت في برج اراقبة وسط مساحة السجن (بابوبتيكون)، يتمكّن منه المراقب من متابعة زنازين السجناء ولا يرونهم كما لا يرون بعضهم بعضاً، وسيطّل معنا هذا التشبيه عبر فصول الكتاب، فهو وإن تغير شكله فلم يعد صيغة المراقبة الوحيدة، لكنه بطل «المحيال والسودج» اللذين يمكن الرجوع إليهما ولو كمجاز وصورة، وإن اختلفت صيغ الرقابة والمراقبة وعلاقة المراقب والمراقب التي باتت أكثر تعقيداً. إن المراهبه فيما يمكن أن نسميه «السجون الرأسالية المفتوحة» التي سكنها كمنهل كس لا تقدّم نفسها كأده لقمع كالتي وصفا مفكرّون مثل شام أو فوكو، بل صارت تقترب بالمتعة والترفيه وأوقات الفراغ، أو ترتبط بالراحة والضرورة حيث تأتي كجزء من صيغة التحديث وأجهزته التي نقل على شراها لنظّل «على صلة» (connected) بهذا العالم الحقيقي. أو المتوهم، إنها أقرب للعواقب التي لا يمكن تجسّسها في الحروب (collateral damage)، وبعد أن كنت موضع حذر وتوحيش - ونظراً إلى كثرتها وتوغلها وانتشارها في تفاصيلنا - بتنا سهولة «نقر بالمؤدقة» حين تظهر لنا صورة اتفق استخدام لتطبيقات المحتلّة دون أن نقرأ حرفاً من الشروط، ثم تبادل لاحقاً رسائل التحذير منها، وجيل الكشف عن حاياها

لقد بات «كل ما يتحرك» - لمنتجات والمعلومات ورأس المال والشر - موضوعاً للرقابة. ومن ثم، فإن المراقبة تحمل «عن بعد» في الرمان والمكان، فهي تتم على مسافة هائلة وتراكم معلومات في سلاسل زمنية طويلة، وهي تنتشر في الدولة لقومية وفيما وراءها في عالم العولمة لكن أصناف المراقبين ليست واحده، فمنهم من يجعله المراقبة أكثر أمناً، ومنهم من تُستخدم معلومات اراقبة في تصنيفه اجماعياً و اقتصادياً وسياسياً فيكون عُرضة لسبذ والإقصاء، لا يحصل على خدمة نفسها، أو تسهيلات الدفع، أو إمكانية القرض، أو الحصول على الفرص نفسها في الوظائف والتصعيد المهني، بل والمكانة الاجتماعية ذاتها.

وهنا يبدو حليّاً ما حدثنا عنه باومان سابقاً من انفصال السياسة عن

السلطة، فالسياسة هي لإدارة التي تتعامل مع احتياجات الناس، لكن السلطة هي القوة التي تقوم بتشكيل أطر حياتهم والتوازنات التي تحكمها، وهذه ماتت خارج حدود الدولة من ناحية لكن داخل مفاصل حياة الناس اليومية من ناحية أخرى. فهي أقرب لوحش ضخم له أذرع طويلة يصل بها عبر المسافات المختلفة لأبعد نقطة داخل المساحات المختلفة والتي تبدو لأهلها كأنها حصينة ومنبعا. والجهل بحقيقة هذا الوحش وسطوته مصدر قلق كبير في الحياة المعاصرة، فحتى الرسائل الشخصية مرصودة وحوارات الحب والتهديدات المرسله حين ينشب ابحلاف... كلها مسجلة. ومسجد أن ذوبان الأشكال الاجتماعية وانفصال السلطة والسياسة هما السمتان الأساسيتان للحدث السائدة، حتى يتساءل المرء أيهما أنتج الآخر، ولكن يجمعهما حضور المراقبة السائلة في التفاصيل.

ويرى ربحموت باومان لموضوع في إطار علاقة حدلية، ويقول إن وسائل التواصل لاجتماعي الإلكتروني هي نتاج التفكك الاجتماعي، وليس العكس فحسب، وليس بعكس. بالضرورة فالسلطة في الحدث السائلة لا بد أن تتمتع بحرية التدفق، والشبكات الكثيفة المحكمة للروابط الاجتماعية - ولا سيما القائمة على الأرض وحدودها - لا بد من التخلص منها، ذلك لأن هشاشة الروابط الاجتماعية هي التي تسمح لسلطة المعلومة بالعمل... والاجتياح الناعم شعباً، والغشش أحياناً أخرى.

هناك إذاً حالة من العموص تميز مشهد الحدث السائلة، ولم يفلت المسعى العلماني والإلحادي مما كان يظنه وطأة الرقابة الدينية الغيبية إلا ليسقط في باموت يكون ارقابة السائلة لسلطة المعلومة التي تديرها الكيانات الكسرى، وهو ما يشير قصبة «الضمير»، للإيمان بأن الله هو السميع البصير كان أساس السلوك المستقيم، وما يطلق عليه في كتب التزكية والتربية «المراقبة» كان موضعه النفس الإنسانية والحسن الأخلاقي الداخلي وليس نظرة الآخرين، وهو عين ما اعسرته الحدث عبثاً نفسياً بسد إلى الخرافة والسلطة الدينية وأرادت تحرير الإنسان منه، لكن ما انتهنا إليه هو أن العاء لأخلاقي اليوم يدور حول تقدير مسؤولينا عن عواقب استخدام تلك تقنيات التي تتيح المرفة وتخرج اخصوصية وتهذر الاحتيال، والتي تجعل لانضباط والالتزام تابعا من خشية المحاسبة القانونية لا من قناعة دينية أو

الترام أخلاقي. أو ديني تتغير كيمياء النفس إذاً ويعدو لتمرير حول الدات غير مسوق في طبيعته، فمن الأمور المدهشة التي يرصدها الحوار في هذا الكتاب أن خصوصيتك وعكوفك على نفسك في لائحة الافتراضية لعالم الإنترنت هي لحظة انفتاحك بكل تفاصيل يومك وتفضيلاتك وذكرياتك بالصوت والصورة لتكون «مرئياً» للآخرين، قبل طلبات الإصافة أو نقرات الإعجاب ممن قد لا تعرفهم، وما لم يقوموا بما قد يضايقت فإن الأصل أن تكون مراقباً منهم تتبعك عيونهم أخبارك وصورك والأماكن التي ررتها ولقاءاتك مع أصدقائك ومواقفك السياسية، وهذا كله يجري ما لم تقرر إقصاء أحدهم أو تفعيل خاصية «للأصدقاء فقط»... وحتى الأصدقاء قد لا تكون قد قابلت بعضهم في حياتك فقط. إنها كما يصفها الحوار في هذا الكتاب نسخة معدلة ومحدثة من الكوحيو انديكارتني: «أنا أظهر للجميع (وأحظي بتسجيل ومشاهدة ومتابعة منهم) دأ فأأ موجود»، وهو ما يختلف بما يسميه هذا الكتاب «هنية الذاتية»، أو ما يمكن أن نعبّر عنه بـ «الترحية الرقمية». الدوران حول الحسابات الشخصية كامتداد للدات والوجود بل ربما «عشدها تدريجاً أوجود... الحقيقي

ويكشف الحوار في هذا الكتاب أن ثمة راية أخرى من تحديد الأخلاق وفصلها عن فعل المراقبة، فالمعلومات التي توب عن الشخص تتألف من «بيانات شخصية» لكنها تنتقل إلى قواعد بيانات لمعالجتها وتحليلها، وربطها ببيانات أخرى بطريقة آلية من دون أن تكون تصويراً ولا تجسيداً حقيقياً لحياتنا، وهذه البيانات الآلية التي يجري تجميعها نصير أوثق من الشخص نفسه الذي ربما كان يُفعل أن يحكي هو حكايته وقصة حياته بدلاً من تصنيفه على غير ما يرى نفسه. ويقول المبرمجون إنهم ببساطة يتعاملون مع بيانات، بمعنى أن دورهم «محاييد من الوجهة الأخلاقية»، وأن تقييماتهم وتمييزاتهم «عقلانية» فحسب، ويؤكد الحوار مع ناومان هنا أن هذا غير صحيح بالمرة.

نوضح السبيلة لنا كمناطق تحليلي إذاً الكثير من التباسات الحياة المعاصرة، وتناقضاتها. ففي «عالم الحداثة السائلة» في مرحلة ما بعد «الانوريتيكون» نجد أن كثيراً من المعلومات الشخصية التي تمنضها أنظمة المراقبة إما يورثها الناس بأنفسهم ومحالاً، بشكل اعتيادي ومن دون

تحفظ. أم من يمسكون بأدوات السلطة و «يمكنهم في أية لحظة أن يلجؤوا إلى الاحتجاب المطلق». ويوضحون البيانات والمعلومات لتحقيق مآلهم وأرباحهم.

ويسعي بالطبع عدم تجاهل مسائل الخصوصية والسرية، لكن أزمة المراقبة ترتبط أيضاً بمسائل العذر والإنصاف، والحريات المدنية وحقوق الإنسان، فعملية «الفرز الاجتماعي» هي ما تحققه المراقبة الراهنة بالأساس. وبالطبع هنالك شيء من الاستمرارية بين الأشكال القديمة والمستحدثة من سلطة المراقبة، وكلٌ منها يحكم في سياقاته توزيع فرص الحياة ومكانياتها ومكافآتها وامتيازاتها. فالسجون لم تختفي، وحقيقة اليانوتيكون تساعد من الوجهة التاريخية على الحفاظ على السلطة الترابية والفروق الطبقية، في السيوت وفي لمدارس، وفي المصانع وفي السجون . وفي شبكات الحداثة السائلة . . الواقعية والافتراضية.

هناك أيضاً إشكالية اخاص والعام، وهي أوسع من قضية احترام خصوصية الأفراد؛ إذ أصبح التمييز بين الخاص والعام يختلف نوعياً من حيث السلطة والإرادة وصعوبة التراط ودرجة تعاقبته، لكن هذا التمرس يتحقق من حيث المكان والمساحة أيضاً، فهناك تمييز مهم يغني الالتفات إليه بين الخصوصية والسرية، فما هو خاص ويتم الدخول إليه شهرة وكلمة سرية هو مساحة فردية، لكنها لم تعد تتمتع بأي قدر من السرية، وما هو خاص في كل أنواع الرسائل الإلكترونية يخضع لرقابة بعضها قانوني وبعضها سيادي من دون حاجة إلى قانون وبعضها قد يقف خيمه قرصان صعر حدث السن لكنه بعيد مهارات خصف لصاديق واختراق المواقع وكذلك يحدث التمايز المكاني بين القطاعات الاجتماعية عبر اعتبار المراقبة فترنة مستويات أعلى من السكر ولعمل، فنشأ «كائنات» أو «مستعمرات صغيرة» تمنع البعض من الدخول، فأين العام والخاص، والعلني والسري، في كل ذلك؟ وما حدوده؟

فكما يشير هذا الكتاب التفكير فيه أيضاً صلة الحظر والمنع والحراسة والمراقبة بالتحولات الاجتماعية في المدن، فالأمر ليس عالمياً افتراضياً بل تم اختراع أجهزة الرقابة لحماية الحيّز والمساحة والمكان وبالتالي فكما أن

هناك مواقع محظورة فهناك أماكن محظورة أخرى أيضاً في الفصاءات الحضرية، مثل المواقع التي تمنع سكناً معينهم من التمتع بخدمات أساسية ومن بيانهم الشخصية، أو تلك التي ترفع من قيمة بعض أحياء المدينة بينما تُشيطل أحياء أخرى. نصبح المراقبة وأدواتها ها وسائط للفصل والتمييز الطفي و لمساحي أكثر من كونها تقنيات حماية وتأمين.

لكن الارتباك الذي نشهه لا يقف فقط عد حدود المراقب، فما يسمى في هذا الكتاب بـ«تسونامي البيانات» مريبك أيضاً لمصنات لرقابة داتها، وفي كن يوم نريد فه أدوات الرقابة ووسائلها تتعقد مهمة المراقب في فهم المعلومات وتصنيفها وتوظيفها

وعلى سبيل امثال سيكون هالك احتياج إلى ألقى محلل للتعمق مع السابات التي نورها طائره واحدة من دون طار في حروب «عصر ما بعد الطولة»، وعلى الرغم من القدرة العسكرية مثلاً على توظيف تلك الطائرات هي المتل إلا أن ما تحصل عليه من معلومات قد يكون أكثر من اللارم ومن القدرة على التحليل والوظيف في فترة وجيرة وبكماء عالية وليس بعيد عاً أن صاروخاً تكلفته منه ألف دولار قام بتدمير حاملة طائرات في حرب اليمن الأخيرة نكلفتها عشرين مليوناً، فاستخدام أدوات سيطرة للتغلب على الأدرع الممتدة وتقنياتها العالية وتوظيف وسائل «ما قبل حديثة» بدأ مد تعجيرات القاعدة واستمر مع داعش ولا تتوقع له الهرسة طالما ظل هناك «كعب أخيل» لكل كائن ضخم بما يبيع اسعاد له وكسر الموقوع، وضرب مفهوم التحصن، والأمن.

رثمة شيء مشابه لما سبق في علاقة الحصوصة بالسرية؛ فاسرية هي فكرة محورية مهمة في الكتابات لسوسيولوجية القديمة لعالم الاحتماع جورج زيمل كما ينها هذا الكتاب، ولذي كان يرى أن عدم إشاء لأسرار هو أمر مهم لتشكيل التفاعس الاجتماعي، فالطريقة التي ترتبط بها بغيرنا تعتمد كثيراً على ما نعرف عنهم، وقد نقبل فقدان اخصووية باعتباره نمناً معقولاً للعجائب المعروضة في المقابل، ومن المنهش أن الخوف من الانكشاف أمام الناس قد غلبته ظواهر انتهاج المرء ملاحظة الناس له وكثرة متابعيه، لدرجة أن إشاء اخصووية أو انتهاكها لم يعد هو ما يقلق، وبكر - للطرافة -

إغلاق أسواق التي يمكن من خلالها إفشاء الخصوصية ويعود لمرء متهماً بالغموض إن هو احتفظ ببعض المعلومات عن نفسه . لنفسه، وموضع ربه إن غاب عن «مصحات الفصححة اليومية» تلك وبدا للآخرين أنه يميل إلى الكتمان، بل يتساءل الناس لماذا «احتفى» لمحض توقعه عن التفريد اليومي لاشعاده بحياة أسرية أو منحز علمي أو عمل اجتماعي يجعله في الحقيقة «حاصراً حراً» على أرض الواقع وهكذا فإن من يخنارون عدم لظهور بنم اتهامهم ورفضهم، واستبعادهم، أو الاشتباه بارتكابهم الجرائم؛ فالتعري الجسدي والاجتماعي والنفسي هو سمة العصر وهو السلوك الذي بات يصن القول عبر الانخراط في التيار العام.

ويبدو أن اعترافنا بات شرطاً للاعتراف بنا، وكأن الاعتراف في حد ذاته بغض النظر عن تفاصيل لحكي هو صيانة القول من الآخرين، فمجتمع المراقبة يشجع على البوح ولا يهضم بأخلاقية لسرد ولا مثاليته ولا جودته فعداات اللوح ومديح التصريح هي الآليات التي تسهل المتدعة . . والمراقبة.

يعينا هذا، لكتاب أصاً على فهم فكرة «تسويق الذات»... فقد أصبح الاستهلاك لا يشير فقط إلى الملذات، بقدر ما يشير إلى الاستثمار في العضوية الاجتماعية، التي تترحم نفسها في مجتمع المستهلكين إلى «القدرة على مروج الذات وتسويقها وبيعها»، بمعنى تحقيق الصفات المطلوبة في السوق الذي احناره المرء لنفسه كمحيط اجتماعي، أو إعادة تدوير تلك الصفات المطلوبة وتحويلها إلى سلع يمكن تسويقها

إن العرص الأهم للاستهلاك في مجتمع المستهلكين لس إشباع الحاجات والرغبات والأمنيات، بل تسليع المستهلك أو إعادة تسليعه كل حين وآخر، إنه رفع حال المستهلكين إلى حال السلع القابلة لتسيع في سوق العمل أو سوق الزواج أو سوق الصداقة أو سوق المتحاب.

بدأت الحداثة بالعقلانية التويرية ونهت إلى «العقلة لرقمية» التي تمتلئ بأبعاد المراقبة التي تعمل على تأكل احريات الفردية والتواصل الاجتماعي، فهل يمكن أن نعمل إمكانية نظور أشكك مسؤولة ورعية من المراقبة الرقمية؟ هل يمكن أن سنخدم نفس الأدوات لحماية أنفسنا وحماية القيم التي نؤمن بها؟ هذه نقطة مهمه لمناقشة.

وعلى الرغم من أن الذي تُطَوِّره عوالم الاتصال التي تشط فيها المراقبة هي «شيكات» لا حماعات بالمعنى الذي كنّا نعرفه عبر التاريخ، مع نفاء الجماعات الأصلية المعلومة لنا من عائلة وقبيلة وغيرها - بل وعودة بعضها إلى قوة بعد ضعف - إلا أن «مبوضات القوة» في هذه الشيكات - كما وصف مايول كاستلز عالم الاجتماع - يسر في اجتماعين.

وإذا كانت لشيكات «سعث من فضاء قد يحدث فيه أي شيء، ولكن لا يمكن أن يحدث فيه أي شيء بأي قدر من اليقيس ولا الثقة ولا الطمأنينة»، فإنه من المتوقع أن يحدث الشر في حضارات مختلفة على تعريض ذلك باستثمار الوقت والجهد والطاقة فيما هو حقيقي وواقعي من علاقات، ويشككون في أراج المراقبة المبثوة في كل تفاصيل الحياة والتي ترصددهم وتتبعهم، فتنشأ محاولات لتقييد والتقنين لها ووقف نغولها على الخصوصية والحرية، أو نجدهم يدعون صيغاً عملية بسيطة - وأحياناً تقنية متطورة - للتحدي والمعاومة؛ وفي المقابل تنحج تكنولوجيا المراقبة اليوم وجهتين، وتخدم بذلك هدفين استراتيجيين متعارضين: الحبس (أو الإحاطة داخل الأسوار)، والإقصاء (أو لإبعاد خارج الأسوار). لكن الخطير في المشهد أن أي إخماق في المنظومة سبو اليوم وكأنه «خطف في» وليس من قبيل الفشل الأخلاقي، فبسم «تعويم المسؤولية» في السلم وفي الحروب الحديثة، وهذا مما ينبغي فهمه واستيعابه جيداً وإدراك انعكاساته .. والكسائه.

إن أكر التحديات التي مواجهاها هو تحلي دولة المراقبة عن وظيفة الأمن وتركها المواطن، فيحد المرء نفسه محجراً على فعل أمرين: أولاً، سحبل العباء تحزين اسؤن وركسب أحجره الإنذار وشراء وثائق التأمين؛ وثانياً، تأييد الإجراءات المطرفة، بما في ذلك الحبس على الناس، وسجن البعصر.. وإبدة آخرين. وتراهن النظم العاشية الحديدية على المرافقة في رس اعدم الأمن، وتشجع لناس على مراقبة بعضهم بعضاً والإبلاغ ساء على محص الشك المتبادل، فتصصح مشاعر فقدان لأمان نتيجة طيعية عملية. لقد وصف ديفيد بوبل لتكنولوجيا بأنها دين حديد في كتاب يحمل هذا العنوان، لقد صارب صمماً يصعب تحديته، وشهوة يسعصي على المرء الإقلاع عنها، وهو ما يتوارى مع تامي سلطه المراقبة التي تنتج سلوكيات متنوعة تؤثر في

جماعات محتنعة بأشكال مختلفة، وربما لو اطلعنا على ملفات المعلومات التي تسجل حركة «شخصياتنا الرقمية» لاندھشنا بشدة من التصنيفات المتعددة التي يتم تسكينها فيها.

لن ينرك هذا الكتاب القارئ مستريحاً بعد الانتهاء منه، بل ربما يجتهد البعض في تجاهل ما سيقروء كي يمكنه الاستمرار في استخدام كل الأجهزة التي يراقبه من دون أن يشعل ناله بما هو مكتوب هنا، وربما يمارس درجة من «الإنكار» لأنه لو أحد كل كلمة على محمل الجد قد يضطره ذلك إلى تقليص استخدام التكنولوجيا أو إيفاق بعض الوقت في تعلّم سبل حماية نفسه من أخطبوط المراقبة السائلة، لكن من المؤكد أنه سيتمح أعين الكثيرين على الآثار الاجتماعية والأخلاقية للتكنولوجيا، والحاجة لماسة إلى أن يفكر في مستقبلنا بدلاً من الركود إلى سير لحده المعتد أو الهرولة وراء كل جديد ونقر «موافق» لتزير كل تطبيق مستحدث دون أن نقرأ أو نفهم أو نتدبر، وسبعينا على فهم تاريخنا الشرقي الجاري الذي لن يمكن مسح آثاره «سفرة» رد» مثلما نمسح تاريخ استخدام الإنترنت من على حهاز الانتوب ولا الهروب من عبء المسؤولية الأخلاقية والدينية عم يجري حولنا بحجب الحصة أو منعها من الظهور على شاشة صماثرا باستخدام «هابد» أو «بلوك» مثلما يفعل مع ما يضايقنا، أو من يضجرنا

ختاماً، لا يسمي إلا أن أكرّر محدداً شكري للدكتور حماح أبو حر على حساسية التعامل مع النص بأسقل الأمين إلى اللغة العربية، ولشبكة العربية للأبحاث والنشر على العناية والرعاية ودعم لهذه السلسلة من الكتب والترجمات، وأخيراً وليس آخراً الشكر للقارئ على صبره وسعيه للاطلاع كي يفهم هذا العالم الذي ملاحز مستجداته كي نكون على بصيرة. وعلى لله قصد السبيل.

تصدير وتقدير

المراقبة اليوم هي حديث الأخبار، وهي بذلك تستحوذ على اهتمام مجالات كثيرة في حياتنا، نَبِد أن المراقبة كانت تبسط سلطانها قبل عقود عدة، فهي سمة رئيسة من سمات العالم الحديث وما دام العلم قد تغير عبر أحيال متتالية، فإن المراقبة تتخذ طابعاً متغيراً على الدوام. وهي هذه الأيام، تبدو المحتمات الحديثة مائعة إلى حد يجعلنا نصور أنها في مرحلة «السيولة». فلا شك أن أهل هذا الزمان من المواطنين والعمال والمستهلكين والمسافرين هم دوماً في حركة دائمة، وغالباً ما ينقصهم اليقين والروابط الدائمة، ولأن حركاتهم تحضع للمراقبة والتعقب والرصد، فإن المراقبة تتطور إلى حالة سائلة.

والكتاب الذي بين أيدينا هو حوار بساؤل المقدرة التفسيرية لمودج «المراقبة السائلة» على استيعاب ما يحدث في عالم امتاعه والتعقب والتتبع والفرر والفحص والرصد الممنهج الذي نسميه «المراقبة» وهذا هو الخيط الرئيس في حوارنا، وهو يشترك مع النقاشات التاريخية حول المراقبة في صورة «البانوبتيكون» panopticon (لنحزن امثالي الكبير الذي يتوسطه برج يراقب كل شيء)، كما يتطرق حوارنا إلى التطورات المعاصرة في إطار مراقبة عولمية شاملة. ولكن حوارنا يتجاوز ذلك إلى تناوٍ فضايا كبرى لا تصل إليها أحياناً المناقشات حول المراقبة، وهو حوار يسهم فيه كل محاور بقدر مسدٍ إلى حد ما

كان باومان وأنا على تواصل منذ زمن بعيد، وكنا نناقش على فترات متقطعة قضايا استكولوجيات الحداثة ومراقبة والسوسيولوجيا النظرية الاجتماعية منذ أواخر السبعينيات من القرن العشرين (أو أوائل الثمانينيات،

لا يمكننا أن نتذكر الوقت بالتحديد) وقد استمر زيجمونت باومان في استخدام نقد «الانوثيكون» والأفكار المرتبطة به في كتاباته، وشجعتني أنا - ديفيد ليون - في تحليلاتي المتواصلة للمراقبة. وقد أعدنا أوراقا بحثية للمشاركة في مؤتمر شبكة دراسات المراقبة في عام ٢٠٠٨ (واضطررنا إلى عرض ورقة باومان نيابة عنه نظراً لغيابه عن المؤتمر). فأما ورقتي أنا - ديفيد ليون - فقد نُشرت في دورية السوسيولوجيا السياسية الدولية (يون الأول/ ديسمبر ٢٠١٠) تحت عنوان «المراقبة السائلة: إسهام زيجمونت باومان في دراسات المراقبة»؛ وأما إسهام زيجمونت باومان في ذلك الحدث فلم يُشر، ودار الحوار بيننا عبر البريد الإلكتروني في الفترة ما بين أيلول/سبتمبر وتشرين الثاني/نوفمبر في عام ٢٠١١.

وسن مدين بالشكر الجزيل للمساعدة الكريمة التي قدمها بعض الرملاء الأعراء في قراءة حوار، وإهداء اقتراحاتهم لتحسينه، وتسيطه ليصل إلى جمهور أوسع، وهم: كانيا فرانكو آس، وكيرستين بول، وويل كيتيربرج، وكيث تيستر. والشكر واجب لإميل سميث، الباحثة في مركز دراسات المراقبة بجامعة كوينز بكندا، وذلك لمساعدتها في هذا المشروع، وكذلك أندريا دروجان، المحرر بدار بولتي برس، وآن بون، المراجع اللغوي، لما قدما لنا من نصيح ومساعدة.

زيجمونت باومان وديفيد ليون

تمهيد

ديفيد ليون: المراقبة هي أحد الأبعاد الأساسية للعالم الحديث، وفي أغلب البلدان يعي الناس تماماً مدى تأثير المراقبة في حياتهم. فالكاميرات مظهر مألوف في الأماكن العامة، وهي لا تقتصر على لندن ونيويورك، بل نجدها أيضاً في نيو دلهي، وشانغهاي، وريو دي جانيرو. والمسافرون عبر المطارات في كل مكان يعون أنهم مضطرون إلى التعامل مع مراقبة الحوازات، بل ومع أجهزة رهيبة مثل أجهزة الفحص الدقيق للحسد، وأجهزة مطابقة البصمات، وهي أجهزة انتشرت على نطاق واسع بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. وإذا كانت هذه الأجهزة تتعلق بالأمن، فثمة انتشار واسع لأنواع أخرى من المراقبة تتعلق بأنشطة الحياة العادية أو استخدام خدمات الإنترنت أو المشاركة في وسائل التواصل الاجتماعي فحسب مضطرون إلى إظهار بطاقات هويتنا، وإدخال كلمات السر، واستخدام شيفرات تحكم في سباقات عدة، بدايةً من شراء مستلزماتنا عبر الإنترنت، وحتى عند دخول بنايات. وكل يوم، يلاحظ موقع حوجل ما يبحث عنه، ويعرض استراتيجيات التسويق وفق ما يبحث عنه.

ولكن ماذا يعني ذلك، اجتماعياً وثقافياً وسياسياً؟ وإذا بدأنا بالتكنولوجيات الحديثة أو أنظمة التحكم، فقد نلّم بطاق الظاهرة، ولكن هل سنفهمها؟ لا شك أن الإلزام بحجم معالجة البيانات وانتشارها السريع هو أمر حيوي إذا كان الانتشار امتزاجاً للمراقبة مهماً في حده، وإذا كان اكتشاف ضرر المراقبة يعزز الجهود الرامية إلى كبحها. ولكن هذا الحوار يطمح إلى أكثر من ذلك؛ إنه يهدف إلى أن يسبر الأعماق، وأن يُنقّب عن

الأصول التاريخية ولغربية للمراقبة في هذا الزمن، وأن يثير أسئلة أخلاقية وسياسية عن انتشارها ونوعها

لقد كانت المراقبة فكرة مهيمنة على أعمال ريجمونت باومان على مدار عدة عقود، وكثير من ملاحظاته مهمة جداً لمن يحاولون فهم المراقبة في زماننا والتعامل معها. وفي العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، صار باومان مشهوراً بتأملاته حول «الحدائق السائلة»، وفي هذا الكتاب الذي بين أيدينا نستكشف المقدرة التفسيرية لهذا الإطار النظري في تناول الدور المعاصر للمراقبة. ولكن الفكرة المسيطرة الأخرى في تحليل باومان هي التأكيد على الأخلاق، لا سيما أخلاق الآخر، فإلى أي مدى يعيننا ذلك على فهم المراقبة في أيامنا هذه؟.

مراقبة سائلة؟

«المراقبة السائلة» ليست طريقة كاملة لتحديد أبعاد المراقبة، إنما هي أقرب إلى توجه، وطريقة لتحديد مستجدات المراقبة في الحدائق السائلة المتغيرة الراهنة. فالمراقبة تلين على وجه الخصوص في العالم الاستهلاكي، وتُرخي الحبال القديمة، وتوظف بسهولة بيانات شخصية منتزعة لعرص ما في أهداف 'حرى، وتنتشر بطرق كث حارح طوق الخيال في لماضي، وهي لذلك تستجيب لحالة السيولة التي يعيشها وتعيد إتجها، وتسكب في جميع الأركان من دون وعاء ثابت، ولكنه وعاء تُرخه الدواهي «الأمينية» ويعرعه التسويق المسحاح الذي تقوم به شركات التكنولوجيا. إن فكرة باومان عن الحدائق السائلة تؤصر المراقبة بطرق جديدة، وتقدم رؤى ثاقبة مثيرة عن أسباب تطور المراقبة بالطريقة التي تتطور بها، علاوة على بعض الأفكار المبدعة عن الطرق التي قد يمكن من خلالها مواجعة أسوأ آثارها ومقاومتها وهذه هي وجهة نظري بالطبع، وأما ما يراه باومان فسيتصح في ثديا حوارنا.

نمة اتفاق وسع بأن المراقبة هي أحد الأبعاد المركزية للحدائق، ولكن الحدائق ليست ثابتة، ولا بد أن نتساءل. عن أية حدائق نتحدث؟ فالظروف لراهنه يمكن أن يصفها بأنها حدائق «لاحقة»، وقد يصفها بعبارة «ما بعد الحدائق»، أو ربما يصفها بطريقة أكثر إثارة وتشويقاً باعتبارها «الحدائق

السائلة» ويرى زيجمونت باومان أن الحداثه قد تحولت إلى الحالة السائلة بطرق جديدة مختلفة (تتجاوز الرؤية الحديثة الباكرة لكل من كارل ماركس وفريدريش إنجلز، والعبارة الشهيرة الواردة في البيان الشيوعي: «كل ما هو صلب يذوب ويختفي»).

ثمة علامان فارقتان في هذا التحول الجديد

أولاً، تذوب جميع الأشكال الاجتماعية بسرعة تفوق السرعة التي تشكل بها الأشكال الجديدة، فلا يمكنها أن تحتفظ بشكلها ولا أن تتخذ أطراً مرجعية صلبة لأفعال البشر واستراتيجيات الحياة، بسبب الوقت القصير لصلحية استخدامها. فمن ينطبق ذلك على المراقبة؟ لقد لاحظ عدد من المنظرين أن المراقبة صارت أكثر مرونة وحركية بعدما كانت تبدو صلبة وثابتة، بها تسرب الآن وتتشرب في نواح كثيرة قلما كانت تؤثر فيها.

فمن المنظرين من يتحدث عن «مجتمع التحكم»، وهو مجتمع ينمو فيه المراقبة على نحو مغاير لنمو الشجر - بعيداً من ذلك النمو الرأسي الصارم مثل البانوبتيكون وأبراج المراقبة - إنه نمو أقرب إلى نمو النباتات الزاحفة^(١) ومنهم من يرى أن أدوات المراقبة «الغفيرة تلتقط بيانات الجسد»، ونحوها إلى بيانات تتميز بحرية عالية في الانتقال والانفصال عن الجسد من دون أن تكون تصويراً ولا تجسيدا حقيقياً لحياتنا^(٢). ومنهم من يرى أن المراقبة الراهنة تحدث في ثقافات «تتسم بالتشردم واللايقين، حيث تلوّث أدم أعيننا وتختفي معان ورموز ومؤسسات حديثة كنا نسلم بوجودها»^(٣). وهكذا تصرب أسئلة لكل ما هو محدود ومنظم ومستقر.

ويرى باومان أن البانوبتيكون كان وسيلة حديثة أساسية للتحكم والسيطرة، وذلك بمع الحركة بين السجناء، ونسجيمها بين مراقبيهم. ولكن كان على المراقبين أن يكونوا حاضرين أحياناً واقع الأمر أن مشروع

Gilles Deleuze, "Postscript on the Societies of Control," *October*, vol. 59 (Winter 1992), (١) pp. 3-7

Kevin Haggerty and Richard Ericson, "The Surveillant Assemblage," *British Journal of Sociology* vol. 54, no. 1 (2000), pp. 605-622.

William G. Steples, *Everyday Surveillance: Vigilance and Visibility in Postmodern Life* (٣) (Lanham, Rowman & Littlefield, 2008), p. 8 (emphasis added).

البانوبيتيكون كان ناظر الكلفة، وكان العرض منه تيسير التحكم عبر ترتيب شبه دائري لمرئيات بحيث يستطيع «المراقب» في مركز الدائرة أن يرى ما يحدث في أية رزمة، بينما لا يراه أي من السجناء؛ وكان هذا معني أن المراقب يتحمل بعض المسؤولية عن حياة السجناء. وأما عالم اليوم فهو، كما يرى باومان، عالم «ما بعد البانوبيتيكون»^(٤)، فبوسع المرفيس أن يتركوا المكان من دون أن يلاحظهم أحد، ويذهبوا إلى عوالم لا يمكن الوصول إليها؛ فقد انقضى زمن الارتباط المتبادل، وأصبحنا نحتمي بالانتقال الدائم والحركة الدائمة (إلا إذا كنا فقراء أو مشردين)، فما أحمل الحفة والسرعة - على الأقل في عالم الآيفون والآي باد

فليس البانوبيتيكون سوى نموذج واحد من المراقبة^(٥). إن تصميم التكنولوجيا الإلكترونية التي تُدخّلها السلطة في المخطومات المتنقلة المتغيرة معزّد التصميم المعماري للحدود والنوافذ من أهميته إلى حد كبير (جدران أمن افتراضية، ونوافذ افتراضية مع ذلك) وهذا يسمع بأشكال مختلفة من التحكم، فهو ليس له علاقه واضحة بالسجن المثالي، بل غالباً ما يتمتع بسمات المرونة والمتعة المرتبطة بالترفيه والاستهلاك. وهكذا فإن إبلاغ المسافر عن وصوله إلى المصدر يمكن أن يتم عبر استخدام هاتف ذكي، حتى وإن كانت التبادلات الدولية المتضمنة لقائمة أسماء المسافرين ما زالت تحدث، بفضل الحجر الأصلي الذي قام به المسافر (وهو الحجز الذي كان من الممكن اتّباعه به أيضاً عبر ذلك الهاتف الذكي).

إن الصبغ والأمن شيئان مرتبطان، وهذا شيء عمر ميشيل فوكو عن إدراكه، وأصر على انفصالهما عندما كنت علاقاتهما (الإلكترونية) تتضح أكثر وأكثر وتحول الأمن إلى مشروع يتجه وجهة المستقبل - وهو تحول صوّره بدقة فيلم تقرير الأقلية والفصّة المأخوذ عنها، فالأمن يعمل عبر المراقبة بمحاولته رصد ما سيحدث، باستخدام التقنيات الرقمية والتطبيقات الإحصائية. وذلك الأمن يعمل من خلال رصد «كل ما يتحرك» (المنتجات

Zygraunt Bauman, *Liquid Modernity* (Cambridge Polity, 2000), p. 11

(٤)

وقد صدر الكتاب باللغة العربية عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر بعنوان المراقبة السائلة

David Lyon, ed., *Theorizing Surveillance: The Panopticon and Beyond* (Cullompton, (٥) Willan, 2006).

والمعلومات ورأس المال والبشر^(٦) ومن ثم، فإن المراقبة تعمل عن بعد في الزمان والمكان، وهي تنتشر في الدولة القومية وهما ورءها في عالم العولمة. فأتا رسائل الأمن والأمان فهي من نصيب جماعات متقلة ترى أجهزة المراقبة أموراً «طبيعية»، وأما سجلات الأمية والإجراءات الإقصائية فهي من نصيب جماعات معينة الحظ و«متنوعة»

ثانياً، تنفصل السلطة والسياسة في زمن الحداثة اسائله؛ والسلطة تقع الآن في فضاء عولمي يتجاوز حدود الأمة/الدولة، ولكن السياسة التي كانت مرتبطة في الماضي بالمصالح الفردية والعامة تبقى محلية وعذجة عن العمل على مستوى الكوكب. وأما السلطة من دون تحكم سياسي فتصبح مصدر قلق كبير، سيما تبدو السياسة مفصلة عن مشكلات كثير من الناس ومخاوفهم في الحياة؛ فسلطة المراقبة، كما تمارسها الجهات الحكومية وهيئات الشرطة ولشركات الخاصة، تناسب تماماً مع هذا التصور. بل إن الحدود القومية، التي كانت تتمتع بمواقع جغرافية - مهما كانت اعتباطية - تبدو الآن في المطارات بعيدة من «حد» الأرض، بل وفي قواعد البيانات التي قد لا تكون «في» البلد المعني^(٧).

وعليه، فإن الحدود عبر الشابة هي مصدر قلق كبير. إنها لحظة مقلقة عندما يمر المرء بالنقاط الأمنية في المطارات، فلا يعلم بدقة السلطة القضائية التي يخضع لها ولا المكان الذي يمكن أن تصل إليه بياناته الشخصية، لا سيما في حانة لائتماء إلى جماعات مشوهة. وإذا كان حقلك تعيشاً تماماً وتعرضت للاعتقال أو اكتشفت أن اسمك على قائمة الممومعين من لسفر، فمن لصعب تماماً أن تعرف الواجب عمله. وإذا أردت أن تتجاوز تلك المعرفة، كأن تحدث بحبراً سياسياً من شأنه يسير السفر الضروري، فإن ذلك يمثل تحدياً رهيباً.

إن دوان الأشكال الاجتماعية وانفصال السلطة والسياسة هما سمان

Didier Bigo, "Security A Field Left Fallow," in M. Dillon and A. W. Neal eds., (٦) *Foucault on Politics, Security and War* (London: Palgrave Macmillan, 2011), p. 09; David Lyon "Everyday Surveillance: Personal Data and Social Classification," *Information, Communication and Society*, vol. 5, no. 1 (2002), pp. 1-16.

David Lyon, "The Border is Everywhere: ID Cards, Surveillance and the Other," in E. (٧) Zureik and M. B. Salter, eds., *Global Surveillance and Policing* (Cullompton: Willan, 2005), pp. 66-82.

أساسيتن للحدثة السائلة تتاغمان بوضوح مع المراقبة، ولكن من المهم أن مذكر علاقتين إصافيتين، ونمثثل إحداهما في العلاقة المتبدلة بين وسائل التواصل الجديدة والعلاقات المائعة. وبسما يلوم فريق من الباحثين وسائل التواصل الجديدة على التفكك الاجتماعي، يرى زبحمرنت باومان الموضوع في إطار علاقة جدلية، ويقول إن وسائل التواصل الاجتماعي الإلكتروني هي نتاج التفكك الاجتماعي، وليس العكس وحسب، وليس العكس بالضرورة فالسلطة، في الحدثة السائلة، لا بد أن تتمتع بحرية استدق، وهن تمثل العوائق ولأسوار والحدود ونقاط التفشيش إردعاجاً لا بد من الغلب عليه أو احتنايه. وأما الشبكات الكثيفة المحكمة للروابط الاجتماعية، لا سيما القائمة على الأرض وحدودها، فلا بد من التخلص منها، ذلك لأن هشاشة الروابط الاجتماعية هي التي تسمح للسلطة بالعمل.

وهذا أمر مثير لسجل عندما نطبقه على وسائل التواصل الاجتماعي، ذلك لأن كثيراً من النشاط يرون إمكانية كبيرة للتغصن الاجتماعي والتنظيم السياسي في التعريدرات والرسائل الإلكترونية، وقد تحلى ذلك في حركة «احتلوا وول ستريت»، تلك لحركة الاحتجاج الواسعة لما يسمى ٩٩ بالمئة ضد امتارات وسلطة واحد بالمئة في أغنى دول العالم، كما تجلى ذلك فيما يسمى بالربيع العربي في عام ٢٠١١. ولكن هذه مسألة تحتاج إلى نظر دقيق، ليس فقط بسبب أنها حاصعة بالفعل للمراقبة؛ فوسائل التواصل الاجتماعي تعتمد في وجودها على متدعة المستخدمين وبيع بياناتهم لغيرهم فلا شك أن إمكانات المقاومة باستخدام وسائل التواصل الاجتماعي حذابة، ومثمرة إلى حد ما، لكنها محدودة، نظراً لانعدام الموارد اللازمة للعلاقات الوثيقة الملزمة في عالم يعيش في سيولة مستمرة، ولأن سلطة المراقبة داخل وسائل التواصل الاجتماعي هي سلطة متوطنة ومهمة.

وأما الصلة الأخيرة التي سشير إليها هنا فهي أن الأزمنة السائلة تمثل تحديات كبيرة لأصحاب الفعل الأخلاقي، ليس أقلها في عام المراقبة. إن إدراك باومان للقلق واللايقين المتوصين في عالم حديث سائل يُشكّل المشكلة كما يراها، وموقفه المعصل هو الرفض الشديد للفواعد واللوائح المينة، وهذا يعكس في تأكيديه على أهمية معايشة الآخر. إدراك مسؤوليتنا تجاه الإنسان هو نقطة انطلاقه.

ثمة قصبتان أساسيتان تواحهان ضوابط المراقبة؛ فأما الأولى فهي النزعة المحرنة نحاء ما يسميه بومان «تحييد الأخلاق وفصلها عن الفعل»، إذ تفصل النظم والعمليات عن أية اعتبارات للأخلاق^(٨)، فعبارة «لسا القسم المختصر» هي الاستحالة البيروقراطية الأساسية للاستفسارات عن سلامة تقييم رسمي أو حكم رسمي؛ وأما الثانية فهي أن المراقبة تحقق انسيابية الفعل عن بُعد، وفصل الفاعل عن عوالم الفعل، ومن ثم، فإن عمليات ضبط الحدود قد تبدو آلبة ومحددة من المشاعر والعواطف، حتى وهي ترفض دخول طالبي اللجوء من خلفية عرقية «غير مناسبة»، أو تلك البشر الذين يحشون على حياتهم إذا ما جرى ترحيلهم إلى بلادهم.

ثمة رواية أخرى عن تحييد الأخلاق وفصلها عن فعل المراقبة، وهي الطريقة التي تنتزع بها البيانات من الجسد (مثل الضمائم والحصى النووي)، أو البيانات التي سادر بتقديمها (مثل إدخال البيانات لتسجيل الدخول إلى المواقع الإلكترونية، واستخدام بطاقات السماح بدخول البنائات، وإظهار بطاقات الهوية)، بحيث تتقل إلى قواعد بيانات لمعالجتها وتحليلها، وربطها ببيانات أخرى بطريقة آلبة من دون أن تكون بصوراً ولا تجسيداً حقيقياً لحياتنا. فالمعلومات التي تنوب عن الشخص تتألف من «بيانات شخصية»، بمعنى أنها تعود في أصلها إلى جسده، وقد تؤثر في فرص حياته واختياراته. فهذه البيانات الآلبة التي يجري نجميعها تصوير أولئك من الشخص نفسه الذي كان الأولى أن يحكي هو حكايته وقصة حياته. ويقول المرمحون إهم بساطة يتعاملون مع بيانات، بمعنى أن دورهم «محاييد من الوجهة الأخلاقية»، وأن تقييماتهم وتمييزاتهم «عقلانية» وحسب^(٩).

فكر بشيء من السبولة

إلى أي مدى تعبسا فكرة «الحداثة لسلته» - وهنا «المراقبة السائلة» - على استيعاب ما يحدث في عالم التحكم والتعقب والتنوع والفرز والمحص

Zygmunt Bauman, *Postmodern Ethics* (Oxford Blackwell, 1993).

(٨)

Oscar Gandy, *Coming to Terms with Chance Engaging Rational Discrimination and Cumulative Disadvantage* (Farnham Ashgate, 2009).

(٩)

والرصد الممهج الذي سمي «المرافة» والإجابة البسيطة بكلمة واحدة هي «السياق». فمن أسهل قراءة انتشار المراقبة باعتبارها ظاهرة تكنولوجية أو باعتبارها ظاهرة تدور سيطرة حول «التحكم الاجتماعي» و«الأح الكبير»، ولكن ذلك يشدد على دور الأدوات والطغاة، ويتجاهل الروح التي تبعث الحياة في المراقبة، والأيدولوجيات التي تدفعها إلى الأمام، والأحداث التي تمنحها فرصتها، والساس العديدين الذين يمثلون لها أو يتشككون فيها، أو لاس الذين يقررون أنهم إذا لم يكن بمقدورهم أن يهرموا فإنهم سيصموم إلى اللعبة

وتنظر القراءات الشائعة للمرافة إلى هذه المستجدات باعتبارها التقدم السريع الدائم للتكنولوجيا، وهي بذلك تستعمر مجالات الحياة، ولا يملت من قضايتها سوى مناطق معدودة «أصلية» للوجود «الخاص». فبداية من «الباركود»، اندي يحدد أنواعاً متعددة لمنتج من العينة نفسها أو من المصنع نفسه، نستقل الآن إلى شرائح تحديد الهوية باستخدام الترددات اللاسلكية. ولكن ذلك لا يقطع على المنتجات وحدها، فهذه التقنيات تستخدم أيضاً في حوارات السفر والملابس، والساتات المستخرجة منها يمكن ربطها بسهولة بحمل الجواز أو سمرتدي الملابس. وفي الوقت نفسه، ثمة ابتكارات أخرى، مثل شيمرات الاستجابة السريعة، وهي مربعات من رموز متنوعة يمكن فحصها بدقة بهاتف ذكي، وهذه الابتكارات تظهر على كثير من المنتجات والعلامات لتجارية، وعلى الملابس (حتى وإن كانت هذه الابتكارات تعود في أصلها إلى البحث عن سلاسل عرض متسارعة للمنتجات). وما عليك إلا أن ترتدي سواراً من السليكون يحتوي على شيفرة الاستجابة السريعة بوصفها إكسسواراً للموضة، ثم نهمس قائلًا: «افحصني بدقة»، وستأتيك صفحة إلكترونية تحوي بيانات الاتصال الشخصي وروابط وسائل التواصل الاجتماعي وما إلى ذلك، فأنت رابط إلكتروني بشري فائق يحيل على ملفات ووثائق خاصة بك.

إن أهل الحدائق «الصلبة» يستقبلون فكرة الباركود، وقد يرحبون بها، باعتبارها طريقة فعالة لإعداد قوائم جرد السلع والموجودات، ويسمعون اسطر في الترشيح البيروقراطي الذي يتجلى على أكمل وجه في تلك الأداة استكولوجية. ولكن بطاقة التعريف الخاصة بتحديد الهوية باستخدام ترددات

اللاسكية تتحدث أكثر عن عالم لا بد فيه من تجاوز الاهتمام بتصنيف المسجات وبيعها إلى الاكتشاف الدقيق لمكان وجودها في أية لحظة داخل منظومة إدارية للمنتجات تحت الطلب. فقائمة الجرد وحدها هي ضياع وتديد، فأنت تحتاج إلى دليل العمل أو «لكنيان» (كما يسميه اليابانيون) حتى تدرك في أثناء عملية التصنيع على العمل المناسب في المكان المناسب وفي الوقت المناسب. ولا عجب أن هذه الفكرة تعمل بكفاءة في عالم الأمن!

ولكن في حين أن هريقاً في عالم الحديث انصلب كان سيقبل معرفة التفاصيل الشخصية لضمان وجود الشخص المناسب في المكان المناسب وفي الوقت المناسب، فمن من أهل الحداثة الصلة بتصور أن تلك التفاصيل (في عالم حديث صلب) تُعلن للجميع بكل سرور؟ وفي حين أن تحديد الهوية باستخدام الترددات اللاسكية يناسب موافق تدوم فيها الحاجة إلى البيانات، فثمة بطلقات جديدة من الاستجابة السريعة تخاطب عالماً بنهمك فيه الناس في تشارك المعلومات. إن شرائح تحديد الهوية باستخدام الترددات اللاسكية، على سبيل المثال، تعحص التدفقات عبر الحدود، وتقررها من أهل السماح بالمرور السلس لبعض الضائع والأشخاص لا غير ولكن بنظام الاستجابة السريعة، مع أنه يقوم بعمليات المراقبة، فإنه يهدف إلى الحد من احتكاك الاستهلاك عبر التشارك الحر للمعلومات حول الأحداث، والمرض، وربما الأشخاص إن جاذبيتها تعكس سيقها الحديث السائل

ولكن ماذا عن قضية لتحكم الاجماعي، وقضية «الأخ الكبير» كما صورها جورج أورويل في روايته ١٩٨٤؟ فإذا كانت امراهة لا تقتصر على القضية المترابطة للتكنولوجيات الجديدة، أفلا يعني ذلك أنها تتعلق بطريقة توزيع السلطة؟ إن لصورة المجازية الأساسية للمراقبة، في العالم الغربي على الأقل، هي بلا شك صورة «الأخ الكبير»؛ فعندما نتمركز الإدارة الحكومية في يد شخص واحد أو حرب واحد، بحيث يستخدم الجهاز لإداري وملفاته وسجلاته وسيلة للتحكم الكامل، فإننا نتحدث عن الأخ الكبير. فكانت رواية جورج أورويل ١٩٨٤ «بمثابة تحذير عقب الحرب لعالمية الثانية من الإمكابة الشمولية للديمقراطيات الغربية، فقد استوعب لدوله، في هذه الرواية، استيعاباً مَرَضِيّاً مع سلطتها، وتوعلت في التحكم

ولكن في حين أن صورة الأخ الكبير السلطوي لدى أورويل هي صورة مدهلة (مثل إخلاص أورويل «للكرامة» الإنسانية باعتبارها تزيين السلطوية)، فهناك صور أخرى، ومنها وصف فرانس كافكا للقوى المهمة التي تترك من دون يقين بأي شيء (من يعرف ماذا عك؟ كيف يعرفون؟ وكيف تؤثر هذه لمعرفة فيك؟)، وربما يكون هذا الوصف أقرب إلى الهدف في عالم قواعد البيانات في الوقت الراهن^(١١)، ولكن هذا الوصف، مثل الصورة المجازية لدى أورويل، ما زال يشير بالأساس إلى قوى الدولة. وأما الصورة المجرية الأقدم من ذلك فتأتي من مُصلح المسجون النعيمي جيرمي بنثام باسم مشتق من اليونانية ليكوّن كلمة «البانوبيكون»، في إشارة إلى «مكان يعلم فيه المراقب كل ما يدور من قول أو فعل». ولكن ذلك لم يكن خيالاً روائياً، بل حطة، ورسمياً بيانياً، وتصميماً معمارياً، بل كان أكثر من ذلك، كان بمثابة «عمارة أخلاقية»، ووصفة لإعادة خلق العالم.

إن هذا الواقع، البانوبيكون، هو الذي يربط عالم البحث الاجتماعي بالمراقبة، ليس بسبب جيرمي بنثام وحسب، ولكن بسبب ميشيل فوكو الذي توصل في منتصف القرن العشرين إلى جوهر ما يسميه باومان «الحدائق الصلبة» وركز ميشيل فوكو على الضبط البانوبيكي أو «التهديب»، بما يكمل إعداد عمال طائعين ومضطحين. ويرى باومان أن فوكو يستخدم البانوبيكون «صورة مجازية أصلية لسلطة»؛ فسجناء البانوبيكون «لم يكن بوسعهم الحركة لأنهم كانوا جميعاً تحت المراقبة، وكان عليهم الالتزام بالأماكن المحددة لهم في جميع الأوقات لأنهم كانوا لا يعلمون، ولا سبل لهم أن يعلموا، مكان المراقبين الذي يراقبونهم - ويتمنعون بحرية الحركة كما يشاؤون»^(١٢). وأما الآن فإن ذلك الثبات الصارم في المكان بلغ من لدوام (سواء أطلقنا على هذه المرحلة اسم الحدائق «السائلة» أم لا)، «ما يجعله أيضاً، وربما في المقام الأول، سجن ما بعد البانوبيكون». وإذا كان بوسعتنا

David Lyon, *Surveillance Studies. An Overview* (Cambridge: Polity, 2007), p. 32 (١٠)

Dana Solove, *The Digital Person: Technology and Privacy in the Information Age* (New York: New York University Press, 2004), p. 47 (١١)

Bauman, *Liquid Modernity*, p. 10 (١٢)

وضع الفرضية على أن مراقب البانوبيتيكون كن حاصراً (في مكان ما)، في علاقات السلطة الراهنة، فإن من يمسكون بأدوات السلطة «يمكنهم في أية لحظة أن يهربوا في أية لحظة إلى مكان يتعذر الوصول إليه، إلى الاحتجاب المطلق»^(١٣).

إن باومان وأنا نعتقد - ليس بالضرورة للأسباب نفسها - بأن الكثير يتوقف على مصير البانوبيتيكون، وبأن جزءاً من مشروعنا هنا يتمثل في الكشف عن المقتضيات العملية المُدحة لما قد يراه العنصر نقاشاً أكاديمياً مجرداً. فإذا كانت صورة «الأخ الكبير» مازالت جذابة ومثيرة لخيال المهتمين بسلطات الدولة المستبدة، فإن تصوير البانوبيتيكون يكشف عن الكثير من آليات المراقبة في القرن الحادي والعشرين. وإذا كان باومان مُحققاً فيما يقول، فقد أسدل الستار على عصر «الارتباط المتبادل» الذي شهد المواجهة بين المديرين والخاضعين للإدارة، وأما العرض الجديد فهو در ما جديدة أكثر مراوغة، إذ «تنتقل السلطة بسرعة الإشارة الإلكترونية».

إن التحديات كبيرة؛ ممارسات المراقبة القائمة على معالجه المعلومات لا على الخطأ الذي كانت شغل لوكو^(١٤) تسمح بشفاقة جديدة يحصع فيها المراقبون، بل نخضع فيها جميعاً في حياتنا اليومية، إلى فحص وتدقيق واختبار وتقييم وتقدير وحكم مستمر. ولكن العكس ليس هو الصحيح؛ ففي حين أن تفاصيل حياتنا اليومية تصبح أكثر شفافية للمنظومات التي تراقبنا، تقل باستمرار سهولة إدراك نشاطاتها؛ وفي حين أن لسلطته تنتقل بسرعة الإشارات الإلكترونية في موعة الحداثة السائلة، تزداد الشفافية في جانب وتندعم في جانب آخر.

ولكن، ليس هذا الوضع مقصوداً بالضرورة، ناهيك عن أنه تأمري؛ فحائب من انعدام شفافية المراقبة الحديثة يتعلق بالطبيعة التقنية المعقدة والتدفقات المعقدة للمعلومات داخل لمنظومات ويبها. وحائب آخر يتعلق بالسرية المحيطة «بالأمم القومي» أو المافسة التجارية. ففي «عالم الحداثة

(١٣) المصدر نفسه، ص ١١.

Katya Franko Aas, *Sentencing in the Age of Information* (London: Glass House, 2005), (١٤) chap 4.

السائلة في مرحلة ما بعد البايوبيتيكون، نجد أن كثيراً من المعلومات الشخصية التي تمتصها أنظمة المراقبة إنما يوفرها ناس يستخدمون هواتفهم النقالة، ويتسوقون في المحال التجارية، ويسافرون لقضاء عطلاتهم، ويستمتعون بوقتهم في الترفيه عن أنفسهم، ويتصفحون الإنترنت. إننا نمرر بطاقتنا لأجهزة والماكنات، وسعيد إدخال الرقم البريدي، ونُظهر بطاقات هوياتنا بصورة روتينية آلية من دون تردد

لكن كل ذلك لا يعفنا من المتاعب والمسؤولية؛ فإذا كانت هنالك آثار اجتماعية وسياسية عميقة للبايوبيتيكون الحديث، فإن تلك الآثار مازالت تصاحب قوى الحدائث السائلة في مرحلة ما بعد البايوبيتيكون، وإذا كان فقدان الخصوصية هو الشيء الأول الذي يحظر ببال الكثيرين عند الحديث عن المراقبة، فإن الخصوصية ليست أهم حساسة لا شك أنه لا ينبغي تجاهل مسائل الخصوصية والسرية، ولكنها ترتبط أيضاً بمسائل العدل والإنصاف، والحريات المدنية وحقوق الإنسان، فعملية «العرز الاجتماعي» هي ما تحققه المراقبة الراهنة بالأساس، لحسن الحظ أو لسوءه^(١٥)

وبالطبع هناك شيء من الاستمرارية بين الأشكال القديمة والمستحدثة من سلطة المراقبة، وكل منها يخدم موزع فرص الحياة وإمكانياتها ومكافئها وامتيازاتها. فمبادئ البايوبيتيكون ساعدت من الوجهة التاريخية على لحفاظ على السلطة لثراتبية والعرو الطبقية، في البيوت وفي المدارس، وفي المصانع وفي لسجون^(١٦). فقد تدو تيارت الحدائث السائلة الراهنة عشوائية واعتباطية، ولكن المنطق الذي يحرك المراقبة الراهنة يصل إلى نتائج منسقة اتساقاً غريباً بصعب تفسيره، فها هم «المسلمون» و«العرب» يجدون أنفسهم - على نحو مؤسف وقطيع - عرضة لفحص دقيق «عشوائي» أكثر من غيرهم في المطارات، بل والأدهى أن العرّز الاجتماعي الذي تحققه المراقبة الاستهلاكية المعاصرة يني عالماً من «الضرر التراكمي»^(١٧).

David Lyon, ed., *Surveillance as Social Sorting: Privacy, Risk, and Digital Discrimination* (London: Routledge, 2003)

Anna Vener Andrzejewski, *Building Power: Architecture and Surveillance in Victorian America* (Knoxville: University of Tennessee Press, 2008)

Gandy, *Coming to Terms with Chance*

(١٧)

وأنا أذهب إلى أن مفهوم «الحدثة السائلة» يتيح سياقاً أوسع للعامل مع المراقبة بما يتجاوز نمو التكنولوجيا أو القنبلة المترايدة بلسطة، فالمرافقة، التي لم تتبوأ مكنتها باعتباره إحدى المؤسسات الاجتماعية الرئيسية إلا في الأزمنة الحديثة، تكتسب الآن بعض سمات الأشكال الصاعدة للحدثة «السائلة» وتشكل بها، ومن ثم، فإن أحد السبل التي تفصي إلى فهم الماذح الوليدة للمراقبة هو استكشاف طريقة ارتباط هذه النماذج بالحدثة السائلة

الحوار معاً

يتناول الحوار الذي بين أيدينا نطاقاً من التناقضات والمفارقات في المراقبة المعاصرة، من خلال استخدام صورة «السبولة» واختيارها. ونبدأ الرحلة من عالم العلاقات القائمة على التواصل الإلكتروني؛ فقد نشر زيجمونت باومان مقالة ساخرة كعادته في صيف عام ٢٠١١ بعنوان «وداعاً للوحدة»، وفيه يتناول موضوع المراقبة في علاقته بالطائرات من دون طيار ووسائل التواصل الاجتماعي، ويقع هذا الموضوع في صلب حورنا؛ فالطائرات من دون طيار يمكن أن تكون دقيقة لعديه في حجم الطيور الطنّانة، ولكن الرحيق الذي تحت عنه هو صور عالية الجودة لما تقع عليه في طريقها. ولكن، لم نكثر ذلك؟ فالخصوصية تتآكل بالفعل كالأداس عى القيس برك وعلى غيره من وسائل التواصل الاجتماعي، فالحاص هو العام، ولا بد أن يحتفي به ويستهلكه عدد لانهاضي من «الأصدقاء» و«المستخدمين» العشوائيين.

ولكن لا يمكننا إغفال الأبعاد ما بعد البانوتيكية للحدثة السائلة، وستتطرق مباشرة إلى ذلك في النقاش، فهو يحدد الحوار بيننا عبر التقابل من نوات المراقبة الحديثة لصلبة وتوجهها المكاني من جهة، والإشارات المتحركة والذبذبات النابضة التي تتسم بها الأشكال لسائلة للمراقبة. وإلى متى ينبغي علينا الاستمرار في اتناع مبشيل موكو؟ ومتى ينبغي تحديث رؤيته وتوسيعها أو رفضها؟ كما أن هذا الحوار يغزل خيوطاً مترابطة: عن علاقة بين الصورة المحارية والمعهم، عن نقاشات معكرين أمثال جيل دوبوز

ودريدنا وأعماس، وبالطبع عن الآثار الأخلاقية والسياسية لاختياراتنا على مستوى المفاهيم والنظرية.

وسلطع بهتم في حوارنا بالأبعاد التكنولوجية للمراقبة المراهقة، أو أبعدها التكنولوجية الاجتماعية، وسترجع مرة أخرى الميراث شديد لإيهام الذي حلّته الحداثة الصلّة وكشف عنه ربحوت باومان في كتابه الحداثة والهولوكوست (١٩٨٩). فهل ما حدث هو أن التنظيم المحكم، والفصل الدقيق للموظف المحتص عن الضحية، ولكفاءة لآية للعمية التي رأياها في القطارات الحاملة للقطعان الشرية وفي معسكرات الموت، صارت محصصة اليوم، لا للعب الجسدي، بل لتصنيف الشر إلى فئات من أجل التمييز بينهم في المعاملة؟ وكيف تحقّق التكنولوجيات الإلكترونية والشكية تلك الآثار الأقل كارثة، لا الأقل حداً، لا سيما بحق الجماعات المهمشة بالفعل؟

وثمة حيط آخر في حوارنا يتعلو بأشكال المراقبة المرصطة بالأمس على وجه الخصوص؛ ففي الجزء الشمالي من الكرة الأرضية، ساعدت أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر على تصحيح الهوس العائم بالأمس والمخاطر، حتى وإن كانت هناك قراءات مختلفة تماماً حول العالم لأحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. وسنجنب الأفكار الاختزالية التي تقول بأن الحريات المدنية والأمن يقعان في لعبة صفرية (Zero-Sum Game) أو بأن من يُخفون شيئاً هم وحدهم من لا بد أن يشعروا بالخوف. وسنبعث بما عندما من أجهزة التصوير بالموحات الصوتية لتكشف عقدة الأمن/المراقبة، حيث تأتي عمليات شراء الأجهزة والخدمات لتجمع بين عوالم التجارة ووكالات الاستخبارات ابياحنة عن المعلومات وابتداعة في استخدام أسلحة التخويف والاشواء.

وأما عن مصير أفكار باومان القديمة عن النزعة الاستهلاكية وإعادة إنتاج الفقر^(١٨)، فإننا نتناوله، وستكشف أبعاد المراقبة المهمة الحمية؛ فقد عرّض باومان، من دون كدل ولا مدل، الطرق التي تتعايش فيها النزعة

Zygmunt Bauman, *Work, Consumerism and the New Poor* (Buckingham Open (١٨) University Press, 1998)

الاستهلاكية مع إنتاج الفروق الاجتماعية والهويات الاجتماعية. وتكسب المراقبة هنا في أن الاستهلاك ينطوي على الإغواء الممنوع للمستهلكين، وأن هذا الإغواء هو أيضاً نتيجة المراقبة الممنوعة المريض. وإن لم يكن هذا واضحاً عن أشكال سابقة من سويس قواعد البيانات، فإن استحداث مواقع الأمازون والفيس بوك وجوجل تعكس أحدث تكنولوجيا في هذا المجال

إن كل فكرة في هذا الحوار لا تثير أسئلة حول التحليل المناسب للمراقبة وحسب - هل هي مراقبة سائلة؟ وماذا يعني ذلك؟ - بل حول التحديات الأخلاقية الملحة المصاحبة لذلك التحليل. إننا نتطرق إلى كتاب باومان عن أخلاقيات ما بعد الحداثة (١٩٩٣)، وغيره من كتاباته، لتكشف عن مقدرة الأخلاق الكاشفة أو حتى الأخلاق المعيارية على مقاربه وافع المراقبة المعاصرة. هإلى أي مدى يمكن استخدام ذلك في مقارنة الواقع السياسي الملح للمراقبة، سواء أكان ذلك يتعلق بمطالبات من لحكومة لتسمح باطلاع عبر محدود على لسانات الشخصة من شركات خدمات الإنترنت، أو باستخدام اسجلات الصحة لمنع تعاطية التأخير الصحي عن بعض المرضى؟

وأخيراً ختام هذا الحوار، والذي هو عن «القدرة والأمل»، فيتجاوز الحديث عن المراقبة اسائلة (كما حدث في ثواب الحوار بأسره، فلم يكن لنا بُد من ذلك)، ولكن تلك اقضايا قد ظهرت مرة أخرى على اسطح مرات عدة قبل ذلك، وأردنا أن نساوبها بصورة مباشرة ومكثفة هنا ..

وفي خلال هذا الحوار بأكمله، يؤكد أننا نسنكشف معاً، ونشارك الأفكار والرؤى، على قناعة كبيرة بأن نظرية احداثه السائلة تقدم معاني مهمة لفهم امراقبة في زماننا. ولكن يسما نتفق حول بعض الانترمات المشتركة المهمة، فإننا لا نتفق حول عدد من النقاط المحورية، ولكنا نرى أنها حديرة بالفاش.

ديفيد ليون

الفصل الأول

الطائرات من دون طيار ووسائل التواصل الاجتماعي

ديفيد ليون: انطلاقاً من التمهيد السابق عن المراقبة السائلة، أود أن أبدأ حواراً بالحديث عن المراقبة التي تتحول في «عالم حدث سائل» إلى أشكال جديدة مهمة، ومن أمثلتها الجودة لطائرات من دون طيار ووسائل التواصل الاجتماعي. وهذه الوسائل الحديثة، كما أوضحت في مقالتي حديثه لك، نتج معلومات شخصية من أجل معالجتها، ولكن بطرق مختلفة. فهل هذه الوسائل تكاملية إلى درجة أن الاستخدام غير الواعي للبيانات الشخصية في التواصل الاجتماعي يجعلنا نألف الانزعاج غير الواعي للبيانات الشخصية في مجال آخر بواسطة «طائرات من دون طيار» متنوعة دقيقة الحجم؟ وماذا تعني هذه المستحدثات لحصصتنا وحياتنا الحفية سياً في العالم ليومي؟

زيحمونت بلومان: أعتقد بأن المفارقة القصيرة التي أشرت إليها، وشرحتها قبل بضعة أشهر على موقع أوروبا الاجتماعية، إنما هي نقطة جيدة لبداية النقاش. واسمح لي يا ديفيد أن أستشهد بها هنا بتفصيل تام؛ فهي تلك لمقالة قارنت بين حربين يدوان منعصلين، وقد نُشر الخسران في يوم واحد، في التاسع عشر من شهر حزيران/يونيو من عام ٢٠١١، وإن لم يكن أي منهما ضمن العاصم الرئيسية، وكان للقراء عذرهم إذ لم ينتبهوا إلى أحدهما أو كليهما. فمثل كل الأخبار، أتى بهذين الخبرين «تسونامي المعلومات» اليومي، فكانا فطرنتين صغيرتين في فيضان الأخبار التي كان يُرجى منها أن تحقق التوير و لتوضيح، بينما تساعد على حجب الرؤية ورباك الطرين...

فأما الخبر الأول فتحدث عن الزيادة الكسره في أعداد طائرات لا يجاور حجمها حشرة دقيقة أو طائر طنان يحط بخفة على أعصاب النوافذ، وكان التصميم في الحاليتين يهدف إلى «الاختفاء في قلب ما يسهل رؤيته

وملاحظته»^(١) وأما الخبر الثاني فيعلن أن الإنترنت هو «المكان الذي ينتهي عنده حتماء الهوية»^(٢) إن الحبريين متناغمان؛ فكلاهما يشر/ ينذر بنهاية الاحتفاء والاستقلال، وهما السمتان الرئيستان لخصوصية - حتى وإن كان الخبران مستقيمين، ولا يعي أحدهم وجود الآخر

إن تلك الطائرات تقوم بعمليات تجسس وقصف تشتهر بها الطائرات المفترسة (إذ قُتلت تلك الطائرات الأمريكية ما يزيد على ألف وتسعمئة مسلح في ماطل قبلية في باكستان منذ عام ٢٠٠٦)، ومن المتوقع أن يتضاءل حجم تلك الصناعات إلى حجم الطيور، بل إلى حجم الحشرات (فمن الواضح أن حشرات أحتحة الحشرات أسهل تليد من الناحية التكنولوجية من حركات أجنة الطيور ويؤكد ميجور ميجائيل أندرسون، وهو طالب دكتوراه في تكنولوجيا الملاحة المتقدمة، أن رفرفة الفراشات الصخرية، وهي فصيلة من الحشرات المعروفة بمهارات التحديق، تم احتسابها مثلاً لإعداد التصميم الجديد - الذي لم يتحقق بعد، ولكن من المؤكد أنه سيتحقق قريباً - بسبب قدرتها على تحاور عيوب طائرات لمرحاء).

وسيبقى التحيل الجديد من تلك الطائرات خفياً بينما يُظهر كل شيء حفي، وسقى تلك الطائرات سمعة سما محرّك كل شيء آخر من الحصانة. ويقول بير بيكر، أساذ فلسفة الأخلاق في الأكاديمية اسحرية بالولايات المتحدة، إن تلك الطائرات تُدخل الحروب «عصر ما بعد البطولة»؛ ولكنها، من منظور «فلاسفة الأخلاق العسكريين»، توسّع من «الانفصال بين الأمريكيين وحربهم»، بها ستقفز قفزة حديدة (الثابتة بعد أن حل لحيش المحترف محل التجسد الإلزامي) نحو إحصاء الحرب نفسها عن الأمة التي تُشن الحرب باسمها (فلا خطر على أية روح من أرواح أبناء الأمة)، وهكذا يصبح من السهل - بل ومن الأكثر إغراء - ش هذه الحرب، بفصل الغياب شبه الكامل للأضرار لتأمنة وتكاليف السياسية.

والحين لثاني من تلك الطائرات سيري كن شيء بينما نطل هو خفياً في

(١) Elisabeth Bumiller and Thom Shanker, "War Evolves with Drones, Some Tiny as Bugs," (١) New York Times, 19.6.2011

(٢) Brian Stelter, "New Drones are Absolute," at: <http://motherboard.voc.com> (٢)

حفة وارتياح - على الحقيقة والمجاز. ولن يكون لنا من هذه الطائرات من واثق يحمينا من التحسس - ولن ينحو منها أحد. بل إن القيسيين الذين يُشغّلون تلك الطائرات سيستكروا التحكم في حركاتها، وسيمحرون، مهم كان الضغط قوياً، عن استثناء أي هدف من المراقبة. فتلک الطائرات «الجديدة المعتدلة» سيتم برمجةها على الطيران بنفسها، وستطير في مسارات من احتبارها في أوقات من احتبارها. والسماء التي تطير فيها هي السقف الذي يعطي المعلومات التي سوفرها ما أن تعمل بالأعداد المطلوبة.

هذه هي سمة تكنولوجيا التحسس والمراقبة الجديدة، فهي مسلحة بالقدرة على العمل المستقل من بُعد، وهذا أكثر ما يزعج مصمميها، ويبحث على قلقهم من «تسونامي البيانات» الذي يذهل بالعمل العاميين بمرآة قيادة القوات الجوية ويهدد بأن يتجاوز قدرتهم (وقدرة أي أحد) على التحكم. فمبذ أحداث الاحادي عشر من أيلول/سبتمبر، بعد أن عدد الساعات التي يحاها العاملون بالقواب الجوية من أجل إعادة تدوير المعلومات الاستخباراتية التي توفرها تلك الصنارات قد زاد نسبة ثلاثة آلاف ومئة بالمئة - وكل يوم يُصاف ما يقرب من ألف وخمسمئة ساعة من سجلات الفيديو إلى حجم المعلومات التي لا بد من معالجتها. فإذا ما انقضى عهد تلك الصنارات باعتبارها أجهزة استشعار مثل «ماكينه سحب الهواء»، وحل محلها «الظرة المحيطة التي يشلها الوحده السرب المحيط» القادر على مد بصره ليشمل مدينة بأسرها في نظرة واحدة (وهو تطور وشيك)، فسيكون هائل احتياج إلى ألعي محلل للتعامل مع البيانات التي توفرها طائرة واحدة، بدلاً من تسعة عشر محلاً يقومون بتلك الوظيفة في الوقت الراهن. ولكن ذلك يعني أن التقاء هدف «مثير» ومهم» من الوعاء العميق للمعلومات سيتطلب جهداً مصصاً وكثيفاً ماعظة، فما من أهداف مشرّه يمكن أن يغفل من الدفع بها إلى ذلك الوعاء، وما من أحد يستطيع أن يأكّد من احمائية أن تحط طائرة كهذه على عتبة نافذته، وس يستطيع أن يتأكد من توفيت ذلك.

وأما «موت الخصوصية» في عالم الإنترنت، فإن القصة مختلفة إلى حد ما، فمن هنا في عالم الإنترنت نفوذ حقوق خصوصيتنا إلى المذبح بإرادتنا، أو ربما نقبل فقدان الخصوصية باعتباره ثمناً معقولاً للعجائب المعروضة في مقابلها، أو ربما يكون الضغط بتسليم استقلالنا الشخصي للمذبح كبيراً جداً،

وقريباً جداً من حال قطع أعدام، فلا نجد سوى قلة من إرادات شديدة التمرد وحرارة والتحدى والعزم تبدي استعداداً للصمود الحاد أمام هذا الضغط ولكن على الأقل صورياً يُعرض علينا الاختيار، وعلى الأقل هناك عقد صوري بين طرفين، وعلى الأقل هناك حق صوري في الاعتراض والمقاومة حال الإحلال به، وهذا أمر لا تتمتع به قط في حالة لطائرات من دون طيار.

فما أن مدخل عالم الإنترنت، فإننا سقى رهائن لنقدر وهنا يقول برنان ستلتر: «إن المراقبة الجمعية لاثني مليون مستخدم للإنترنت، وبصمات اليد الرقمية التي يتركها كثير من المستخدمين على مواقع الشبكة العنكبوتية، تسهم جميعها في زيادة الاحتمالية بأن كل فيديو مُحرّج، وكل صورة حبيبة، وكل رسالة إلكترونية غير لطيفة، تُنسب إلى مصدرها، سواء أراد ذلك المصدر أن يُنسب له أم لا» فيها هو المصور لموتوغرافي «رستش لام» يلتقط صوراً لأعمال شغب شهدتها شوارع دنكوفر، وقد قضى يوماً في محاولة لتحديد هوية رجل وامرأة التمتعتهما عدسة كاميرته في أثناء أحداث لشعب (نالمصادفة) وكلٌ منهما يمتطر الآخر بفلات حارة. فكل ما هو خاص يمكن أن يجري معه فيما هو عام - ومن الممكن أن يكون متاحاً للاستهلاك العام، وأن يفي متاحاً على الدوام، إلى نهاية الزمن، لأن الإنترنت «لا يمكن إرغامه على سيات أي شيء ما أن تم تسجيله على هذه الشبكة العالمية». إن نأكل الخصوصية هو نتاج الخدمات المنتشرة للتواصل الاجتماعي، وكاميرات الهواتف النقالة الرخيصة، ومواقع استضافة الصور وتلفزيونات المحادثة، وربما الأهم من ذلك كله، هو أن نأكل الخصوصية هو نتاج التغير الذي حدث في رؤية الناس لما يحب أن يكون عاماً وما يحب أن يكون خاصاً». فالتناس يُقال لها إن كل هذه الأدوات التقنية «صديقة لمستخدم» أو «سهلة الاستخدام والتعلم» - وإن كانت تلك العبارة التجارية، إذا دققنا فيها، تشير إلى منتج ناقص في غياب المستخدم وجهته، كما يحدث في محلات الأثاث ومستلزمات المنزل المعروفة باسم «إيكيا»، بل إنها تشير إلى منتج ناقص في غياب المستخدم وجهته ونفاهه الحماسي واستحسانه الصاحب. ولو كان الكتب أتت دي لاسيسيه يناء، لربما أعواها هذا بالحديث لا عن «العبودية الطوعية» بل عن فكرة «استعد نفسك بنفسك» ..

فما النتيجة التي يمكن أن تستشفها من المعادلة بين المُشغّلين للطائرات

من دون طيار وامنشغلين لحسابات الفيس بوك؟ ويدو أن الفريقين يعملان من أجل أهداف متعارضة، وتُدفعان لدفع متعارضة، لكنهما يتعاونان معاوياً إرادياً وثيقاً ومعالاً للغاية من أجل تحقيق/دعم/توسيع ما قد تسميه «الفرز الاجتماعي»؟ وأب اعتقد بأن أسر سمة للمراقبة المعاصرة هي أنها تمكنت إلى حد ما من إجبار المتعارضات على العمل في تناغم وانسجام في خدمة الواقع نفسه. من جهة، ثمة استراتيجيات نانوتشكة قديمة («وهي لا يعلم أحد زمن مراقبته بشحمة وحجمه، ومن ثم لن يُفعل أبداً من مراقبة ما يدور في خلده»)، وهذه الاستراتيجية جرى تطبيقها بصورة تدريجية - لكنها دائمة ومن دون انقطاع فيما يبدو - بحيث اقتربت من التطبيق العالمي العام ومن حبه أخرى، بتحول الكانوس النوتشكي القديم («أنا لست أبداً وحدي») إلى الأمل القائل («لن أكون وحيداً أبداً مرة أخرى»)، وذلك في حالة من الإعمال والتجاهل والإهمال والرفض والإقصاء، فاسخوف من الانكشاف أمام الدس قد تُغلب عليه ابتهاج المرء بملاحظة الناس له.

ولا شك أن هذين لتطورين، وتوافقهما وتعاونهما، قد ضهرا بفضل إحلال الإقصاء محل الحس والسحن باعتباره أفضح تهديد للأمن الوجودي والمصدر الرئيس للقلق فقد أعيد تصنيف التعرض للمراقبة والملاحظة من إدار بالخطر والتهديد إلى شارة بالإعراء والإغواء؛ ذلك أن الرعد بظهور مكثف والإعراء بظهور واضح أمام لجميع يتوافقان تماماً مع الرعة الشديدة في الحصول على دليل بالاعتراف الاجتماعي، وعلى دليل بوجود له قيمة - أي وجود له معنى. وهذه فرصة لتسجيل الوجود الكامل، مع عيوبه ومساوئه، في سجلات ماحة للجمهور، وهذا يبدو أفضل علاج وقائي من إنشاء الإقصاء - وطريقه سحبه لإبعاد خطر الطرد. إنها فرصة مغوية لا يشعر بالقدرة الكافية على مقاومتها سوى فئة معدودة من مُريدي الوجود الاجتماعي المعروف بعدم ثبته وعدم استقراره. وأب أظن أن قصة النجاح الواضح لكثير من «المواقع الاجتماعية» هو مثال جيد على هذا البار

إن مارك روكربيرج، الذي عادر جامعة هارفارد وهو في العشرين من عمره، قد اكتشف بالمصادفة منجم ذهب، ببتكره لمكرة الفيس بوك (أو يسرقته كما يقول بعض الناس)^(٣)، وتطبيقها على شبكة الإنترنت للاستخدام

(٣) هذا الادعاء، مثل كل الادعاءات التي ظهرت وأثارت جدلاً في أثناء تدافع الدس إلى =

الحصري بين طلاب جامعة هارفارد في شهر شباط/فراير من عام ٢٠٠٤. ولكن ماذا كان ذلك المعدن الشبيه بالذهب الذي اكتشفه هذا الشاب لمحظوظ، وقد واصل التحقيق في المنجم، وحقق أرباحاً خيالية مارالت تزداد يوماً بعد يوم؟

إن موقع الفيس بوك يصف الفوائد التي لها الفصل في إغراء/ جذب/ إغواء نصف بليون مشترك لقضاء وقت كبير من يومهم على امتداداته الافتراضية.

يمكن للمستخدمين إعداد ملفاتهم الشخصية، ومعها الصور، وقوائم الاهتمامات الشخصية، وبيانات الاتصال، وغيرها من المعلومات الشخصية. ويمكن للمستخدمين التواصل مع أصدقاء ومع مستخدمين آخرين عبر رسائل خاصة وعامة، إضافة إلى الدردشة الحية. ويمكنهم أيضاً أن يؤسسوا مجموعات و«صفحات إعجاب» وأن ينصروا إليها (وهي صفحات كانت تسمى «صفحات الإعجاب» حتى التاسع عشر من نيسان/إبريل من عام ٢٠١٠)، ويدير بعض هذه الصفحات مؤسسات تستخدمها وسيلة للإعلان.

إن الحيلوش الغفيرة من «المستخدمين الشطن» الذين انضموا إلى صفوف مستخدمي الفيس بوك كانوا يرحبون بحماسة بالوعد الذي قدمه بتحقيق شيتين كانوا يحلمون بهما، ولكن دون أن يعرفوا السبل إليهما قبل (والى أن) ظهر عرض مارك روكرسرح لرملائه الطلاب في جامعة هارفارد على الإنترنت. أولاً، لا بد أن تلك الحيلوش الغفيرة قد شعرت بالوحدة التي تؤرق مصاحبتها، ولكنها وجدت أنه من الصعب، لسبب أو آخر، أن تهرب من وحدتها بالوسائل المتاحة. ثانياً، لا بد أن تلك الحيلوش الغفيرة قد شعرت بألم الإهمد والإعصا والتجاهل والتهميش والنفي والإقصاء، ولكنها وجدت مره أخرى أنه من الصعب، بل ومن المستحيل، أن ينتشلوا أنفسهم من عالمهم المجهول المقيت بالسبل المتاحة. وفي كندا الحاليتين، أتاح مارك زوكربيرج الوسيلة التي كانت تلك الحيلوش تفتقد بشدة، وتبحث عنها من دون حدود، ففكرت تلك الحيلوش على الفرصة، ولا يد أنها كانت مستعدة للقفز عليها كأنها كانت متأهبة ومستفزة.

= مااجم الذهب التي كتشفت في كاليغورب في عام ١٨٤٩ وبعدة، لم نحسمه لمحاكم حسماً قاطعاً، ولكن الإسرب في بداية القرن ابحادي والعشرين، مثل كاليغوريا في مصف القرن التاسع عشر، كان مكاناً بلا قانون تماماً. مكاناً بلا ملكية خاصة، ولا رسوم ترخيص ولا صراب

«إن الإنترنت لا يسرق إنسانيتنا، بل يعكسها؛ إنه لا يلج في داخلنا، بل يعكس ما بداخلنا»^(٤١). هكذا يرى روز جوش حالنا مع الإنترنت، ويا له من رأي سديد! فلا تلوم المُرسِل على ما تجده سيناً في الرسالة التي أرسلها، ولا تمتدحه على ما تجده حساً فالأمر يعتمد، في النهاية، على ما يحسنه المرء وما يكرهه، وعلى أحلامه وكوابيسه، وعلى آماله وهواشيه، سواء استشر بالرسالة أو استبأس منها. وما ينطق على الرسائل والمُرسِلين يطبق في بعض الأوجه على عروض الإنترنت، وعلى «مُرسِليها» - من يعرضون العروض على شاشاتنا ويحبون انتباهنا إليها. وفي هذه الحالة، فإن استخدامات تلك العروض التي نستغلها، نحن - المستخدمين النشطين - للفيس بوك، لذين بلغ عددها النصف مليون سمة، هي التي تحدد حُسنها أو سوءها، وحُسن تأثيرها في حياتنا أو سوءه، ونفعها أو ضررها؛ فالأمر برمته يعتمد على ما نريد، ولأدوات التقنية نجعل تطلعاتنا أكثر وافية أو أقل واقعية، وبحسنا أسرع أو أبطأ، وأكثر فاعلية أو أقل فاعلية.

ديفيد ليون: نعم، إن استخدام الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي يكشف الكثير عن علاقاتنا الاجتماعية، وهو يعسر لنا كثيراً مما يغير حولنا. إن قضايا «الخصوصية»، على سبيل المثال، تشهد تعبيرات دائمة، وهي أكثر تعقيداً مما كان متخيلاً في الماضي وثمة شيء مشابه في علاقة الخصوصية بالسرية؛ فالسرية هي فكرة محورية مهمة في الكتابات السوسولوجية القديمة لعالم الاجتماع جورج ريمل^(٤٢)، الذي كان يرى أن عدم إفشاء الأسرار هو أمر مهم لتشكيل التفاعل الاجتماعي، فالطريقة التي نرتبط بها بغيرنا تعتمد كثيراً على ما نعرف عنهم وبكسر مقدرة ريمل نُشرت أول مرة باللغة الإنكليزية في عام ١٩٠٦، والنفاش حول هذا الموضوع يحتاج إلى تحديث، لسبب مما يتعلق بسير طرق تدفق المعلومات وحظرها وتحويل اتجاهها وحسب^(٤٣)، بل

Josh Rose, "How Social Media is Having a Positive Impact on Our Culture," 23 Feb (٤١)

2012, at <<http://mashable.com/2011/02/23/social-media-culture/>> (accessed Mar 2012)

Georg Simmel, "The Sociology of Secrecy and of The Secret Societies," *American Journal of Sociology*, vol 11 (1906), pp 441-498. (٤٢)

Gary T. Marx with Glenn W. Muschert, "Simmel On Secrecy: A Legacy and Inheritance (٤٣) for the Sociology of Information" in Christian Paplioud and Ceile Rol, eds., *The Possibility of Sociology* (Wiesbaden: VS Verlag für Sozialwissenschaften, 2008).

أيضاً فيما يتعلق بالتحديات المتجددة بشأن «الأسرار» الموحودة وتأثيرها في المحالات العامة لوسائل التواصل الاجتماعي.

في أواخر القرن العشرين، انتشرت أفكار ميشيل فوكو عن «الاعتراف»، وكان فوكو يرى أن الاعتراف - بارتكاب جريمة، على سبيل المثال - بات معياراً مهماً للحقيقة، وبات شيئاً يُنتزع من أعماق الصدور. وأشار فوكو إلى السُّل الحاصّة بالاعتراف، مثل الاعتراف إلى كاهن، والسُّل العامّة التي تتشكل منها العارين الرئيسة في الأخبار. فالاعتراف الديني، كما فهمه فوكو، كان «دواءً للروح» بمعنى الكلمة، في حين أن الاعترافات العلمانية المقبلة بهمها في المقدم الأول الصحة الشخصية ولسلامة الشخصية. وفي كلتا الحالتين، فإن الأفراد، من منظور فوكو، يلعبون دوراً نشطاً في مرافقة أنفسهم. وأما إذا كان من الممكن أن ينظر فوكو في رمت إلى المدونات الكاشفة لم في أعماق الصدور أو التلويحات «الحبيمة» في الفيس بوك باعتبارها وسائل بالاعتراف، فإن هذه مسألة محل مباحث. ولا بد لهذا النقاش أن يحدد المقصود بكل من «الاعتراف» و«الاحصاء»، فالاعتراف المسيحي، الذي كان يُهَمَّسُ به إلى شخص واحد، يتعلق بالتذلل والتواضع لله، وأما المدونات فهي ت لكل من يختار قراءتها، وهي سلع تعلن عن نفسها نفسها، إنها تتعلق بالدعاية وديوع الصيت، أو الظهور العام على الأقل.

زيجمونت باومان: ثمة اختلاف عميق بين الفهم قبل الحداثي (فهم العصور الوسطى) للاعتراف والفهم الحداثي به، فأما فهم العصور الوسطى فيرى في الاعتراف إقراراً بالنسب باعتباره إعادة تأكيد للصديق الذي هو صفة اعظماء الراعين لأبناء الكنيسة، وأما الفهم الحداثي فيرى في الاعتراف ظهوراً وإظهاراً وتأكيداً لـ «حقيقة داخلية»، لأصالة «الذات»، وهي أساس الفردية وخصوصية الفرد. ولكن، في الممارسة، كانت نشأة مجتمع الاعتراف في الزمن لراهن مسألة مبهمة، فقد أعلنت الانتصار الهائي للخصوصية، ذلك الابتكار الحداثي الأول، وإن كانت أعلى أيضاً بداية سقوطها المدوي من قمة مجدها. فكانت نشأة مجتمع الاعتراف هي ساعة انتصارها (انتصار ما هظ الكلفة بالتأكيد)، إذ أغارت الخصوصية على المجال العام وعمرته واستعمرته، ولكن على حساب خسارة حقها في السرية، وهي سمتها المميزة، وأعرامتياراتها التي تضحي في سبيلها بالغالي والنفيس.

إن السر - مثل كل المقولات الأخرى المتعلقة بالملكات الشخصية - هو بطبيعته جزء من معرفة يُرمس إفشاؤها أو يُسنع البوح بها، أو يحري كتمانها بشدة، أو كل ذلك معاً، وكأن السرية ترسم حدود الخصوصية وتميزها، فالخصوصية هي المحال الذي يُراد له أن يكون المحال الخاص بالمرء، والأرض التي يسودها بلا مازع، ويتمتع فيها بسلطة شاملة مطلقة ليقرر «ماذا أكر؟ ومن أكون؟». إن الخصوصية هي الأرض التي يمكن من خلالها أن يش المرء حملاته، ويعيد شنها ليحصل على اعتراف بقراراته واحترامها، ثم يحتص بهذا الاعتراف والاحترام. ولكن في تحول غريب عن عادات أسلافنا فقدنا شجاعته و قدرتنا على الاحتمال، بل والإرادة اللازمة للصمود في أثناء الدفاع عن تلك الحقوق، تنك اللبات افريسة التي يُبى منها الاستقلال الفردي

وأما في أيامنا هذه، فليست إمكانية إفساء الخصوصية أو انتهاكها هو ما يخيف، ولكنه إعلال المخارج التي يمكن من خلالها إفساء الخصوصية. فتحول مناطق الخصوصية إلى مواقع للحس، حيث يُحكم بالعذاب على صاحب الفضاء الخاص، ويكتب عليه أن يعاني عواقب أفعاله من دون مساعدة من أحد، ويُجبر على حياة تنسم بعبات المنصتين الشعوب بانتزاع الأسرار وإخراجهم من وراء الأسوار الحصينة للخصوصية، من أجل إفشاها للجميع. وجعلها ملكية مشتركة للجميع، ولكل ما يرغب أن يكون له نصيب منها ويسدو أن لا يستمتع بأسرارها، إلا إذا كانت أسراراً تُصمح ألماً تجذب اسباب مُعَيَّتي البرامج الحورية التلفزيونية، والصفحات الأولى من الصحف، وأعلمه المحلات الملونة الرقة

«إن ما يحدث في التواصل الاجتماعي عبر الشبكات هو تبادل المعلومات الشخصية؛ فالمستخدمون يسعدون «إفشاء التفاصيل الحميمة لحياتهم الشخصية»، و«تدوين معلومات دقيقة»، و«نشر الصور». وتقول الإحصاءات إن ٦١٪ من المراهقين في المملكة المتحدة، ما بين لثالثه عشرة والسابعة عشرة من عمرهم، «يمتلكون ملأ شخصياً على إحدى مواقع شبكات التواصل»، وهو ما يعيهم على «التواصل الاجتماعي عبر الإنترنت»^(٧).

(٧) نظر

Paul Lewis, "Teenage Networking Websites Face Anti-paedophile Investigation" *Guardian* (3 July 2006).

والعجيب أن بريطانيا بلد يتخلف فيها الاستخدام الشعبي للخدمات الإلكترونية بشكل مذهل مسوات افتراضية وراء شرق آسيا، ولذا ربما مازال المستخدمون يثقون «بالتواصل الاجتماعي عبر شبكات الإنترنت» كي يعتبروا عن حريتهم في الاختيار، بل إنهم يصدقون أن هذا التواصل هو وسيلة لتمرد الشباب وتوكيد الذات. ولكن في كوريا الجنوبية، على سبيل المثال، يسود التواصل الإلكتروني بالفعل أغلب الحياة الاجتماعية (أو أن الحياة الاجتماعية تحولت حفاً إلى حياة إلكترونية أو إلى حياة افتراضية، إذ تعضي «الحياة الاجتماعية» بالأساس في صحنه أجهزة الحاسب الآلي والآيبود والهاتف النقال، ولا تعضي في صحنه شر من لحم ودم إلا بصيغة ثانوية) فمن لوازم للشباب في كوريب الجنوبية أنهم لا يملكون أي دليل على الاختيار، فالحياة الاجتماعية هي حياة إلكترونية وهي ليست خياراً متاحاً، بل هي ضرورة، إما أن يقبلها المرء أو أن يتركها. وهكذا تنتظر «الموت الاجتماعي» تلك الفئة المحلولة التي فشلت إلى الآن في الاتصال بموقع «ساي وورلد» (Cyworld) في كوريا الجنوبية، فهو رائد التسويق الافتراضي في «إظهار الثقافة وشرها».

ومع ذلك، إنه لخطأ فادح أن نفترض بأن الرغبة الشديدة في الإخراج العام «للذات الداخلية» والاستعداد لإشباع تلك الرغبة ليستا سوى علامتين على إيمان عيسى منه جيل المراهقين وتلك الفئة العمرية وحدها، فهم يجدون أنفسهم موطناً قدام في «الشبكة الإلكترونية» (وهو مصطلح قد حل بسرعة محل «المجتمع» في الخطاب الشعبي والخطاب الاجتماعي العلمي)، وهم يبقون في الشبكة الإلكترونية، بينما لا يعلمون بالتأكيد أفضل طريقة لإشباع لرغبة في الظهور العام. إن الولع الجديد بالاعتراف أو التقدير لعدم لا يمكن تفسيره بموئل متعلقة «لفئة العمرية» - كما لا يمكن فهمه دون أخذها في الاعتبار بأي حال. وما هو موئل الرسالة المستخلصة من جميع قطاعات العالم الحديث السائل الاستهلاكي؟

«إن ما كن حفاً في الماضي - كل نوح بالأسرار، وكل حياة داخلية - لا بد من إشعائه على المسرح العام (على شاشات التليفزيون بالأساس، وأيضاً على صفحات الأعمال الأدبية)، وعليه فإن من يهتمون بعدم الظهور لا بد من رفضهم، واستبعادهم، أو الاستنباه بارتكابهم للجرائم» فلعري

الجسدي والاجتماعي والنفسي هو سمة العصر»^(٨)

إن المراهقين المجهزين بأدوات الاعتراف الإلكتروني ليسوا سوى فتية يتدربون على فن العيش في مجتمع الاعترافات ويدربون غيرهم عليه - فهو مجتمع معروف باجتناّب الحد الذي كان يفصل من قبل الخاص عن العام، وتصوير الإقضاء العام للخاص كأنه فضية عامة وواجب عام، وباستبعاد أي شيء من التواصل لعام يقاوم الاختزال إلى النوح بأسرار خاصة، وبإقصاء كل من يرفضون البوح بالأسرار الخاصة

ومد أواخر العشرينيات من القرن العشرين، عندما كان التحول الكامل لمجتمع المنتجين إلى مجتمع لمستهلكين في مرحلته الجنينية أر في المرحلة الوليدة في أفضل الأحوال، وأعمله المراقبون الأقل يفتة وحكمة، صدر تعليق عن زيجفريد كراكاور، وهو مفكر له مقدرة مذهلة على إدراك السمات الوليدة الخفية للتيارات المحددة لشكل المستقبل، والمفقودة في كتله عديمة الشكل من موصات وصيحات غارة؛ يقول كراكاور.

«إن الهرولة إلى صالونات التحسين تصدر في جانب منها عن المخاوف الوجودية، وليس استخدام مستحضرات التجميل رفاية دائمة؛ فالسوء والرجال يحشون انتهاء صلاحيتهم، فيصنعون شعرهم، ومارسون الرياضة للحفاظ على قوامهم ورشاقتهم كيف يمكنني أن أصبح جميلاً/جميلة؟ هذا هو عنوان كُتيب صدر حديثاً في السوء، وتقود إعلانات المصحف عنه إنه يسّن طرقاً «لاحتفاظ بالشباب والجمال الآن ولابد»^(٩)

هذه العادات الوليدة، التي سجلها زيجفريد كراكاور اداك باعتبارها صفات غريبة لافتة للنظر ومتعلقة بمدينة برلين، انتشرت بسرعة حاطقة، وتحولت إلى عادات يومية (أو على الأقل إلى حلم) في جميع أنحاء الكرة الأرضية. وبعد مرور ثمانين عاماً على تعليق زيجفريد كراكاور، تبين أنه

Eugène Enriquez, 'L' dea, type de l'individu hyper-moderne L'individu pervers?', in (A) Nicole Aubert, ed., *L'individu hypermoderne* (Toulouse: Erès, 2004), p. 49

Siegfried Kracauer, *Die Angestellten*, essays first serialized in the *Frankfurter Allgemeine* (9) *Zeitung* through 1929, and published in a book form by Suhrkamp in 1930 Here quoted in Quintin Hoare's translation: Siegfried Kracauer, *The Salaried Masses Duty and Distracted in Weimar Germany* (London: Verso, 1998), p. 39.

«حتى في أبعد المناطق في شمال غرب الصين، تركت النساء ملابس اليوم ليرتدين بدلاً منها حمالات صدر مطية وتنانير خداسة، وفتلت كل امرأة شعرها المستقيم وصبغته بالألوان، ودخرت من أحل شراء مستحضرات التجميل، وكان ذلك يسمى شر النزعة التحررية أو الليبرالية»^(١٠).

إن التلاميذ والتلميذات يعرضون صفاتهم شغف وحماسة على مواقع التواصل الاجتماعي، على أمل بجذب الانتباه، وربما كسب الاعتراف والاستحسان للزمير للنساء في لعبة التواصل الاجتماعي، كما أن الزمائر المحمّلين مضطرون إلى تصحيح معدلات إيفاقهم وحدود الانشغال من أجل الحصول على حذمه أفضل، وأما الراغبون في الهجرة فيصارعون من أجل جمع المهارات الاجتماعية باعتبارها دليلاً على طلب خدماتهم حتى يتم قبول طلبتهم للهجرة. وهذه الفئات لثلاث المتمايزة، وغيرها من فئات عفيرة مجبرة على بيع نفسها في سوق السلع - بل وتسعى لبيع نفسها لمن يدفع أعلى سعر - إنما تجد تشجيعاً كبيراً - أو إجباراً شديداً - على ترويج سلعة جذابة ومرغوبة. فتسعى جاهدة بكل ما أوتيت من قوة لزيادة القيمة السوقية للبطائع المصاعة. والسلع التي تُشحن على عرصها في السوق وتروجه وبيعها هي... أنفسهم.

إنهم مروجون للسلع وهم السلع التي يروجونها في آنٍ معاً، إنهم السلع ووكلاء تسويقها، وهم البضائع ومدبرو بيعها (وكل الأكاديميين الذين تقدموا في حياتهم لوطائف أعضاء هيئة التدريس أو جهات تمويل الأبحاث يدركون بسهولة مأزقهم في تلك التجربة). وبصرف النظر عن الفئة التي سبغهم فيها مؤننر الحدود الإحصائية، فإنهم جميعاً يسكنون القضاء الاجتماعي المعروف باسم «السوق». وبغض النظر عن التصنيف الذي قد تُصنف فيه اهتماماتهم من جانب لموثقين الحكوميين أو الصحفيين المحققين، فإن نشاطهم المشترك (بالاختيار أو بالضرورة أو بكلية في الغالب الأعم) هو التسويق. والاحترار الذي يحتاجون إلى إحيائه، حتى يسمح لهم بدخول سباق الجوائز الاجتماعية التي يطمحون إليها، يتطلب منهم إعادة تشكيل أنفسهم باعتبارهم سلعة، باعتبارهم بضائع قادرة على لفت الانتباه، وجذب الطلب والزيائن.

Germaine Greer, *The Future of Feminism*, Dr J Tans Lecture (Maastricht Studium (١٠)
Generale, Maastricht University, 2004), p. 13

إن الاستهلاك، في أيامنا هذه لا يشير كثيراً إلى الميزات، بقدر ما يشير إلى الاستثمار في العضوية الاجتماعية، التي تترجم نفسها في مجتمع المستهلكين إلى «القدرة على ترويج الذات وتسويقها وبيعها»، بمعنى تحقيق الصفات المطلوبة في السوق، أو إعادة تدوير تلك الصفات المطلوبة وتحويلها إلى سلع يمكن سويقها. فأغلب السلع الاستهلاكية المعروضة في السوق الاستهلاكية تسعد جاذبيتها وقدرتها على حشد رباح ملهفين من قيمة استثمارها الحقيقي أو المزعومة، المعلن أو المضمرة. إن وعدها بزيادة حاذية فُتاعيتها وثمنهم في السوق هو وعد مكتوب - بخط صغير أو بخط عريض، أو على الأقل بين السطور - في وصف كل منتج. وهذا يتضمن المنحاحات التي سيتم شراؤها بوضوح لمتعتها الاستهلاكية المحصنة في الغالب، أو بهذه المنفعة وحسب. فالاستهلاك استثمار في كل ما يرفع «لقيمة الاجتماعية» الفردية وتقليد الناث.

إن العرض المهم، وربما العرض النافذ، للاستهلاك في مجتمع المستهلكين (حتى وإن كنا لا نتعرض له بالتفصيل، ولا نناقشه على الملأ العام إلا في عجالة) ليس إشباع الحاجات والرعات ولأمنيات، بل تسليع المستهلك أو إعادة تسليعه، إنه رفع حال المستهلكين إلى حال لسلع القابلة للبيع ولهذا السبب تحديداً يعد احتياز الاختيار الاستهلاكي شرطاً ضرورياً للسماح بدخول مجتمع قد شُكِّل على غرار ساحة السوق، فاجتياز ذلك الاختبار هو شرط مسبق غير مكتوب لجميع العلاقات التعاقدية التي تغزل شبكة العلاقات وتُعزل فيها شبكة لعلاقات التي تُسمى «مجتمع المستهلكين». إن هذا الشرط المسبق، من دون استثناء، ومن دون تسامح مع الرفض، هو الذي يجمع شتات العلاقات التعاقدية لبائع/المشتري في رابطة كُلية متخيلة، أو هو - لنكن أكثر دقة - الذي يسمح لذلك الشتات بأن يُعاش باعتباره كُلية تسمى «المجتمع» - وهو كيان يمكن أن نعزو إليه القدرة على «خلق المطالب»، والقدرة على فهم الفاعل وإخضاعهم - كأنها «الحقيقة الاجتماعية»، بالمعنى الذي حدده إميل دوركايم.

دعي أكرر! أن أعضاء مجتمع المستهلكين هم أنفسهم سلع استهلاكية، وكونهم سلعاً استهلاكية هو ما يجعلهم أعضاء سعداء في هذا المجتمع أن يصح المرء سلعة قابلة للبيع، وأن يبقى سلعة قابلة للسلع أيضاً، هو اسامع

الأقوى للاهتمامات الاستهلاكية، حتى وإن كان دافعاً كامناً وفلما يكون واعياً، ماهيك عن إعلانه بصراحة ووضوح فعادة ما يكون معيار تقييم جاذبية الصانع الاستهلاكية، وكن موضوعات الرغبة الحالية والمحتملة المثيرة للمعلن الاستهلاكي، هو مقدرتها على زيادة سعر المستهلك في السوق وأما اكتساب مهارات تسويق الذات وسعياً فهو مهمة يفعلها المرء بنفسه، وهو واحد فردي، فاكساب مهارات تسويق الذات وبيعها، وليس مجرد التسليع، هو التحدي والمهمة الصعبة.

إن الانتماء إلى مجتمع المستهلكين هو مهمة شاقة، وصراع شديد لانهاية؛ فالأسواق الاستهلاكية تنهف على استغلال ذلك الخوف، وتتافس الشركات المتحة للسلع الاستهلاكية على الفور بأعلى ثقة ومصداقية في مساعده عملائها وإرشدهم في جهودهم اللانهائية لمواجهة التحدي، إنها توفر الأدوات اللازمة لمهمة «خلق الذات» التي يؤديها كل فرد بمفرده، والصانع التي تصورها باعتبارها «أدوات» للاستخدام الفردي في صنع القرار إنما هي قرارات جاهزة مقدماً، إنها كانت جاهزة قبل أن يواجه الفرد واجب اتخاذ القرار (الذي يجري تصويره باعتباره فرصة). ومن السهل أن نتصور تلك الأدوات باعتبارها أدوات مُعبئة على الاحتمال الفردي، فهذه الأدوات هي صور «ضرورة» قهرية - ضرورة لا بد أن نعلمها الناس، ويمثلوا لها، ويتعلموا الامثال لها حتى يكونوا، أحراراً.

ألا يعود النجاح المدهل بنفسه نوك إلى دوره باعتباره ساحة سوق يمكن فيها أن تنقي تلك الضرورة القهرية اليومية بحرية الاختيار المدهلة؟

ديفيد ليون. لقد أكدت في كلامك أن بريطانيا تتخلف عن بلد مثل كوريا الجنوبية، حيث تقوم العلاقات الاجتماعية بين الشباب عبر الوسائل الإلكترونية، فلا شك أن اختراق السوق - كما يسمونه - لوسائل التواصل الاجتماعي و«ساي ويرلد» (الذي يقابله فيس بوك) هو أوسع في كوريا الجنوبية عنه في المملكة المتحدة، ولكن هل هناك من سبب يمنع المملكة المتحدة من اللحاق بذلك؟ فأن لا أستطيع أن أرى ماعاً لذلك. ولكن فكرة «اللحاق» قد لا تكون أفضل طريقة لتأطير هذا الموضوع لأننا نتحدث بالفعل عن طوهر مختلفة إلى حد ما، فالعالم الافتراضي في كوريا الجنوبية والفيس بوك ليسا الشيء نفسه، فالديناميات تختلف مع التاريخ والثقافة.

ولكن هالك، في كتنا الحاليتين، أسئله صعبه؛ فوما أن يلنرم علم الاجتماع بالتعامل مع لعالم الرقمي، أو أن يفقد البحث في امتدادات الشاط الثقافي المهم، والتظير لها.

بناية، لا بد من التحديد الواضح للحقيقة البسيطة الخاصة بالاستقلال التكنولوجي في أي تحليل اجتماعي له مقدرة تفسيرية عالية؛ فكثير من العلاقات تتم في حاسب منها - أو كنها - على الإنترنت، حتى إن علم الاجتماع من دون الفيس بوك وغيره ليس كافياً؛ فبصرف النظر عما يفعل الجيل القديم بالفيس بوك، فإن هذا الموقع صار بسرعة وسيلة أساسية للتواصل وسيلة «اتصال»، كما يقول الفيس بوك نفسه، وهو الآن أحد أبعاد الحياة ليومية لملايين لئاس.

وها هو دانيال ميلر، على سبيل المثال، يشر كتاً بعنوان حكايات من الفيس بوك (٢٠١١)، وفيه يوضح الارتباط العميق بين الوسائط الرقمية والحياة الاجتماعية؛ فالأزواج يمكنهم أن يراقبوا الفيس بوك حتى يكتشفوا سلامة «حالة العلاقة» أم أنها تعيرت بصعق إلكتروني أحادي الجانب. وفي حكايات دانيال ميلر، قد بوجه هؤلاء الأزواج اللوم إلى الفيس بوك على الانفصال، حتى وإن استمروا في استخدامه. وحتى عبد هذا المستوى، هذلك حونت رقابية من الدرجة الشدة، إذ يراقب الأزواج الساق اندثر، وتعتمد حركاتهم على ما يرون أنه معلومات استخباراتية موثوقة على الشاشة.

فلا بد لعلم الاجتماع من مقارنة العالم الرقمي، ولكن ذلك لا يعني مجرد الانتباه إلى وسائل التواصل الإلكتروني باعتبارها ظاهرة واسعة الانتشار، ولا مجرد الانتباه إلى ضرورة الاهتمام بدور تلك لوسائل الجديدة في العلاقات الاجتماعية، في الحد والهز، على مستويات ودرجات عدة من الشدة؛ فلا بد من الاستيعاب الفدي بمعاني الداخلية لوسائل للتواصل الإلكتروني وتقديم رؤى نقدية - وأنت يا ناوود، بكل وصوح وصراحة، لا تحاول إحداء فلقك شأن العلاقات الممكنة العابرة لئى بسمو أن وسائل التواصل الجديدة ترعاها - أو على الأقل تُسررها.

وبالطبع، لست أنت وحدك الذي يتبنى هذا الرأي. إن شيري تيركل استنحست في الثمانينيات من القرن العشرين الإمكانيات التجريبية لوسائل

الإلكترونية الجديدة، وذلك لدورها في تطوير ما أسمته «الحياة الثانية»، وتبعت شيري تيركل ذلك بطرق مثيرة في منتصف التسعينيات في كتاب بعنوان «الحياة على الشاشة»، ولكنها غيرت نغمتها لأن في كتاب بعنوان «وحيدون معاً»، حيث تقول «في هذا الزمن، يبتأس شعور بعدم لأمان في علاقات، وشعور بالقلق بشأن الصدقات الحميمة، ونلتبس في التكنولوجيا طرقاتاً حتى ندخل بها في علاقات، وحتى نحميناً من العلاقات في الوقت نفسه»^(١١). وهذا يعني أن توقع المريد من عوالم التكنولوجيا، وتوقع الأقل من عوالم لناس.

إنني ألتفق معك يا ناومان في أن عدم الاجتماع منظومة نقدية بالضرورة، وأنه لا بد أن يحلل ما يحدث بالفعل. وقد اتجهت كتابات شيري تيركل وجهة أكثر نقدية عما كانت عليه في الماضي. ولكن هذه التساؤلات حول ما قد يسميه علماء الاجتماع «لعقلانية الرقمية» ننحو منحى آخر عندما نفكر في أعداد المراقبة في الوسائل الرقمية الجديدة. ولا يعني ذلك أن العلاقات قبل الرقمية كانت مستثناة من المراقبة، بل تظهر الآن أنواع خاصة من المراقبة تلعب دوراً اعتيادياً في الوساطة الرقمية بين العلاقات. وهذا صحيح على عدة مستويات، بدايةً من ملاحقة الأشخاص عبر مواقع التواصل الاجتماعي (وهو فعل لم يعد يبعث على الحرج ولا لاستكثار)، إلى عوالم التسوق، والمراقبة الإدارية على الإنترنت، وكل هذه الأمور تؤثر في طبيعة العلاقات^(١٢).

والسؤال الذي أود أن أفضحه معك هو: إلى أي مدى نفى العلاقات الرقمية رهاً لتلك الحقيقة التقنية أم أن العالم الرقمي يمكن أن يساهم العالم الاجتماعي؟ فهذا الموضوع مرتبط جداً بكتاباتي عن المراقبة لأنني أرى أن إحدى المشكلات الأساسية في المراقبة المعاصرة هو تركيزها الضيق على التحكم، الذي يستعد بسرعة أي اهتمام بفكرة «الرعاية» فإذا ما كانت التكنولوجيات الإلكترونية عدلاً ما نخدم تضخيم بعض أكثر الحواش حذراً للمراقبة البيروقراطية (المزيد من الإبعاد، والأقل من التركيز على وجه الإنسان الآخر، الذي تناقشه لاحقاً في حوارنا)، فهل يعني ذلك أن المراقبة

Sherry Turkle *Alone Together: Why We Expect More of Technology and Less of Each Other* (New York: Basic Books, 2011), p. xi

Daniel Trotter, *Social Media as Surveillance: Rethinking Visibility in a Converging World* (London: Ashgate, 2012).

الجديدة بأسرها هي مراقبة تعمل على تآكل العالم الاجتماعي أم أن هالك إمكانية لأشكال مؤولة وراعية من المراقبة الرقمية؟

زيجمونت باومان: إن هذه أسئلة وجيهة يا ديميد. فحبات (لا سيما عندما تنتقل من أجيال قديمة إلى أجيال أكثر شباباً) تنقسم بين عالمين: «عالم على الإنترنت»، و«عالم خارج الإنترنت»، ولا مفر من المركز الثاني لجيتنا حول هذين العالمين. ولما كانت جيتنا تمتد بين عالمين، كلٌ له محتواه الجوهرى وقواعده الإحراية الخاصة، فإننا نتجه إلى توظيف المادة اللغوية نفسها عندما تنتقل بينهما، من دون أن نلاحظ تغير حقلها الدلالي في كل مرة نمر بها فيها الحدود، فلا مناص من الاحتراق المتبادل، ذلك لأن التحرة التي نمر بها في أحدهما لا بد أنها تعيد تشكيل طبيعة القيم والأحكام القيمة التي برشدا في تقييم العالم الآخر. وهذا يعني أن ما نقصيه في أحد العالمين لا يمكن وصفه وصفاً صحيحاً، ولا يمكن استيعاب معناه استيعاباً دقيقاً، ولا يمكن فهم منطق ولا دينامياته فهماً سليماً، من دون الإشارة إلى الدور الذي يلعبه العالم الثاني في تكوينه وتشكيله. فكل فكرة متصلة بعمليات الحياة الراهة تطوي حتماً على علامة تشير إلى حياة ثانية القطب. وهذا بعد أن حوش رور، الذي استشهنا به من قبل، يو صل حديثه كأنه مدوع بما ينتبك ويتأبى من محاو. «سألت أصدقائي على موقع الفيس بوك السؤال التالي «تويتر، والفيس بوك، وفورسكوير». هل كل هذه الوسائل تمحككم شعوراً بأنكم أقرب إلى الناس أم أنكم أبعد عنهم؟». وقد أثار هذا السؤال إجابات كثيرة، وبدا أنه يمس أحد أوجاع جيتنا ما هو أثر الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي في إسدائنا؟ فمن الرؤية الخارجية الظاهرية، يبدو أن التفاعلات الرقمية باردة وغير إنسانية، ولا أحد يكر ذلك. ولا شك في ذلك، إذا كان لنا الاختيار بين أن نحتض شخصاً وأن نستخدم خاصية التكرز على موقع الفيس بوك، وأعتقد بأن الجميع يتفق على أن الاحتضان ينطوي على إحساس أفصل. ويبو أن الأفكار المحورية في الإجابات عن سؤالي عن الفيس بوك تلخص فيما كتبه صديقي جيسون. «كلما اقترت من الناس، ابتعدت منهم»، ويعدها بدقة كتب: «ولكن ربما كلما بعدت من الناس، اقترت منهم»، ثم أضاف. «إسي حاتر». حقاً إنه أمر يبعث على لحيمة، فحن نعيش في هذا التناقض الآن، إذ نعيش واقعين متعارضين، فوسائل التواصل الاجتماعي تقربنا وتبعنا في آن معاً.

واقع الأمر أن حوش رور كان قلقاً من إصدار أحكام قاطعة - وهو ما يسعى أن يكون عليه المرء عندما يتعلق الأمر بمسألة جوهرية خطيرة مثل مقايضة حالات متفرقة من «القرب» خارج الإنترنت بالسوق الكبير على الإنترنت. فربما كان «القرب» خارج الإنترنت أكثر إشباعاً، ولكنه مستهلك للوقت والجهد، ومحفوف بالمخاطر؛ وأما «لقرب» عبر الإنترنت فهو أسرع، وقد لا يتطلب جهداً، ويكاد يخلو من المخاطر. ولكن كثيراً من الناس يجدون أنه أقل فائدة بكثير على إشباع الرضا العامة في الصحة الكاملة؛ فأتت تكسب شيئاً، وتحسر شيئاً آخر - ومن الصعب شدة أن تقرر إذا ما كانت مكاسيت تعوض لخسائر، كما أن القرار القاطع غير وارد - وسنجد الخيار هشأً، فلا يدوم، إلا حتى إشعار آخر، مثل «القرب» الذي اكتسبته.

إن ما اكتسبته هو شبكة، لا «جماعة». وكما ستكتشف، عاجلاً أو آجلاً (بشرط أن لا تنسى أو تعجز عن تعلم معنى «الجماعة»)، وأنت مشغول كعادتك في وصل الشبكات وفصلها)، ليس هنالك من وجه شبه بينهما سوى الشبه بين الحبس والطاثير؛ ذلك لأن الانتماء إلى جماعة هو وضع أكثر أمانيًا واطمئناناً من الاتصال بشبكة من الشبكات - وإن صاحب ذلك الانتماء مريد من لقيود والالتزامات. فالجماعة تراقبك من قرب، ولا تترك لك سوى مجالٍ ضيقٍ للمناورة (فربما يحرمك من الانتماء لها وتغيبك، ولكنها لن تسمح لك بالخروج منها بإرادتك)؛ وأما الشبكة فقد لا تكثر إلا قليلاً، أو لا تكثر أبداً، بامتداد إلى قواعد (إذا كان للشبكة قواعد أصلاً، فليس للشبكة من قواعد في الغالب الأعم). بل إنها تطبق لك العناء، والأهم أنها لن تعافك على مغدرتها. إن بوسعك أن تعول على الجماعة وفق مقولة «الصيد الحرة هو الصديق في وقت الشدة»، وأما الشبكات فهي موحودة في العلب من أجل مشاركتك المصعة، وأما استعاضتها للمحيي من أجل إنقاذك من مشكلة غير متعلقة بالاهتمامات المركزية المشتركة فقلما يوضع موضع اختبار، وإذا ما وضع، هل يجتازه إلا بالكاد. فالاختيار هنا بين الأمن والحرية، وأنت تحتاجهم معاً، ولكن لا يمكنك أن تحظى بأحدهما من دون النصحية بحره على الأقل من الآخر، وكلمة «ستزدت من أحدهما، قل نصيبك من الآخر». فعلم يتعلق الأمر بالأمس، فإن الجماعات القديمة تهزم لشبكات بكل سهولة، وأما عندما يتعلق الأمر بالحرية، فإن الشبكات تهزم

الجماعات ائديمه (فالامر لا يستغرق سوى ضغطه واحدة على زر «احذف» أو قرار بالتوقف عن الرد على الرسائل للتخلص من تطفل «الأصدقاء»)

ثمة اختلاف كبير، بل وعميق وسحيق، بين إحساس الاحتضان والكر على الفيس بوك... بين مظاهر «العرب» على الإنترنت، ونموذحه الأصلي خارج الإنترنت بين العمق والضحالة والسطحية، والدفع والبرودة، والأحاسيس القلبية والأفعال الآلية. إنك تحتار، وأغلب انظر أنك متوصل الاختيار، ومن الصعب عليك اجتناب الاختيار، ولكن من الأفضل أن تحتار وأنت تعلم أنك تخدر - وأن تكون مسعداً لدفع ثمن الاختيار ويبدو أن هذا هو ما ينصح به حوش روز، ولا خلاف على بصيخته. وهذا أيضاً ما أذكرته شيري تيركل في النص الذي استشهدت به أنت «في هد الزمن، ينتابنا شعور بعدم الأمان في علاقاتنا، وشعور بالقلق بشأن الصداقات الحميمة، ويلمس في التكنولوجيا طرقات حتى ندخل بها في علاقات، وحتى تحمينا من العلاقات في الوقت نفسه»

فهل الأسماء والصور، التي يسميها مستخدمو الفيس بوك «أصدقاء» قريبة أم بعيدة؟ إن أحد المستخدمين الشطن المحلص للفيس بوك يتباهى بأنه يمكن من ضم خمسمئة من الأصدقاء، الجلد في يوم واحد وهذا يفوق ما استطعت أنا أن أفعله طيلة حياتي منذ أن ولدت في عام ١٩٢٥. ولكن، كما يؤكد البروفيسور روبين دنبار، وهو باحث في أنثروبولوجيا التطور بجامعة أكسفورد، «لا تسمح عقولنا سوى بعدد محدود من الدس في حياتنا الاجتماعية»، ووجد روبين دنبار أن «أغلب يمكن أن يحتفظ بما لا يزيد على مئة وخمسين علاقة اجتماعية مستقرة» وليس عريباً أنه أطلق على ذلك الحد الذي يفرضه التطور البيولوجي للإسان «عدد دنبار». وهذا هو الحد الذي أوصل التطور البيولوجي إليه أسلافنا القدماء، وتوقف عنده، أو على الأقل أبطأ السير شدة، تاركا المجال لحليفته الأكثر خفة ورشاقة وسرعة ومهارة، والأقل صر - وهذا الحليفة هو «التطور الثقافي» (ذلك لتطور الذي تحدثه الشر أنفسهم وشكلونه ويدفعونه، عبر التعليم والتعلم لا عبر التنظيم المتغير للحيات)

دعي أكرر؟ «مئة وخمسون» هو أكبر عدد للبشر الذين يمكنهم أن يجتمعوا وتعاونوا ويتكلموا، فحجم الجماعة البشرية البدائية لم يكن ليتجاوز

ذلك الحد السحري لولا الاستعانة بقوى وأدوات «ثقافية». ولولا تلك القوى والأدوات «الثقافية»، ما كان من الممكن استدامة القرب المتواصل لأعداد كبيرة من البشر، ولكانت القدرة على «مراقبة» تلك لأعداد الكبيرة غير ممكنة. إن «تخيّل» الكليات البشرية المتجاوزة للحواس الخمس كان غير ضروري بقدر ما كان واقعاً خارج طوق الفكر والخيال؛ فلم تكن العقول بحاجة إلى تحرير ما لا تتمكن الحواس من استيعابه... فهل كان مكتوباً على مشوء الثقافة أن يتزامن مع مجاور «عدد ديار»؟ وهل كان يحاور ذلك العدد هو لفعل الأول لتجاوز «الحدود الطبيعية» - وإذا أخذنا بالاعتبار أن ذلك التحوّل للحدود (سواء أكانت الحدود «طبيعية» أم بشرية) هو السمة المميزة للثقافة وطريقة وجودها، فهل كان ذلك أيضاً هو مشوء الثقافة؟^(١٣)

إن «شبكات الصداقة» المدعومة إلكترونياً وعدت باختراق الحدود العصبية على التواصل الاجتماعي، تلك لحدود التي وصفتها السمات الجينية المكوّنة للقدرة الذهنية والشعورية للأفراد؛ لكنها لم تبعد بوعدها، ولم يمي به - وكُنس على هذا الوعد الإرجاء الدائم ويقول ديار في مقالة شره في الخامس والعشرين من كانون الأول/ديسمبر من عام ٢٠١٠ في صحيفته النيويورك تايمز: «نعم، يُمكنك أن تُصادق خمسة، أو ألفاً، بل وخمسة آلاف، على صفحتك الخاصة على الفيس بوك، ولكنهم جميعاً، باستثناء المئة والخمسين الأساسيين، ليسوا سوى مشاهدين فضوليين مولعين بمشاهدة تصفيل حياتك اليومية» ومن بين تلك الآلاف من أصدقاء الفيس بوك،

(١٣) توصل باحثون آخرون إلى حدود مختلفة، أحياناً إلى ضعف العدد الذي أمره ديار، يقدم عالم الأنثروبولوج هارفي راسل برنارد وآخرون دراسات ميدانية في الولايات المتحدة، وتوصلوا إلى عدد متوسط للعلاقات المستقرة بين سامس، وهو ٢٩٠، وهذا تقريباً ضعف العدد الذي أمره ديار. ويعتمد هذا التقدير لحد أقصى لحجم الشبكة الاجتماعية المستقرة عند الفرد الواحد على عدد من الدراسات الميدانية التي تستخدم منهج مختلفة في قطاعات سكانية مختلفة. ومع ذلك فإن هذا العدد لم يزل الشهرة التي نالها العدد الذي وضعه ديار وعلى العكس من هؤلاء الباحثين الذين ذكروا على مجمعات في قطاعات سكانية معاصرة متنوعة تقدير حجم لشبكة الاجتماعية المستقرة، توصل ديار إلى هذا العدد عندما كان يمحس أدمة الرئيسات (وهي أعلى رتبة الثدييات) وعاداتها الاجتماعية، واقتصر ديار رابطاً بين متوسط حجم انتشار الدماغية بهذه الثدييات وشبكتها الاجتماعية، واستقر السائح على البشر، تبين له أن حجم الجماعة البدائية يحد من عدد العلاقات الاجتماعية المستقرة. ولا بد من النظر إلى ما توصل إليه ديار على أنه اقتراض لا اكتشاف قطعي.

تتخصص «العلاقات المستمرة»، سواء عن طريق التواصل الإلكتروني أو معاشتها خارج الإنترنت، في داخل الحدود الحصية التي شيدها «عدد ديار» كما كانت في العصر البدائي؛ فالخدمة الحقيقية التي يقدمها الفيس بوك وغيره من المواقع «الاجتماعية» هي الاحتفاظ بأصل ثابت للأصدقاء في سياق عالم سريع التغير والحركة والانتقال. . .

وأما أسلاف، فقد تعاملوا مع الأمر ببساطة؛ فكانوا يميلون مثل أقرب الناس لهم وأهزمهم إلى الإقامة في مكان واحد من المهد إلى اللحد، في قرب شديد، ووصول سهل، ورؤية دائمة. وهذا الأساس «لطبوغرافي» من الروابط المديدة، بل والدائمة ما دامت الحياة، ليس من المحتمل أن يظهر الآن، بل هنالك احتمالية أقل بأن يصمد أمام سفق الزمن، فهو عُرضة دوماً لتقلبات احبة الفردية ومساراتها المتغيرة. فمن حُسن حظنا أن لدينا الآن وسائل نعيننا على «الاستمرار في الاتصال»، وهي وسائل تتجاوز الحدود والأفطر تجوراً حقيقياً كاملاً، ومن ثم فهي مستقلة عن درجة القرب المادي ومرات تحققه. ويذهب ديار إلى أن موقع الفيس بوك وغيره من مواقع التواصل الاجتماعي، وهي وحدها، «تساعدنا على الاحتفاظ بصداقات كانت ستختفي بسرعة من دونها». ومع ذلك، فليست هذه هي نهاية المنافع التي تقدمها: «فهي تساعدنا على إعادة دمج شبكتنا، وبدلاً من أن يكون لدينا جماعات فرعية منعزلة عنه من الأصدقاء، يمكننا أن نعيد انشاء (الأفراصي) للجماعات لربقية القديمة لي كان يعرف فيها الناس جميع أهلها». ويروي ديار بأنه ثبت في حالة الصداقة عدم صحة فكرة مارشال مكلوهان القذلة بأن «الإعلام هو الرسالة»، وإن كان استشرافه لنحول العالم إلى «قرية عولمية» قد تحقق، وإن كان ذلك في العالم «الافتراضي».

وليس أكيداً أن تلك الخدمات بعينها هي التي صممت تلك الشهرة الكبيرة لمواقع «التواصل الاجتماعي»، وحملت مسوقها لأساسي - مارك إليوب زوكربيرج - مليارديراً في لمح البصر، إن تلك الخدمات هي لي مكنت البحث الحديث عن السهولة والمتعة والراحة من الوصول إلى أرض الروابط الإنسانية التي كانت تحتفي باستقلالها وتدافع عنه، وبأن يغزوها، وبأن يستعمرها؛ إن تلك الخدمات أخلت تلك الأرض من المحاطر، أو كادت تحلبها تماماً، بحيث يمتنع الترحيب بها إذا طال بقاؤها، أو يكاد

يمنع الترحيب بها تماماً؛ إنها ألغيت كمنفعة لتقليل الخسائر، أو كادت تلغيها؛ لقد استطاعت تلك الخدمات أن تجعل المستحيل، وذلك بتطهير العلاقات من أية روائد، فأزالت المشكلة المربكة (عدم قابلية الانفصال) الذي اعتادت أن تعكر صفو الاجتماع البشري

ديفيد ليون: إن كثيراً مما نقوله يستهوي يا باومان، ولكي أعني تماماً أنني لست جزءاً من جبل الفيس بوك، فأنا عابر سبل رقمي اضطر أن يشق طريقه إلى ثقافة جديدة، ولست من أهل الفيس بوك الرقميين الذين يرون فيه طريقة بديهة ضرورية للتواصل مع غرهم. بالطبع يمكننا أن نلاحظ الطرق التي يخضع فيها مستخدمو الفيس بوك للتسلع، فمن غير المناسب أن نستخدم كلمة «صديق» كما نهمها للإشارة إلى ألف شخص، كما أن الفيس بوك، باعتباره أداة للمراقبة، يتزج معلومات مفيدة من الناس، ويكنهم بذلك من القيام بالتصنيفات لمبدئية بتعريف أنفسهم على أنهم «أصدقاء»، ولك أن تسمي ذلك باسم «التوافق مع المراقبة» ولكن من السهل تماماً أن نلاحظ إمكانية استغلال الفيس بوك للناس، ونسى أن الناس يستغلون الفيس بوك على الدوام، وبحماسة، وإدمان.

ففي دراسات المراقبة، من السهل تماماً أن ننظر إلى مستخدمي الفيس بوك على أنهم مغفلون يعانون من خداع ثقافي، لكن ربما علينا أن نعترف بأن لمولعين بوسائل التواصل الاجتماعي يحلون بعض مافع الاتصال في تدويناتهم ورسائلهم وصورهم وتحديثاتهم وإعجابهم وكرهم، ولكنهم في الوقت نفسه يعطون الانصاع بأن المراقبات والمخاض الناحية عن تشار بياناتهم الشخصية تفوق تماماً أهمية متعتهم. فهل لك أن تعبق على سؤاليين يدوان وثبقي الصلة بالموضوع؟

السؤال الأول ثم تفسر الشعبية المتزايدة لوسائل التواصل الاجتماعي؟ هل يعود ذلك إلى أنها تسد فجوة (ولو بدرجة من القصور) في عالم حديث سائل تسوده علاقات عبثية، وتزامت «حتى إشعار آخر»، ومستويات عالية من الحركية والسرعة؟ إن المجتمع القديم الذي كادت تسوده العلاقات لباشرة في القرى، وحيث كان الناس يعرفون بعضهم بعضاً، إنما هي فكرة في الروايات التاريخية الرومانتيكية أو - من منظور لبعض - ذاكرة الخوف من

الحبس. إن الرغبة في إيجاد أصدقاء، مهما كانت هشة، أو على الأقل الرغبة في إنشاء بعض الاتصالات البشرية، ما زالت مستقرة، بل وقد تكون مدفوعة ببعض خصائص «الجماعة».

السؤال الثاني: إذا كان الناس يستخدمون وسائل التواصل الاجتماعي استخداماً شطراً لقضاء أغراضهم، لماذا يحدث عندما تتعارض تلك الأغراض مع الشركات أو الحكومات التي قد يُعتقد أنها تستخدمها؟ على سبيل المثال، حملة لشركة ماكдонаلدز على موقع تويتر تستخدم هاشتاج لتأليف قصص مثيرة عن تجارب العشاء الجيد، وقد أنت الحملة نتائج عكسية عندما استغل زبائن ساخطون الفرصة للشكوى من لتسمم من الطعام والخدمة السيئة^(١٤) فإذا كان من صراعات بين الفيس بوك ومستخدميه، فإنها تتعلق في الغالب الأعم بطريقة استخدام المعلومات الشخصية؛ فبعض الخواص الجديدة مثل «البيكون» (Beacon) أو «التايم لاين» (Timeline) أشعلت غضب المستخدمين الذين تحدو قدرة الفيس بوك على إطفاء الحريق ومهارته في إخفاء ألسنة اللهب. ومن جهة أخرى، وُظفت وسائل التواصل الاجتماعي توظيفاً بارزاً في عدد من الاحتجاجات والحراك الديمقراطي، بدايةً مما يسمى الربيع العربي إلى احتجاجات حركة «حتلوا وود ستريت» في عام ٢٠١١. وبالتأكيد، ساعدت تلك لوسائل السلطات المختصة على تعقب المحتجين، ولكن هل يلغي ذلك فائدة وسائل التواصل الاجتماعي في التنظيم الاجتماعي؟

إنني أعلم أن هذا سؤال معقد، وأعلم أنك قد أشرت إلى أن وسائل التواصل الاجتماعي تعترف في إنشاء الشبكات، وأن روابط هذه الشبكات ضعيفة، وهي جيدة في زيادة المشاركة أو إطلاق أفكار ومعلومات جديدة - فأحرحت شركة ماكдонаلدز على سبيل المثال ولكن هل تختلف هذه الشبكات عن أنواع العلاقات التي تتسم بروابط قوية راعية للدوام والتصحية بالذات والمخاطرة؟^(١٥) ولكن حتى وأنا أقول ذلك، لا يبدو أن بعضاً من

(١٤) انظر

"McDonald's #McDStories Twitter campaign backfires. *Daily Telegraph*, 24/6/2012, at

< <http://www.telegraph.co.uk> > (accessed Apr 20.2).

Malcolm Gladwell, "Small Change Why the Revolution will not be Tweeted," *New Yorker* (24 October 2010).

سمات تلك الالتزامات بالروابط القوية واضحة على الأقل في بلدان لربيع العربي.

ويجُمُوت باومان^{١٦} إن ما نقوله هو سكين يمكن استخدامه في قطع الخبز وفي قطع الرقاب... لا شك أنك مُحَقٌّ فيما تقول. ولكن نُقطع ألوان محتملة من الخبر والرقاب في حال ذلك السكين بعينه الذي يسمى الوصل/ الفصل، الاندماج/ الانفصال، وما أتحدث عنه في أغلب الوقت هو موضوع التفاعل بين الناس والروايات بينهم انني نطبق عليها ذلك السكين بعينه، لا سيما في تأثيرها الذي تطوي عليه عبارة «الإعلام هو الرسالة»

دعي أوضح باختصار هذه الازدواجية من خلال الحديث عن الحس الذي يأتيها عن طريق الإنترنت، ودعني أشير من أجل هذا العرص إلى ملاحظة أتى بها العقري جان كلود كاوفمان عندما قال إنه يفصل «خواسة» العلاقات بين الرجل والمرأة، صار اجنس في حالة غير مسبوقة من الارتباك:

«وفق النموذج الرومانتيكي، في البدء كان الإحساس، الذي تطور فيما بعد إلى رغبة. وأقصى الحب (عمر الرواح) إلى الحس. وأما الآن فيبدو أن أمام خيارين مختلفين جداً: فلأما أن نعلمس مبتهجين في الجنس باعتباره نشاطاً ترفيهياً، ولأما أن نحرص على التزم طويل المدى. فأما الخيار الأول فيعني أن ضبط النفس هو الأساس مسألة تتعلق باحتساب الالتزام، فتحدث الوقوع (أكثر من اللام) في الحب... والحظ لفاصل بين الحس والإحساس يفقد وضوحه إلى حد كبير»^(١٦).

وهكذا يشرع جان كلود كاوفمان في تعرية الشابك المعقد، وإن لم يعمل ذلك ليحل ما تبين أنه عقدة مستعصية على الحل كأنها عقدة العقد التي حاول الكثيرون حلها من دون جدوى..

إن هذين الخيارين، كما يبين جان كلود كاوفمان، «يرتبطان سموذجين متعارضين لمكرة الفردية، وعليه، فإن الأفراد لمعاصرين المدفوعين إلى اتباع الخيارين قد يسحبون في اتجاهين متعارضين؛ فمن جهة، هناك النموذج

Jean-Claude Kaufmann, *Sex@mour* (Paris: Armand Colin, 2010). here quoted from (١٦)

David Macey's translation, *Love Online* (Cambridge Polity, 2012)

الاقتصادي الذي يفترض أن الأفراد يتصرفون دوماً على أساس المصلحة الدانية العقلانية . والنموذج البديل يمثله الحب... وهذا النموذج يعين الفرد على التخلص من الذات الأنانية، وعلى وهب حبه لسعادة الآخرين» (ولكن هذا الوصف للحب ليس صحيحاً تماماً في نظري، فلا شك أن النموذج الاقتصادي ونموذج الحب متعارضان أبداً متعارض، ولكنهما ليسا متعارضين متعارض الأثر والإيثار، بل إن النموذج الاقتصادي يصعب لأثره والإيثار باعتبارهما توحيهن متعارضين، وأما في الحب فإن الصديقين الصديقين و لعدوين اللدودين يلتقيان، ويلتصقان، ويمتزجان - فلا يمكن الفصل بينهما ولا التمييز بينهما).

إن الخيار الأول يأتي على غرار «الوهم الاستهلاكي» إنه يأمل بإقناعنا بأننا يمكن أن نختار رجلاً (أو امرأة) بالطريقة نفسها التي نختار بها نوعاً من الرابدي في المحال التجارية الكبرى، ولكن الحب ليس كذلك، فالحب لا يمكن اختزاله في نزعة استهلاكية، وقد يكون ذلك أمراً جيداً، فالاختلاف بين الرجل والرابدي هو أن المرأة لا يمكن أن تُدحرج رجلاً في حبتها وتوقع أن كل شيء سبطل كما هو.

ولكن، بسبب «الوهم الاستهلاكي»، تبدو كل الأمور أمة؛ فالفرد يدخل الموقع بصحبة إلكترونية واحدة، ويخرج منها بصحبة إلكترونية أخرى . ويتصور الفرد المسلح بأداة التحكم الإلكتروني أن اتصالاته الاجتماعية واقعة تحت سطره لكاملة المطلقة . وسدو أن كل الحقائق المعتدة قد احتفت، وانفتح عالم من الإمكانيات اللانهائية فالفرد على الإنترنت هو أشبه بطفل أطلق له لسان في أحد محلات الحلوى.

كل شيء يبدو دقيقاً وآسناً وحميلاً . . . إلا إذا . . . نعم، إلا إذا كان هناك مشكلة . . . إلا إذا ظهرت أحاسيس ونسب الحب إلى القلب، وأربك الحكم وإحسانات.

وفي بعض المواضع، يكاد جاد كلود كاوفمان يلقي بالمسؤولية على الخنوع والخصوع الخادع لأداة التحكم الإلكتروني وثورة الحاسبات، ولكن كاوفمان يعني أن جذور المشكلة هي أعمق من ذلك بكثير، وأنها تصل إلى الصراعات الوحدوية التي يورط بها المجتمع الراهن أعضاءه. وقد أصاب

جان كلود كوفمان عندما قال. «إن المجتمع مهووس بالبحث عن اللذة، ومولع بالمغامرة، ومغرم بأقوى التحارب الحسبة الحديدية، ولكنه يحتاج أيضاً إلى الاستقرار والطمأنينة التي تشجعنا على اجتناب المحاطرة والمجازفة؛ ولذا فإن التطورات الراهنة تبدو متناقضة جداً» حساً، إنها لا تبدو متناقضة وحسب، بل إنها متناقضة حقاً. إنها متناقضة مثل تناقض الحاجة إلى الحرية والحاجة إلى المعمار، ومثل الأدوات والاستراتيجيات الموفرة اجتماعياً التي تخدم كل حاجة من تلك الحدج، ولكنها تكاد لا تخدمهما أبداً.

إس في ورطه مردويته - ورطه ليس لها محرج واضح، ولا تخلو من المخاطر؛ فإذا احترت الأمن أولاً، فإنك بحاجة إلى التخلي عن تجارب مدهلة كثيرة تعد الحريات الجنسية وتوفيرها، وعالياً ما توفرها. ولكن إذا كانت الحرية هي عبتك الأولى، فلن تجد شريكاً يأخذ بيدك عندما تتعثر في مكان تحيطه مستنقعات خطيرة ورمال متحركة وبين هذين الحليين، يفسح صندوق باندورا المربك! فعممة العلاقات بين لجسين ونقمتها عبر الإنترنت تأتي من مصدر واحد، إنها تأتي من «منطقة وسطية، فلا شيء فيها يقدر بقضاء وقدر، ولا أحد يعلم مقدماً ما سيحدث»؛ إنها تبعث من فضاء قد يحدث فيه أي شيء، ولكن لا يمكن أن يحدث فيه أي شيء بأي قدر من اليقين ولا الثقة ولا الطمأنينة.

إن وسائل الاتصال عبر الشبكات ليست المتهم لمسؤول عن الجريمة، عكس ما قد يوحي به بعض نقادها «المتصفحين» للإنترنت، لا من يعرضون فيه ويسرون أعوارهم. إن وسائل الاتصال عبر الشبكات تدب بنحاحها المذهل الذي يطلق سرعة البرق إلى تقديمها مستخدمها فرصة أفضل لعل ما كانوا يتمنون دوماً أن يفعلوه، ولكنهم عجزوا عنه لعدم وجود الأدوات المناسبة. ولكن الأجهزة ليست الممعد المسؤول عن تحقيق الحاجة، كما يحرم أنصارها المبهجلون. وهذه الفوضى تضرب بجذورها في الطريقة التي يتم بها التعامل مع أرممت الوجودية وتوظيفها من جانب مجتمع شغلناه بأنفسنا وتشكله. ولكي نُخرج أنفسنا من هذه الفوضى (إن كان من الممكن تصور ذلك بأي حال)، فإننا نحتاج إلى أكثر من مجرد تعبير الأدوات - التي تساعدنا على فعل ما نحاول أن نفعله وحسب، سواء أكان

ذلك في صورة صناعة منزلية صغيرة أو استخدام تكنولوجيا متطورة سائدة.

إن الانتشار الواسع لكل من تويتر والمدونات التي ندعو الناس إلى الخروج إلى الشوارع والسياديين العامة هي مثال آخر على الازدواجية نفسها. فما كان مجرد بروفة لمظية في بداية الأمر على الفيس بوك وتويتر صار واقعاً يعيشه الناس، ولم يفقد السمات التي جعلته عزيزاً وغالياً عندما كان يُمارس على الشبكة الإلكترونية: ألا وهو القدرة على الاستمتاع بالحاضر من دون رهس المستقبل، حقوق من دون واجبات.

إنها التجربة المذهلة للاجتماع الشري، ولعلها تجربة لتصام، فذلك التعبير يقع بالفعل، وهو يحاطبنا قائلاً: لن نكون وحيداً بعد اليوم. ولم يستغرق تحقيق ذلك سوى جهد ضئيل - ضئيل بما لا يتجاوز وضع حرف (d) مكان حرف (l) في كلمة «وحيد» (solitary). فتحة طلب على التصام (solidarity)، وهو تصام يدوم بدوام الطلب (ولا يدوم أكثر من ذلك). هالتصام لا يعني تشارك منشورت قصية ما على الفيس بوك بقدر ما يعني الدواع عن قصية: أنا وأنت وجميعنا («جميعنا» تعني الناس في الميدان) نتطلع إلى غاية ما، ونتطلع حاشا إلى معنى.

قل بضعة أشهر، أرسل شباب في تربة حراسة بالحيم المصوبة حول وول ستريت دعوة إلى سح وونسا (Leah Waters)، الرعيم الأسطوري بحركه التضامن البولندية الأسطورية، وهو رعيم مشهور أسهم في تمكيك الإمبراطورية السوفياتية تشجيع رملاته من عماد أحواض السفن، والمناجم، والمصانع على الاعتصام بلا تفاهم داخل مواضع بناء السفن، والمناجم والمصانع حتى تلبية مطالبهم. وفي ذلك الخطاب، أكد الشباب المحتشمون في شوارع مانهاتن ومياديبها أنهم طلاب وأعضاء نقابات من أجدر عدة، ومن أكثر الخلفيات وأفكار اسيساسية تنوعاً، ولا يجمع بينهم سوى الرغبة في «اسعدة البقاء الأخلاقي للاقتصاد الأمريكي»، وأبهم لا قائد لهم سوى الإيمان امشترك بأن تسعة وتسعين بالمئة من الأمريكيين لن يحتسموا بعد اليوم - ولا يمكنهم أن يحتملوا - طمع واحد بالمنة وحشهم. وأكد الشباب أن حركة التضامن في بوندا هي نموذج يعبر عن إمكانية هدم الأسوار والعوائق، وتحويل المستحيلات إلى ممكنات، وهو نموذج عزموا على الاحتذاء به.

وهذه الكلمات نفسها، أو كلمات مشابهة جداً، كان من الممكن أن تكتسبها حشود لشباب، وليس الشباب الصعير وحدهم في حركة الحامس عشر من أيار/مايو الذين غمروا كالأمواج الميادين الكبرى في مدينة مدريد ونظائرها في تسعة وواحد وخمسين مدينة في أكثر من تسعين دولة. وليس لأية من تلك الحركات من قائد، وهي نغذب أعضائها المتحمسين من جميع مجالات الحياة والأجاس والأديان والمعسكرات السياسية، ولا يجمع بينهم سوى رفضهم بأن تسير الأمور على ما هي عليه وكلّ منهم يتصور عائقاً أو جداراً وحيداً عزم على تحصيله وتدميره، وقد تنوع هذه العوائق من بلد إلى آخر، ولكن كل عائق يُعتقد أنه يعرق الطريق إلى مجتمع أفضل، مجتمع أكثر رحابة وصداقة للإنسانية وأقلّ سامحاً مع اللاإنسانية. فكل عائق يحضر إليه بأعباره العائق الذي ستفسي إزالته إلى وضع نهاية لكل ألوان المعاناة التي جمعت بين المتظاهرين، فلا بد من الإطاحة بالنظام حتى تتحرك السلسلة بأكملها، وأما السؤال عن شكل الأمور بعد ذلك فلا ينبغي أن يحدث إلا عندما تتم المهمة، ويتحقق تطهير موقع البناء من أجل المجتمع الجديد المعدل، أو كما يقول الإنكليز «سنحرق الجسر عندما سلّمه».

تجمعت لحشود على إسقاط النظام، وتركوا الغموض يحيط بصورة العالم في اليوم التالي لهدم النظام، وهنا تكمن قوة الناس في الشوارع - وضعفهم أيضاً. ولدينا بالفعل دليل كافٍ بأن حركات السخط والاحتجاج تمتلك قدرة كبيرة على الفعل مثل جماعات الهدم، ولكن الدليل على قدراتها بأعضائها جماعات تخطبط ولاء مران ناقصاً وقبل بضعة أشهر، شاهدنا جميعاً، في حالة من الإثارة والقلق والإعجاب المتزايد، المنظر الحبيب للربيع العربي؛ إني أكتب هذه الكلمات في نهاية شهر تشرين الأول/أكتوبر - ولكننا مارلنا نتنصر، إلى الآن من دون جدوى، الصيف العربي...

وأما رول سريب فلم يأتثر كثيراً بالتدمير ولا الاحتجاج الإلكتروني، فربما يكون قلق الرأسماليين من شبكات التواصل الاجتماعي أقل درجة من قلقهم من المحتجين الحقيقيين في الشوارع أمام الأسية.

الفصل الثاني

المراقبة السائلة: مرحلة ما بعد البانوبتيكون

ديفيد ليون: بين المبتدئين في دراسة المراقبة، تبدو فكرة «البانوبتيكون» فكرة عقريّة؛ فهي، على أحد المستويات، نظرية حول آلية المراقبة، وهي، على مستوى آخر، وسيلة لوضع المراقبة داخل قصة الأحداث. وكان «البانوبتيكون» مهماً جداً من منظور ميشيل فوكو، الذي اشتهر بإلقاءه الضوء على تصميم لبانوبتيكون لدى جيرمي بنثام باعتباره مفتاحاً لفهم نشأة المجمعات الحديثة الساعية إلى الانضباط الذاتي.

ولكن مجرد ذكر «البانوبتيكون» يثير تأوهات عاصبة من حاسب المتخصصين في دراسات المراقبة؛ إذ يرون أن الناس اعتقدوا بأن البانوبتيكون يفسر كل شيء، فكنت النتيجة أنهم كانوا يلجؤون إلى الرسم السمي الخاص بانوبتيكون في كل مناسبة ممكنة لتفسير المراقبة. وهكذا سمع عن «البانوبتيكوبات الإلكترونية» و«البانوبتيكوبات المميرة»، وتوابعاتها، مثل «السبانوبتيكون» synopticon أو «الوليوبتيكون» polyopticon. «ذلك يكفي! فلنحطم الجدران!»^(١) هكذا قال كيف هاجرتي، ثمة حدود تاريخية ومطقية للمقدرة التفسيرية للبانوبتيكون بوضعه صورة محازية.

ولكن ميشيل فوكو قدم ملاحظات مثيرة مهمة حول البانوبتيكون. وأوضح أنه حقاً مرآة الحادثة في جوانب مهمه، ورأى في المراقبة مفتاحاً، يتحكم في «الروح» لبحر السلوك والاداع. إن كلام فوكو عبق وثاقب. «إن من يخصص لمجال الرؤية، ومن يعلم ذلك، هو المسؤول عن قيود السلطة؛ وهو من يسمح لها بأن تلعب به تفتياً، وهو من يستوعب علاقة اسطلة التي

Kevin Haggerty, "Tear Down the Walls," in: David Lyon, ed. *Theorizing Surveillance* (١)
The Panopticon and Beyond (Culompton: Willan, 2006).

يلعب فيها الدورين في آن، وهو من يصحح أساس خصوصية^(٢) وهكذا يصبح الخضوع لمجال الرؤية وحاً، لكنه فتح يساعد نحن أنفسنا في تكوينه وإذا كان لنا أن نطلق بنسب البانوبتيكون على التمكن في المراقبة ابراهية، فإن تلك الرؤية الثاقبة وحدها تستحق لاستكشاف، كيف ستوسع سلطة المراقبة عندما يدخل إلى الإنترنت، وستحدم بطاقة الانتماء، وتظهر حواجز السر، وتقدم بطلب إعانة حكومية^(٣)

لقد تعلمنا من فوكو أن علاقات السلطة تشمل جميع المواقف الاجتماعية المتنوعة، وأنها لا تقتصر على المواقف التي تنضج فيها محاولات السيطرة على جماعة من الناس أو إدارتها، كما تفعل الشرطة أو كما يفعل مسؤولو الحدود. وربما لا يعجب المرء إذا وجد أن مراقبة المستهلك عبر قواعد بيانات التتبع، على سبيل المثال، توصف بأنها «بانوبتيكية». كما فعل أوسكار غاندي في كتابه عن السيطرة البانوبتيكية اقتصاد سياسي للمعلومات الشخصية^(٤).

ولكن محاولة استخدام صورة البانوبتيكون ليوم يمكن أن يأتي بنتائج متعكسة أيضاً نعارض؛ فهذه هي لوردا رودر تستكشف السجون مشددة الحراسة (وهي تمثل الحد الأقصى من استباير الأمنية)، وقادها بحثها إلى القول بأن لبانوبتيكون قد «شخص حالتنا جميعاً»^(٥)، فتجربة السجن مشددة الحراسة تدفع بعض السجناء إلى تشويه أحسادهم بأنفسهم؛ ذلك لأن «الاستغلال البانوبتيكي المحسوب» للحسد يستدعي بعضه، بمعنى أن معاشة السجناء لأحسادهم باعتبارها أجساداً محذولة مهجورة تدفعهم إلى استخدام أحسادهم لتوكيد ذواتهم، فيقاومون لاكتشاف لسببي الذي يهدف إلى إخضاعهم بتعمد الاكتشاف وتكنيفه بدلاً من الاحتواء^(٦).

ومن جهة أخرى، في كتابات أوسكار غاندي، وفي كتابات مارك

(٢) Michel Foucault, *Discipline and Punish* (New York: Vintage, 1977), pp. 202-203

(٣) Oscar Gandy, *The Panoptical Sort: A Political Economy of Personal Information* (Boulder: Westview, 1993)

(٤) Lorna Rhodes, "Panoptical intimacies," *Public Culture*, vol. 10, no. 2 (1998), p. 308

(٥) Lorna Rhodes, *Total Confinement: Madness and Reason in the Maximum Security Prison* (Berkeley: University of California Press, 2004).

أندرجفيك^(٦)، نرى الفرز لابوبتيكي وهو يعمل في سياق استهلاكي. وهذه هي النهاية الناعمة/الصرف الناعم لسلسلة المراقبة المتصلة. فاستعلان قواعد بيانات التسويق يقوم على حداث الأهداف المستهدفة وإيهامها بأهميتها بينما كل ما نريده قواعد بيانات التسويق هو إحصاء هذه الأهداف، وبإلطف استدرجها إلى عمليات شراء جديدة. وهكذا يجري تسليع التمرد، فإذا كان ذلك يمثل سلطة بابوبتيكية، فإنها سلطة في خدمة أهل السوق، العازمين على حداث المغفلين وإعرائهم ولكن النتائج التي توصل إليها أوسكار عاندي ومارك أندرجفيك توحي بأن تلك الأساليب اعتيادية. وهي تظهر بوضوح في كل صناعة تسويقية مرهرة ومرهجة.

وهنا يكمن لتناقض. فالطرف الحاد قد يولد لحظات من الرقص والمقاومة التي تعمل صد إنتاج «لأجساد الطيعة الخائفة» كما صورها فوكو، بينما الطرف لرفيق يبدو أنه يعري المشاركين بامتثال عجيب يبدو أن البعض قلما يبعه^(٧) إن لتناقضات من هذا القسئ شر أسئلة مهمة عن الجسد والكيولوجيا، وعن السلطة الإنشائية والمقاومة النشطة، والاختفاء والرؤية المتبادلة، وبكيفية تأثير شكوكاً مرعجة حول مدى فائدة التحليل اسانوبتيكي اليوم.

وهذا ما يدفعني إلى أن أسألك عن البابوبتيكون؛ فأنت لك كتابات قوية مقبعة عن تلك الفكرة قبل أن نستخدم نقد البابوبتيكون كوسيلة لكشف تحاور الحداثات المصيرة لسماتها القديمة. واقع الأمر أنك تستخدم البابوبتيكون باعتباره جزءاً من القصة القديمة التي تليها القصة الجديدة التي تسميها «الحداث السائلة»، حيث يذوب عالم الثبات وينحول إلى سيولة الدفق، وتنت أشكال الانضاط في فضاءات جديدة وفي مواقف جديدة

وفي ضوء ذلك، أبدأ بسؤال عام من قبل أن نحاول الكشف عن التفاصيل. هل ظهور المراقبة السائلة يعني سريان البابوبتيكون؟

Mark Andrejevic, *Reality TV: The Work of Being Watched* (New York: Rowman & Littlefield, 2004)

David Lyon "The Search for Surveillance Theories," in Lyon, ed., *Theorizing Surveillance: The Panopticon and Beyond* p. 8

زيجمونت باومان: بدايةً، إسي لا أشاطر كيمس هاجرتي مخاوه...
فعل بصعة عفود، تحصنت صد هذا التحذير وصد تحذيرات مشابهة، فقد
حذرني من قبل عالم النفس الكبير جوردون ألبورت بأسا في الإنسانيات لا
تحل أية قصايا أبداً - بل إننا نمل منها وحسب. وصدرت لدعوات إلى
النسيان منذ ذلك الحين أشد الأغنيات إعواء ومحاطرة، وهي تندف من
مكبرات الصوت أو من سماعات الأذن الخاصة بالعصر الحديث اسائل...

وأنا أرى أن ابانوبتيكون ما زال حياً وبصحة جيدة، بل إنه مسلح
بعضلات بشرية (معرزة إلكتروني)، وهي عضلات قوية تماماً إلى درجة لم
يكن يتخيلها جبرمي بنام ولا حتى ميشيل فوكو، وما كان برسعهما أن
يتحिलाها - ولكنها لم تعد النموذج العام ولا الاستراتيجية السائدة التي كان
يعتقد بنام وفوكو في أزمانهما، بل إنها لم تعد، للمودج الأساسي لسائد
في الممارسه ولا الاستراتيجية الأساسية السائدة في الممارسه

ويرى إرفينج جوفمان أن البانوبتيكون قد تغير، واحصر في قطاعات
«قابلة للإدارة»، مثل السجون، والمعسكرات، ولعيادات النفسية، وغيرها
من «المؤسسات الشاملة». والطريقة الحديثة التي تعمل بها هذه المؤسسات
مسجلة سراعة ودقة من قبل لويك فاكونت وهذا يعني أن الممارسات
البانوبتيكية تقتصر على مواقع مخصصة للكائنات الفقيرة والكائنات عديمة
القيمة، والذائقين للإقصاء الحقيقي الكامل - حيث تكون العاية الوحيدة هي
تعجير الأجساد، لا تحفيزها على العمل النافع

وفي ضوء ذلك، لا تتناقض نتائج لورنا رودز؛ فتعاون المحكومين كان
دوماً محل ترحيب من قبل الحكم، وكان جزءاً متمماً لحساباتهم؛ فالإيذاء
الذاتي للأحسد وفلها، ووصولاً إلى التدمير الذاتي، إنما هو الغرض
الصريح أو المضمحل للأساليب البانوبتيكية عندما يحري تطبيقها على الكائنات
عديمة القيمة وغير المفيدة وأغلب الظن أن ذلك التعااون من جانب
الضحايا لن يثير سخطاً جاداً ولا انتقاصاً حاداً ولا أسفاً شديداً، مهما كان
الصحيح الرامي لإثبات لعكس! إن عقوبة الحكم تكمن في دفع المحكومين
إلى لقيام بمهام الحكم - وسجناء السجون مشددة الحراسة يسارعون إلى
ذلك بإيذاء أنفسهم وتبدي «تخليه» هذه المؤسسة الشاملة في الطريقة الوحيدة

«التوكيد الدات»، وهي أن يفعل المحكومون بأيديهم ما يرغب الحكام بشدة في تحقيقه وفي سالف الرمان، أُلقي سجناء بأنفسهم على أسلاك شائكة عالية الضغط في معسكر أوشفيتس، وإن لم يذهب أحد أذاك ولا فيما بعد إلى أن يؤدي «الاستغلال المحسوب للأحساد» إلى نقيضه!

ولا أعلم يقيناً ما إذا كان الكاتب أنين دي لاوييه شخصية حقيقية أم أد ميشان مونتيث ابتدعه حتى يتخلص من التهديد بالعقاب لتأليفه نصاً خطيراً ومتمرداً - ولكن بصرف النظر عن هوية المؤلف، فإن كتاب خطاب العبودية الطوعية ما زال جديرٌ بالقراءة، لا سيما من قبل من تاهلهم المستحذات ويعجرون عن تحديد الاستمرارية القבעه وراء لاقطاعات.

وبصرف النظر عن هوية المؤلف (هو أو هي)، فإنه استشرى الوسيلة التي تصورت بعد قرون عدة إلى أن اقتربت من الكمال في المجتمع الاستهلاكي الحديث. فكل شيء يبدو كأنه يسير في الانحائه نفسه - بما في ذلك نمط الهيمنة، والفلسفة، والقواعد الراحمانية للإدارة، ووسائل التحكم الاجتماعي، بل ومفهوم السلطة نفسها (طريقة استغلال الاحتمالات لريادة احتمالية سرك مطلوب وتقليل الاحتماليات العكسية إلى أدنى مستوى) وكل شيء يتنقل من إكراه إلى الإغراء والإغواء، ومن الوسط المعياري إلى العلاقات العامة، ومن المراقبة إلى إثارة الرعة، وكل شيء يُحوّل لسور الرئس في تحقيق النتائج المرحوة والمرغوبة من الرؤساء إلى مرؤوسيههم، ومن المشرفين إلى تابعيههم، ومن المستطلعين إلى الخاضعين للاستطلاع؛ وباختصار، من المديرين إلى الخاضعين للإدارة.

ورشة تيار آخر يتداخل مع التيار الأول، ألا وهو تيار يلخصه صراع العصا والجزرة، ولكنه يظهر في تحولات جوهرية عدة ومختلفة، لا سيما في انتقال الرهان على النحر من الصبغ والطاعة والامتثال واتباع الأوامر والروتين والتماثل والحد من الخيارات - وبوجه عام الحد من التحديد المسبق لاختيارات التابعين بوسائل تخاطب الملكة العقلية التي تحت على لبحث عن الثواب واجتناب العقاب - إلى ملكات «لاعقلية» في حوهرها، ملكات لمصادرة، والمغامرة، والتجريب، وتوكيد الدات، والإحساس لعاصمي، والبحث عن اللذة والمتعة والترفيه. فإذا كان جيرمي بشام قد رأى

أن طريق النجاح الإداري يكمن في احترام الاختيارات المتاحة لسحناء
النوئتيكون إلى محرد وظيفة كنيية، أو ملل قائل، أو طعام رديء دائماً، أو
معاناة من الجوع، فإن المديرين المعاصرين الأكفاء يرون في هذا النظام
المطلوب إهداراً مشيئاً وسحباً تماماً للموارد الرأسالية الحفية في السمات
المردية الشخصية والموافقة مع السوع والنوع، وهو بذلك خطيئة لا تُغتفر،
فالتعويل على العقلانية البشرية وحدها، وفتح المشاعر المتمردة، هو ما
يرمسه الآن المديرون القياديو المراكسون لروح العصر باعتباره أمراً
لاعقلايً وخطيئة لا تُغتفر...

لقد اعتبر ماكس فير البيروقراطية أكمل تجسيد للعقلانية الحديثة،
وأحصى السمات التي يحتاج أن يكتسبها أي تنظيم هادف للأنشطة البشرية
ويسعى بصمها، إضافة إلى لثرائية الصارمة للأوامر والمتبعة، حتى يمكن
الاقتراب من المودح المثالي للبيروقراطية، ومن ثم الصعود إلى قمة
العقلانية. وكان يتصدر قائمه ماكس فير استعد جميع الولاءات والالتزامات
والمعتقدات والاسحبرات الشخصية، وعدم الاعتراف إلا بما به صنة بحدة
الغاية الكبرى للمؤسسة البيروقراطية، فكل ما هو «شخصي»، أي كل ما لا
تحده لوائح الشركة وقواعدها لا بد من إهماله في عردة المعاطف عند
مدخل المؤسسة البيروقراطية، بحيث يمكن استرداده، إذ حار التعبير، بعد
انتهاء «وقت العمل». وأما اليوم، فقد انتقل مركز لجادية، وعبء المتابعة
والمسؤولية، من كاهل المديرين، باعتباره قادة فرق لعمل وقدة
الوحدات، إلى كاهل الأفراد، أو عهد بها إلى أفراد مستقلين أو وحدات
مستقلة، أو عهد بها إلى طرف ثالث، أو فصلت جانباً وجرى تقييمها وفق
مودح المشتري/البائع لا وفق علاقة اربئيس والمرؤوس. ومن ثم فإن
الهدف هو تسخير الشخصية التابعة كلها ووقتها طوال اليوم في حدة أهداف
الشركة. وهذه وسيلة يُطر إليها طبعاً باعتبارها أكثر راحة ورساً من
الإجراءات النونتيكية الثقيلة والمجهد والمقيدة والمكبدة. والاستعداد، مع
مراقبه الأداء أربعاً وعشرين ساعة في اليوم وسعة أيام في الأسبوع، أصبح
وظيفة يقوم بها التابعون أنفسهم، في تجسيد حقيقي كامل لقاعدة «اعملها
فسلك» إن تشيد النونتيكومات وإدارتها وخدمتها تحول من عيب إلى ميزة
سرؤساء يدوبها في كن عقود التوطيف

وباحتصار شديد؛ مثلما تحمل الفواقع بيونها، لا بد لموظفي العالم الحديث السائل الحديد لرائع أن يكبروا ويحملوا «بانوبتيكوناتهم» لشخصية» معهم فالموظفون، ومن هم على شاكلتهم من المرؤوسين، أُلقت عليهم مسؤولية كاملة غير مشروطة تتطلب منهم الحفاظ عليها وضمان عملها من دون انقطاع (إإذا ما تركت هاتك النفال أو الآيفون في اسيت عندما تخرج للشنزه، وعُثفت بذلك مؤقتاً حاة وجودك دوماً تحت طلب رئيسك في العمل، فإنك ترتكب بذلك حناية خطيرة). إن التابعين يغويهم سحر لسوق الاستهلاكية، وترعبهم الحرية الحدية التي يحددها الرؤساء في الاختماء، وكذلك احتفاء الوظائف المتاحة، وهم بذلك مهيؤون جداً لأن يلعبوا دور المرقبين الدائبين إلى درجة يدعو فيها أهمية أراج المرفية في نموذج بشام/ فوكو.

ديفيد ليون: أسمعك يا بومان تقو، إن ابانوبتيكون القديم هو شيء من الماضي في نظر العالسة العظمى في شمال الكرة لأرضة، باستثناء أن هذه الغالبية لا بد أن تحمل «بانوبتيكوناتها الشخصية» إن البانوبتيكون القديم لا يمكن رؤيته حقاً إلا في الأطراف، لا سيما أطراف المناطق الحضرية، حيث «يُنذ» الفقراء وأنقر معث نماعاً على أن الأشكال الخطيرة على شاكلة البانوبتيكون مازالت تتوارى في مثل تلك الأماكن. و«البانوبتيكون الاجتماعي» الذي تحدث عنه لويك هاكونت يظهر في صورة برامج تستهدف إسعاد الأسر المحرومة، ولكنها برامج تخصصهم إلى «شكل أكثر دقة واختراقاً من المراقبة العقابية»^(٨). وهذه المكرة المحورية واضحة جداً في كتاب جون جيليوم مراقبو الفقراء، وفيه بين تلقي النساء إعانات حكومية وأنهن يخصصن إلى دراسة حالاتهن دراسة تنفذ إلى تفاصيل حياتهن باستخدام برامج الحاسب الآلي (ولكنهن يستخدمن براعتهن المتوقعة في إيجاد طرق لهدم النظام من أجل أنتهن)^(٩).

فلستحدث عن هذا الأمر قبل أن تعبر عن رأيك في تنبوعات معاصرة أخرى على تحليل البانوبتيكون الذي يدفعنا إلى توسيع مجال التحليل. وأنت

(٨) Loic Wacquant, *Punishing the Poor: The Neoliberal Government of Social Insecurity* (Durham: Duke University Press, 2008) p. 25.

(٩) John Gilliom, *Overseers of the Poor* (Chicago: University of Chicago Press, 2005) (٩)

نرى أن البانوبتيكون ربما ما زال موجوداً في الأطراف، في مؤسسات كاملة وما هي على شاكلتها، وتركز كتابات لويك فاكوت على بانوبتيكون اجتماعي في مناطق محرومة ومعدمة من المدن، في جوب الكرة الأرضية وفي شمالها أيضاً. ولكن هل نعتقد أن هذا التحليل نفسه يمكن تطبيقه على الجماعات الهامشية، والمهاجرين المحتملين، و«الإرهابيين» المشبه بهم، وغيرهم ممن يخصعون لمريد من الأنظمة «الأمية»^٩ إن توعية ديدير ييجو على الفكرة البانوبتيكية لا نتحدث عن السحن المثالي الكبير (panopticon)، بل نتحدث عن المكان المحظور (ban-opticon)، وهو ينطبق على تلك الجماعات الهامشية في عصر العولمة.

إن ديدير ييجو يافش فكرة المكان المحظور (ban-opticon) حتى يوضح استخدام كولوجيات الصفحات والملفات الشخصية لتحديد موضوع المراقبة. ولكن ذلك يظهر من خلال تحليل نظري كامل لحالة «الأمن/انعدام الأمن المعلوم» الصادر عن أنشطة عالية التنسيق يقوم بها «مديرو الخوف والقنق» الدوليون، مثل شرطة الحدود وشركات الطيران. ذلك لأن البيروقراطيات السياسية والاقتصادية امتدوازة للأقطار في مجال المراقبة والتحكم تعمل الآن من بعد برصد حركة الدس والتحكم فيها عبر لمراقبة. وهذه الخطابات والممارسات والتصميمات لمعمارية والقواعد تشكل معاً جهازاً كاملاً متصلاً أو ما يسميه هوكو «جهاز التدابير» dispositif. فنحن لسنا بصدد بانوبتيكون عولمي، بل بصدد «مكان محظور» (ban-opticon) - وهو يجمع بين فكرة جان لوك نانسي عن «الحظر» (ban) بالمعنى الذي حدده أعامس وفكرة هوكو عن «العين المراقبة» opticon. فـجهاز المراقبة الكامنة يبين من هو مرحب به ومن ليس مرحباً به، فيحدد بذلك فئات الإقصاء، من دون أن يقتصر على أمة/دولة بعينها، بل يشمل جماعات عولمية ضبابية غير متماثلة. وهذا الجهاز يعمل بصورة افتراضية، باستخدام قواعد بيانات الشبكات لتمرير تدفق المعلومات، لا سيما المعلومات حول المستقبل، كما في فيلم تقرير الأقلية والفصمة المأخوذ عنها.

ن. ديدير سيجو - مثلك يؤكد أن البانوبتيكون ليس له ظهور مركزي في زمننا، وإذا كان لجهاز المراقبة الكاملة من وجود، فإنه وجود مفكك ومختلف؛ إنه يعمل من خلال الدولة والمؤسسات، التي تتصل بهيئات

أخرى، «ونجتمع على تعزيز نظم المعلومات والإحصاء الحيوي كأنماط للمراقبة تركز على تحركات الأفراد المتحاذرة للحدود»^(١٠). ويرى ديدير بيجو أن هذا هو أحد أشكال عدم الأمن على المستوى المتجاوز للأقطار (وليس شكلاً من أشكال البانوبتيكون). وفي إطار هذا الشكل، يحلل ديدير بيجو الخطابات (مسيويات التهديد والمحاصرة والأعداء بالدخل)، والمؤسسات، والأبنية لمعمارها (بداية من مراكز الاعتقال إلى ممرات عبور المسافرين في المطارات)، والقوانين والإجراءات الإدارية - وكل منها يحدد للتعامل الخاص بعض الجماعات. فالوظيفة الاستراتيجية لرسم البياني للمكان المحظور هو تسجيل ملفات أقلية بعينها باعتبارها مرفوضة. وأما سماتها الثلاث فهي السلطة الاستثنائية داخل المجتمعات البيرلية (حالات الطوارئ التي صارت أمرٌ معتاداً)، وصنع الملفات الشخصية (استبعاد بعض الجماعات، وأصناف من أساس يجري إقصاؤهم إقصاءً وقائياً، بسبب سلوكهم المحتمل)، وتطبيع الجماعات غير المعرضة للإقصاء (بحيث يؤمنون بالحركة الحرة للبضائع ورأس المال والمعلومات والأشخاص) والمكان المحظور يعمل في فضاءات معولمة تتجاوز الأمة/الدولة، ومن ثم فإن آثار السلطة والمقاومة لم تعد تنحصر بين الدولة والمجتمع.

وعند هذه النقطة، وعند تصنيف ما تسميه أنت «العولميين والمحليين»، يرى ديدير بيجو التقاء كتاباته وكتاباتك، ولكنه أيضاً يتساءل إذا ما كنت تغفل من شأن الطرق التي يجري بها تطبيع «العولميين» في إطار «واجب الحركة» عبر بعض الاستراتيجيات المستقلة «لجهد المراقبة الكاملة»، فخطابات الحركة لحرة تطبيع الأغلبية. إنه لم يصل بعد إلى مرحلة البانوبتيكون الكامل، أو حتى ظل البانوبتيكون بالطبع، ولكنه يساعد على تفسير ممارسة هؤلاء «العولميين» لأساليب حياتهم المتنقلة كما يمارسونها، وتفسير ميلهم إلى الاعتقاد بأن المكان المحظور ضروري لحياتهم (وقد تكون هذه هي «البانوبتيكونات اشخصية» التي تقول أنت إن الأغلبية تحمها كما نحمل القواقع أصدافها؟). ويرى ديدير بيجو أن كل ذلك يتوقف على أشطة

Didier Bigo, "Globalized (In)Security The Field And The Banopticon," in Naoki (١٠)

Sakai and Jon Solomon, eds, *Traces 4 Translation, Biopolitics, Colonial Difference* (Hong Kong, Hong Kong University Press, 2006).

«مديري مخوف والقلق» - محترمي الأمن وغيرهم - فهم 'أرب إلى «حهار المراقبة الكاملة» الذي يتحكم في بعض الجماعات وراء نطق الأغلبية ويراقبها.

ومن ثم فإننا أمام تنويعات على فكرة البانوبيكون مازالت تعترف بأهمية «حهار المراقبة الكاملة» بالمعنى الذي حدده ميشيل فوكو، ولكنها تتجاوزه لتحاظ لتكنولوجيا حيات والاقتصاديات السياسية الرهنة في السياقات العولمية، وسؤالي ها: إلى أي مدى نعتقد بأن هذه التتويجات تساعدنا على فهم ما يحدث في الأزمة الحديثة السائلة؟ وفي هذه الحالة، هل يبدو التحليل قريباً مما نبحث فيه (ونناولته، على سبيل المثال، في كتابك عن المولمة) - أم لا؟

زيجمونت ماومان: إن ديدير يبحو يركز على لمهاجرين غير المرغوبين، ولكن تكنولوجيا المراقبة المستخدمة في المواضع الحدودية للدولة إنما هي حالة واحدة من المكان المحظور (وبالمعنى، إنني أحد في المكان المحظور ban-opticon مصطلحاً موقفاً، حتى وإن كان أقرب إلى اللعب بالكلمات عنه إلى المنطق الدلالي). إنها حالة واحدة تنتمي إلى ظاهرة أكثر عمومية لعلمسة المرمية وأجهزة المراقبة المنوعة مهمة «الإبعاد إلى الخارج» بدلاً من «الحبس في الداخل»، كما فعل البانوبيكون، وهي تستمد عداء حياتها وطاقة تطورها من الصعود الراسخ المتواصل للهوس بالأمن باعتباره أولوية مطلقة، وليس من لرعة العزلة في لصط والاضطاط كما في حالة البانوبيكون وأرى أن كاميرات المراقبة المحبطة بالحياة السكية المغلفة والمنتشرة في المحال التجارية ومداخلها الكبرى هي الأنواع الأساسية للأدوات المتعققة بالمكان المحظور - وأكثرها شيوعاً واتباعاً. إن لمكان المحظور يحرس مداخل أجراء من عالم تكفي فيه المراقبة ابدنية لحفظ «النظام» وإعادة إتاحة، فهو، بالأساس، يحظر لدخول على كل امجردين من أدوات المراقبة الذاتية (بطاقات الائتمان أو البلاك بيرى)، ومن ثم لا يمكن الاعتماد عليهم في ممارسة تلك المراقبة الذاتية بأنفسهم. وهؤلاء الأفراد (أو لكن أكثر دقة، تلك الفئات من الأفراد) لا بد من توجيههم إلى الالتزام بالأسط السلوكية لتلك «الفضاءات الحصينة». وإحدى المهمم الأخرى لأدوات المكان المحظور، وهي مهمة لا تصل أهمية، تتمثل في

التحديد العموري للأفراد الذين يُظهرون عدم استعداد للالتزام أو الذين يخططون لانتهاك تلك السدج السُّزْمة.

وهكذا تتجه تكنولوجيا المراقبة اليوم وحدها، وتخدم بذلك هدفين استراتيجيين متعارضين: الحس (أو إحاطة داخل الأسوار)، والإقصاء (أو الإبعاد خارج الأسوار). إن المعدلات المتصاعدة للمنعين واللاجئين وطالبي اللجوء - أو طالبي لخبز والماء - يمكن أن تعزز هذين السوعين من تكنولوجيا المراقبة (وأعتقد أن دسير بيجو سيو معني الرأي هنا). وقد لحص ميشيل آجير دراسة ميدانية أجراها على مدار عشر سنوات في مخيمات اللاجئين المنتشرة عبر أفريقيا وأمريكا الجنوبية، وفي «مراكز الاعتقال» الأوروبية المعدة لمهججرين المصنفس على أنهم «عبر شرعيس» أو لمعلقين في حالة «لا حقوق، ولا قوانين» التي يحبها طالبو اللجوء^(١١)؛ وتوصل ميشيل آجير إلى أنه بعد مرور سبعين عاماً بعد أن «الحط السيس» (كما تقول حنة أرلدت) الذي تعرض له الفيلسوف دلتز سياميس علفم أوقفه الشرطة عند الحدود الفرنسية الإسبانية وأدى ذلك إلى انتحاره، فَقَدْ هالته «المذهلة»، ناهيك عن نفردة وخصوصته الواضحة ففي عام ١٩٥٠، وصل عدد اللاجئين إلى مليون نسمة (أعليهم أناس شردتهم الحرب) وفق الإحصاءات لعالمية الرسمية. وأما اليوم، فإن العدد المتوسط لمن هم «في وضع انتعالي» يصل إلى اثني عشر مليون نسمة - ولكن بحلول عام ٢٠٥٠ يتوقع أن يصل عدد اللاجئين، الذين تحولوا إلى منفيين وجرى تسكينهم في مخيمات اللامكان، إلى بسون نسمة.

إن عبارة «في وضع انتعالي» هي بالطبع عبارة ساخرة علف تشير إلى ما تعرض له فانر سياميس؛ فمكرة «الانتقال» بطبيعتها ترمز إلى عملية محدودة ومتناهية، وإلى امتداد رمني له عطلوط بداية واصحة ونهية واصحة - انتقال من مكان أو زمان، أو من مكان وزمان، «ها»، إلى «هاك»، ولكن هذه هي تحديداً السمات التي يُحرم منها وضع الإنسان اللاحن، وهو وضع يحدده غياب تلك السمات، ويفصله غيابها عن «لقواعد الاجتماعية»، ويقالها

Michel Agier, *Le Coudair des extes Être étranger dans un monde commun* (Marseille: ١١) Éditions du Croquant, 2011)

تلك القواعد. فمخيم اللاجئين ليس محطة وسطى ولا استراحة في منتصف الطريق ولا مبيت في رحلة من هنا إلى هناك، بل إنه المحطة النهائية، حيث تنتهي تدريجياً كل الطرق المعبودة وتتوقف كل الحركات - من دون إمكاسة لإطلاق سراح مشروط ولا استكمال لعقوبة، مما أكثر من يولدون في المخيمات ويموتون هناك، من دون ريدة أماكن أخرى طول عمرهم فالمخيمات تصبح بالمخيمية النهائية، ولكنها ليست المخيمية النهائية لجهة الوصول. بل لحمية النهائية لحالة الانتقال المنحجر في حالة من الدوام.

إن عبارة «المخيم الانقالي» غالباً ما يستخدمها أهل السلطة للإشارة إلى الأماكن التي يُؤمر فيها اللاجئين بالبقاء، وهي عبارة متناقضة في طهرها، فالانتقال هو السمة التي يحدد غيابها والحرمان منها وضع اللاجئين والمعنى المعروف الوحيد للأمر بالبقاء في مكان يسمى «مخيم اللاجئين» هو أن جميع الأماكن الأخرى التي يمكن تخيلها إما هي أماكن مسوعة. والمعنى الوحيد للوجود بداخل مخيم للاجئين هو أن المرء دخيل، وعريب، وأجنبي، ومتطعن في بقية العالم - يتحدى بقية العالم بأن تحيط نفسها بأدوات المكان المحصور. فإذا صار المرء لاجئاً في مخيم اللاجئين، فإن ذلك يعني الطرد من العالم الذي تشاركه بقية الإنسانية. وهذا الطرد، وإسقاء في حالة المعنى، هو كل ما يكون، وما لا بد أن يكون، في هوبه اللاجئين. وقد أكد ميشيل أجير أن الموضوع ليس البلد الذي أتى منه المرء إلى المخيم، ولكن عباب بلد المال - وهو الحظر أو الامتناع العملي للوصول إلى أي مكان - وهذا ما يفصل المنتمين عن بقية الإنسانية، فحالة الفصل هي لب الموضوع.

ولا حاجة للمفكرين أن يعبروا حدود دولة ولا أن يجثوا من بلد آخر، فقد يولدون ويكبرون داخل البلد الذي يحبون فيه حياة مفاهم، وهذا غالباً ما يحدث لهم، وقد لا يتحركون قيد أنملة بعيداً من مكان المشأ. ولميشيل أجير كل الحق في وضع مخيمات اللاجئين، ومخيمات المشردين والمجتمعات الحصرية في فئة واحدة - «دهالير المعنى». فهؤلاء النرلاء الشرعيون وغير الشرعيين لتلك الأماكن يجمع بينهم سمة درة واحدة، ألا وهي أنهم جميعاً كائنات عديمة القيمة، إنهم مخلفات المجتمع، إنهم التمايات. والتمايات بطبيعتها هي نقيض «المنافع»، إنها تشير إلى أشياء لا نفع لها. والشيء الوحيد الذي تفعله التمايات هو أنها تلوث الفضاء الذي يمكن الانتفاع به،

وثر، كم فيه أشياء كثيرة بغير نظام. وأما العاية الوحيدة للمكان المحظور فهي التأكد من فصل النفايات عن المستحات الحيلة، والتأكد من تخصيصها للنفل إلى مقال القمامة؛ وما أن تصل النفايات هاك، فإن البانوبتيكون يتأكد أنها تبقى هناك - إلى أن يستكمل التحلل الحيوي دورته

ديفيد ليون: شكراً لك يا باومان. إنه لمن المفيد والمثير أن نرى كيف تتداخل رؤيتي للمراقبة مع رؤيتك لها، وكيف نخفف عنها أحياناً. ولكن قل أن أترك هذا الموضوع، هل لنا أن نناقش مرة أخرى فكرة البانوبتيكون؟ لقد افقنا، فما أعنفد، على أن المكان المحظور هو مكان الذي يمكن الآن أن نرى فيه بوضوح سمات البانوبتيكون، وأن هذا الحديل يحاطب تحارب شائعة محزرة في عالم بأحد بأسباب العوامة. ولكن الدحش في المرفة اشتكوا مع هذه الأفكار، ويحصرني هـ لدراسات امشرة للمراقبة الاستهلاكية التي أجراها أوسكار عاندي في كتاب بعنوان السيطرة البانوبتيكية، وقد أشرت إلى هذه الدراسات من قبل، ولكن أريد الآن أن سحدث بمزيد من التفصيل عنها، إذ يرى أوسكار عاندي في هذا الكتاب المكر أن هالك آله مرر عام في علم تسويق فواعد البيانات وعلوم التركيبة السكانية (الحيو - ديموغرافيا)، حيث يجري تقسيم الناس إلى قطاعات سكانية أساسية بحيث يستطيع أهل التسويق التمييز في معاملتها تبعاً لسلوكها الاستهلاكي. ومع أن بعض البارسين لأفكار ميشيل فوكو قد حثلفون مع ذلك، فإن استخدام أوسكار غاندي لبانوبتيكون يهدف إلى لكشف عن الطريقة التي يعمل بها لبانوبتيكون اليوم في الأماكن الاستهلاكية، وإلى الكشف عن الطريقة التي يؤثر بها منطق البانوبتيكون في أناس وافعل سحت مراقبته.

وأرى أن أوسكار عاندي يجمع بين تحليل جوانب العرز وتصنيف التي ينسم بها البانوبتيكون والطريقة التي يجري بها التعامل مع لمستهلكين^(١٢). ولكن، بينما يستمد أوسكار غاندي آراءه عن جانب التصنيف الذي ينسم به البانوبتيكون من ميشيل فوكو، فإنه أكثر وصوحاً في توصيف تحليله بأنه «اقتصاد سياسي للمعلومات الشخصية» فأهل لتسويق يبحثون دوماً عن طرق

جديدة لترشيد السوق بالتركيز على المستهلكين تجعلهم سماتهم أهدافاً جذابة قابلة للاستغلال^(١٣). فالمستهلكون المعينون يمكن إغفالهم، وأما المستهلكون المثاليون فيجري فرهم واتقاء أصلهم. وهذا تركيز عملية الفرز على المستفيدين من المنظومة، لا على المهمشين. وهذه هي الصورة الرحوارية لحراك المراقب^(١٤)، وهي تناسب الحشود المتلهفة على الهواتف الذكية والسيارات متعددة الأغراض والرحلات البحرية الترفيهية. فالهدف من المراعي هنا هو إمداد تلك النخبة بالخدمات والخدمات. وهذه لنخبة هي أهداف يجري تشجيعها على الانضباط الذاتي حتى يتحولوا إلى مستهلكين ظاهرين على الدرام.

إن الهدف هنا هو توضيح أن الموضوع هو مجرد انعكاس للنشاط التمييزي السلبي الذي ينطوي عليه «الفرز البانوبيكي» واقع الأمر أن كتابات أوسكار غاندي المتوصلة تُسمى على نحو أقل بالبانوبيكيون في حده، وتركز أكثر على عمليات الإحصائية والبرمجة المحصورة «للتمييز العقلاني»^(١٥) ويبين أوسكار غاندي أن كتاب جيوف بوكور وسوران لاي ستار عن فرز الأشياء^(١٦) يدافع بإقناع عن وجهة النظر القائلة بأن التصنيف التنظيمي للمستخدمين والعلماء والمرضى والمستهلكين وغيرهم هو جزء مهم جداً من الحياة الحديثة، لكنه يحذر من توضيح لكيفية التي يصف بها ذلك التصنيف إمكانيات الفعل للجماعات المتأثرة، ولا يحددها. وهو يؤكد أن «التمييز العقلاني» في اقتصادات المعلومات عالياً ما يعتمد على التمييز العنصري في صمغ الصفات الشخصية وينتهي بصدد تراكمي من يخضعون لتمييز سلبي.

وهذا مثل واحد على التنظير المتواصل لفكرة البانوبيكيون. ومن جهة أخرى، أحيلك على العمل الذي ناقشته أنت في غير موضع عن ملهى

Oscar Gandy, "Coming To Terms With The Pan-Optic Sort." in David Lyon and Eliu Zureik, eds., *Computers, Surveillance and Privacy* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1996), p. 152

Mark Andrejevic, *iSpy Surveillance and Power in the Interactive Era* (Lawrence: University of Kansas Press, 2007), p. 125

Oscar Gandy, *Coming to Terms with Chance: Engaging Rational Discrimination and Cumulative Disadvantage* (Farnham: Ashgate, 2009)

Geoff Bowker and Susan Leigh Star, *Sorting Things Out* (Cambridge, MA: MIT Press, 1999).

الإغراء والإغواء synopticon، وهو تعبير استحدثه توماس ماتييس للمقارنة بين «البانوبتيكون»، حيث «القلة ترافق الكثرة»، ووسائل لإعلام اليوم، حيث «الكثرة ترافق القلة»^(١٧). وهذا تسميح إلى الكيفية التي قد سجد بها البانوبتيكون حقيقاً في وسائل الإعلام اليوم وربما تكون النقطة المهمة عند توماس ماتييس هي أنه بغض النظر عن حضور الآثار البانوبتيكية في المجتمعات الراهنة، فإنه لا يمكن فهم هذه الآثار بمعزل عن «السيوبتيكون»، فهي بالطبع تساعد في تشكيل آثار السيوبتيكون (وقد تضح ذلك نماداً بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، كما أعتقد، عندما ساعدت الإعادة التلفيزيوية الدائمة لمشهد لرجس المحترقن على إحداث شعور تهديد وشيك متواصل، وهو تهديد أخرتنا السلطات إلى حد الغثيان أنه يمكن تحفيف حدته بانحاد ندابير أممية جديدة وإجراءات مراقبة جديدة)^(١٨)

والآن، تستخدم أنت يا باومان آراء توماس ماتييس لتأييد وجهة نظرك فيما يتعلق بأطروحة «الحداثة المسئلة»، وأنا أشاطرك الرأي، فلا شك أن فهم دور وسائل الإعلام هو أمر مهم لاستيعاب الظروف الثقافية الراهنة، ولكن توماس ماتييس حاول أن يخبرنا أن القهر يتعايش مع الإغواء، ولم يقل إن الإغراء يحل محل القهر؟ فهل تخلص البانوبتيكون حقاً من حياته القمائية أم أنه مارال حياً وبصحة جيدة، وإن كان يعايش من حرف الشيخوخة؟ وهنا لي ملاحظة جانبية عن ذلك، فقد أوضح آرون دويل (وهو محق) أن نموذج «وسائل الإعلام» الذي استخدمه توماس ماتييس هو نموذج أداسي وفوقي إلى حد ما، ويكشف القليل أو لا يكشف شيئاً عن المقاومة ولا عن الطرق التي تمك بها الجماهير شيعرات الرسائل التي تمثها وسائل الإعلام^(١٩). ويدعو أن ملهى الإغراء عاقل عن حالة التشظي التي نعانيها

Thomas Mathiesen, "The Viewer Society Michel Foucault's Panopticon Revisited," (١٧) *Theoretical Criminology* vol. ١, no. 2 (1997), pp. 215-234

David Lyon, "9/11, Synopticon, and Scopophilia: Watching and Being Watched," in (١٨) Kevin D. Haggerty and Richard V. Ericson, eds., *The New Politics of Surveillance and Visibility* (Toronto: University of Toronto Press, 2006), pp. 35-54

Aaron Doyle, "Revisiting the Synopticon: Reconsidering Mathiesen's "Viewer Society" in the Age of Web 2.0," *Theoretical Criminology*, vol. 15, no. 3 (2011), pp. 283-299

الجماهير العفيرة التي تشاهد التلفزيون، وهو غافل أيضاً عن التأثير العريض لوسائل التواصل الرقمي لراهن (وإن كان لا نستطيع أن ندوم توماس ماتييس تماماً على هذا لأنه عاش قبل عصر «وسائل التواصل الاجتماعي») فقد تكون وسائل الإعلام، بما في ذلك وسائل التواصل الجديدة منابر لمساءلة المراقبة أو تقديمها، أليس كذلك؟

زيجمونت باومان: إن ملهى الإغواء عند توماس ماتييس، كما أراه، هو نوع من ابانوبتيكون الداتي على طريقة «افعلها بنفسك» - مانوبتيكون معدل إلى حد كبير، إنه مراقبة من دون مراقبين. وهذا التمييز المستحدث، كما أراه، سكه توماس ماتييس يُعْية استيعاب تأثير المراقبة بتغير أعم في لفلسفة الإدارية (وأنا نفسي أطلعتُ على ذلك انتعير عبارة «الثورة الإدارية هي ثوبها الجديد»، وذلك في كتاب لي عن الأضرار النابعة للتلطم). فما كان يُنظر إليه في الماضي على أنه واحب المديرين، الذي لا بد من القيام به على حسابهم وغير جهدهم، قد انتقل إلى الموصوعات المستهدفة من الإدارة (أو عُهد به إلى وحدات مستقلة، وهي عبارات يشيع استحدثها لإخفاء أو تمويه حماسة المديرين في إلغاء مهام التحكم التي يحدونها ثقيلة ومزعجة ومجهددة ومقيدة للعناية على كاهل الخاضعين للتحكم - وهكذا بصورون نقل العبء باعتباره هبه، كأنه منحه بحقوق لاستقلال والتوكيد الداتي، بل وربما «التمكين» أو «إعادة المقدره الذاتية الفاعلة» لموصوعات سلبية مفعول بها في الفعل الإداري). واسمح لي أن أبين هنا مرة أخرى، في خطوط عريضة موجزة، ما يمثل من وجهة نظري «الثورة الإدارية في ثوبها الجديد»^(٢٠).

وفى المعنى الأصلي للإدارة، كما انتقل عبر الأزمان، عندما نع نموذج العملية اصناعية نموذج آلة تتمتع بالاستقرار الداخلي، وتعيش حركات محددة مسبقة ومتكررة على نحو صارم، وتحصص لمسار ثابت غير قابل للتغيير، كانت الإدارة تشير إلى عبء روتيني يومي ممل؛ فكانت تتطلب تنظيماً دقيقاً ونحكماً صارماً في عدد كبير من الناس، ومراقبة دقيقة متواصلة على شاكلة المانوبتيكون، وكانت نحتاج إلى فرص نظام رتيب يقتل القوى

Zygmunt Bauman, *Collateral Damage: Social Inequalities in a Global Age* (Cambridge (2010) Polity 2011), pp 46-47

الإبداعية للخاصعين للإدارة والقائمين عليها على السواء. كما أنها ولدت حالة من ائتمار، وحالة من السخط الهائج دوماً، مهددةً بالاشعال الذاتي والتحول إلى صراع مفتوح، كما كانت طريقة مكبفة لإحار المهم؛ بيداً من حشد الطاقات الإبداعية لعمالة الأجرة في خدمة الوظيفة، كانت الإدارة تستخدم موارد ثمينة لكبتها، واستئصالها، ومنعها من إفساد النظام. فلم تكن الإدارة أمراً يحرم أصحاب الخبرة والسلطة عى رعايته وتقديره وتبجيله، بل لم يكونو ليقوموا به لحظة واحدة أطول من المدة المطلوبة، وعلى ضوء موارد السلطة المتاحة لهم، فلا يمكن أن تنصرف أنهم كانوا يؤجلون تلك اللحظة صويلاً، وهم لم يؤجلوها قط.

إننا مشهد الآن «التحول العظيم في ثوبه الجديد» (وهي عارة شهيرة قالها كارل بولاسي)، بمعنى ظهور «اقتصاد الخبرة» اذي يحظى بشاء وترحيب كبيرين، ويقوم على الموارد الشخصية كلها، على لرغم من العيوب كلها. وهذا التحول يعس نشوء لحظة «تحرر المديرين من عبء الإدارة». وإذا استخدمنا مصطلحات جيمر بونهايم، فممكن أن نصفه بأنه «الثورة الإدارية في ثوبها الجديد»، وإن كان هالك. مع استمرار الثوب، تغيير ضئيل، أو ليس هنالك تغيير، هي شاعلي الماصب والسلطة. فما حدث - وما يحدث - هو أقرب إلى الانقلاب منه إلى الثورة، إنه إعلان غوفي بأن البعة القديمة قد انتهت، وأن القواعد الجديدة للعبة سارية المفعول. فالتاس الذين شرعوا في الثورة وساندوها لم يرحوا مواقع القيادة - واستقروا في ماصبهم في أمان يفوق ما قبله. واندلعت الثورة واستمرت باسم زيادة سلطتهم، وثبيت قضتهم، وتحصين هيمنتهم من السخط والتمرد الذي اعتد أن يولده شكل هيمنتهم قبل الثورة. ومد الثورة لإدارية الثانية، تعزز سلطة المديرين، بحيث امتنع قهرها تقريباً، وذلك بقطع أغص القيود المزعجة التي كانت تكبح جماحها من قبل.

وفي أثناء تلك الثورة الثانية، تخلص المديرين من اتباع لروتين، ودعوا قوى التلقائية لشغل الغرف الشاغرة التي كان يسكنها المشرفون. لقد رفضوا الإدارة، وبدلاً من ذلك، طلبوا النزلاء لإدارة الذات، ومددو بطردهم إن لم يفعلوا، ولحق في مد التعاقد كان يخضع للمصافة الدورية، وبعد كل دورة، يعوز بالمدة التالية لتعاقد أفضل النزلاء دهاء وأداء، وإن كان ذلك

من دون صمان، بل من دون احتمالية، بأن يخرج هذا النزيل سليماً من دون إصابات في الاختبار التالي «اقتصاد الحرة» لا يهتم إلا بالنجاحات الأخيرة لكل دورة من دورات التنافس، ولا يعاً بالطابع لأخلاقي الصلب وهكذا، فإن منظمت عصر «اقتصاد الحيرة» تفضل الداتية واللعب والمهارة الأدئية، ولا بد لها أن تمنع التعطلت بعد المدى ومراكمة المرايا؛ وهذا يجعل البرلاء في حركة دائنة واشغال دائمين - في بحث محموم عن دلائل جسيمة على أنهم ما زالوا مرغوبين..

إن «ملهى الإعواء» يخدم هذا الطلب الحديد تماماً. ومع إحلال الإعواء محل انقهر، لا حاجة إلى بناء جدران سميكة، ولا إلى تشييد أبراج مراقبة لحسن انزلاء في الداخل، ولا إلى استئجار حشود عصيرة من المشرفين للأكد من الترام النزلاء بالنظام لقمعي (مع تكديفة إضافية تتعلق بتخفيف الغضب الهائج وعدم الاستعداد للتعاون اللذين يولدهما الروتين عادة، علاوة على كلفة الجهد المتوصل الذي لا بد من منله لوأد التهديد بتمرد صد مهانة الاستعداد) فالموضوعات المستهدفة من جانب الاهتمامات الإدارية الضابطة هي التي يتوقع منها الآن ضغط نفسها واحتمال التكاليف المادية والمفسية لإنتاج الانصاط، إذ تُتوقع منها تشييد الأسوار والبقاء داخلها بإرادتهم. وهكذا تحل الججرة (أو وعدها) محل العصا، ويحل الإعواء والإعراء محل الوظائف التي كان يقوم بها الضغط المعياري، وتحل تهيئة الرعدات وشحذها محل المراقبة المكلمة والمولدة للمعارضة والانشقاق، وأما أبراج المراقبة (مثل بقية الاستراتيجيات) التي تحض على السلوك المرعوب وتحذ من السلوك غير المرعوب) فقد جرى حصصتها، وتحرر إصدار الأدوات سناء الأسوار من القيود والضوابط؛ فدلأ من ضرورة مطاردة الضحايا، أصبحت مهمة المتطوعين هي مطاردة فرص لاستعباد (إن مفهوم «العبودية الطوعية» الذي سكه أتبي دي لاويسيه كان عليه أن يتنظر قرواً عدة قبل أن يتحول إلى هدف للممارسة الإدارية السائدة) بالماسية، هل لاحظت أنه في كل جولة من «ترشد الإماق»، تكون جماعات «الإدارة الوسطى» (المشرفون السافرون العاديون) هم أول من يفقدون وظائفهم؟

إن أدوات تجميع المهام التي يفعلها المرء بنفسه، هي نابسيكوبات نقالة فردية صغرى متوفرة بامتاجر بالطبع. ونزلاء لمستقبل هم من يتحملون

مسؤولية اختيار الأدوات وشراؤها، وتجميعها، وتشغيلها. فلا شك أن رصد التوزيع المنقلب لمبادرات الإغواء الفردي ومرره ومعالجته يتطلب مهيين محترفين، ولكن مستخدمي خدمات جوجل أو الفيس بوك هم من يضعون «قواعد البيانات» - المادة الخام التي يصنعها المهنيون المحترفون من حديد فيها أسماء أوسكار عندي «الفئات المستهدفة» من الربائن المحتملين - عبر أفعالهم المتفرقة، المستقلة في ظاهرها، والخاضعة لتسيق إغوائي في جوهرها. ومنعاً لكل لس، من الأفضل أن امتنع عن استخدام مصطلح «الساويكون» في هذا السياق؛ فالمهنيون المحترفون الذين تحدث عنهم ليسوا المرافقين القدامى الذين يراعون الانتظم الرتيب للنظام المبرم، بل هم أقرب إلى الماصدين أو المطورين للأنماط المتقدمة للفرقة، والأنماط المتقلة للسلوك لدى تثيره تلك لرغبات المتقلة إنهم، إذا جار التعيير، «الفرع الذي يصنع اللزمات الأخيرة» ملهى الإغواء الذي يعمل بالفعل، ملهى إغواء ليس من تصميمهم ولا مائهم. وقد يقع هؤلاء المهندسون العاملون في «معالجة قواعد البيانات» في مكان ما بين ملهى الإغواء والمكان المحظور، ما دامت منتجات عملهم تشكل شرطاً ضرورياً للاستخدام المريح لأساليب المكان المحظور في التسويق. وهذا هو الواقع، ولا بد أن يكون كذلك، إذا ما وضعنا بعين الاعتبار أن أي تسويق فعال يتطلب معرفة الدوائر التي لا تصلح للاستهداف بقدر ما يحتاج إلى استكشاف أفضل «الأهداف» الواعدة للجهود الإعلانية التجارية؛ فالتسويق الفعال يحتاج إلى ملهى الإغواء والمكان المحظور على السواء، ويمثل مهندسو معالجة السانات حلقة الوصل بينهما

والمثال الجديد، بل والموضح الأصلي للتماس بين هذين النوعين من أساليب المراقبة السائدة، هو البرنامج الذي جرى تطويره من أجل الشركات المستحقة إلى معالجة المكالمات الواردة؛ وهذا البرنامج يسمح بمرز أصحاب المكالمات وفصلهم من أجل التمييز بينهم في المعاملة - وفق الوعد الذي يبدوه (أو لا يبدوه) بتعزيز أرباح الشركة؛ فأما انزياش الواعدون، فلا يجري تعليق مكالماتهم، بل يجري توصيلهم على الفور للمندوس الكمار لمحوسب اتخاذ القرارات لفرية؛ وأما اليأسون السائون فيسطرون دورهم بلا نهاية، وتنهال عليهم رسائل مكررة تبحث على الملأ، ويشغلها أنغام يعدد

تشغيلها إلى حد العثيان، مع وعود بتوصيلهم بأول مندوب متاح. وإذا صمد
السائق البائس أمام هذه المعاملة والاستهراء الذي يطوي عليها، ورفض
إنهاء المكالمة التليفونية، فيجري توصيله في النهاية بمندوب سيط لا يملك
حل المشكلة التي كانت سبب لاتصال.

الفصل الثالث

البعد والإبعاد والتحكم الإلكتروني

ديفيد ليون: أحد أروع الأشياء التي صارت ممكنة بفضل التطور التكنولوجي المنهمل في القرن العشرين هو القدرة المتزايدة للغاية على الفعل عن بُعد. وحتى هذا الحوار الذي نجره معاً الآن هو حوار يدين بالفصل للاتصال الإلكتروني، فلنسا بحاجة إلى انتظار فرصة لرحلة عبر القارات، أو حتى لعشرة أيام يستغرقها خطاب مكتوب حتى يصل عبر المحيط الأطلسي، حتى نناقش ما ناقشه، بل إننا نكتب رسائلنا ونرسلها من دون جهد عبر فضاءات شاسعة، وننظر بصع ساعات أو بضعة أيام، ويظهر لنا الرد في صندوق البريد الإلكتروني وبإلطبع، لأنني أعرفك، يمكنني أن أسمع صوتك في رأسي وأنا أقرأ ما تكتبه لي، ولأنني أعرف الغرفة التي تكتب فيها، وأعي حجم مسؤولياتك الأخرى الآن، فيمكنني أن أتخيلك وأنت تعمل عندما تدخل من جديد إلى فضاء حوارنا. ولكن ماذا يعني فعل الأشياء من بعد في سياق المراقبة لسائلة؟

لقد تحدثنا عن الطائرات من دون طيار، تلك الدبابير التي تحدد وتنجس حيث تعجز عيون أخرى عن الرؤية (ولا نسي هن لطائرات من دون طيار التي تقوم بأعمال العنن النظيف في أماكن لا يمكن للمقات المسلحة أن تذهب إليها، أو لا تفضل أن لا تذهب إليها). وأنت تحدثت عن «الاختفاء المريح» لتلك الأعين في السماوات وإعفاء سادتها من المسؤولية، هؤلاء الساده الذين يرمجوه على الطيران في مساراتها وحددوا وقت النفاطه للصور. وأنت دكرتنا بالتأثير غير المباشر سلك البدان أو الدون التي تستخدم تكنولوجيات التحكم تلك من بعد، وهي بذلك تنأى بنفسها عن الصراعات والحرائم والأزمات التي من المفترض أن تكتشفها أو تمنعها.

وفي أثناء سنوات استقرارك بمدينة ليدز، كنت أنا طالباً في الدراسات العليا أحاول فهم القضايا المزعجة التي صدرت عن شعبي بعوالم التاريخ ولأدب والفكر الأوروبي الحديث. وكانت حيرتي - كما أعتقد الآن - تتعلق بالهولوكوست، بل إننا قمنا برحلة لعدد من معسكرات الهولوكوست - داخا، وراهنزبروك، وماوتاوس، وأوشفيتس - حتى مرى تلك السكك الحديدية والأسية النظامية المشؤومة التي كانت أهدافها المحسوبة تتمثل في السخرة أو بإحراق التحارب الطبية على البشر، والإبادة. ومع أنني كنت شغوفاً بقراءة كتابات مند أواخر السبعينيات من القرن العشرين، لا بد لي أن أعترف بأنه عندما صدر كتابك عن الحادثة والهولوكوست في عام ١٩٨٩، وجدته كتاباً عميقاً ومثيراً للعبه، لقد كان كتاباً فارقاً

وبدأت أشعر بأن الأفكار المحورية القوية في ذلك الكتاب تحاطب البيروقراطية الحديثة، بل تخاطب النقية بالمعنى الذي حدده جاك إلول، كما تحاطب تكنولوجيات وعظم تكنولوجية معينة متنوعة كانت تتحدى حواس ثورة المعلومات التي كانت جديدة آنذاك وبمكي أن أستشعر، مما كنت تقوله، بعض الامتدادات في الممارسات التنظيمية المعززة بالتكنولوجيا، وفي بهايه المطاف، امتدادات المراقبة الشاملة. إن التنظيم الدقيق، بمعنى الفصل الدقيق للمسؤول عن «الضحية»، والكفاءة الآلية للعملية - كما قلت في تمهيدك لذلك الكتاب العارق - تُخصص الآن في الواقع، لا للعنف الحسدي، بل لمرور الناس وتصنيفهم إلى فئات من أجل التمييز في معاملتهم. والنموذج مؤازر، حتى وإن كانت الآثار - اختيار أناس بعينهم لموت محقق أو ضرر اجتماعي - غير قاسية للمقارنة إلى حد كبير ولكن في سياق محييد الأخلاق وفصلها عن الفعل، قد يكون للنموذج أو العملية، المشهود بكفاءتها، آثار تمتد من إقصاء الشر إلى الأطراف الهامشية وحتى إبر لهم إلى دركات التشرد

وهكذا يمكنني أن أبدأ هذا الجزء من حوارنا بأعم الأسئلة، وهو كيفية تطور العقلانيات البيروقراطية لمرئية في مصانع الموت ومعسكرات السخرة إبان عقد الثلاثينيات من القرن العشرين في النماذج التنظيمية الراهمة، وبسطح، في مدارس المراقبة؟ وليس العرص من ذلك الترهيب ولا الترويع ولا تأييد الرجعية. فكما الحال دائماً، تنطوي التحليلات التفصيلية، وليس مجرد العبارات الموحدة، على أهمية بالغة لتحليل الكامل. وأريد أن

نصل إلى الأفكار المحورية، والتصورات الدائمة للخيال والواقع، لا سيما الواردة في مفاهيم - أو ممارسات - الإيمان والمعد والتحكم الإلكتروني. وإلى أي مدى تكون هذه الصلات بناءً ومُعينة على المهم؟

زيجمونت باومان: افترض، وإن لم يكن بوسعي أن أبرهن، (وأعتقد بأنه ليس بوسع أحد أن يبرهن) بأنه عبر آلاف السنين منذ أن نمكت حواء من غواء آدم بالأكل من شجرة معرفة الخير والشر لم تتغير تقريباً نزعات الخير والشر، بل تفاوتت فرص/صغوظ فعل الخير أو لشر وحسب - على التوازي مع ظروف الاجتماع البشري والأنماط السائدة للتفاعل البشري. فما كانت تسو حالات من نزع لعرائر الشربة الشريرة وإطلاق عنانها، أو على العكس من ذلك، قمعها أو كبجها وإحمادها، صارت تُفهم على نحو أفضل باعتبارها تطويراً اجتماعياً للاحتمالات (زيادة احتمالية أساط معنة من السلوك وخفض احتمالية أساط أخرى). وهذا التطويع (إعادة الترتيب وإعادة التوزيع) للاحتماليات هو المعنى النهائي لكل عمليات «ساء لنظام»، وبوجه أعم، لكل عمليات «فرض السية» على محال لا شكل له من الوقائع العشوائية («الفوضوية»). كما أن التمدح السائد لفكرة «النظام»، ومعها أسمى مبادئ «السية»، تتغير عبر التاريخ - وإن كانت تتغير، على العكس من الرؤية السائدة التي نصوي عليها فكرة «التقدم»، في صورة أشبه بحركة البدول، لا في صورة موحدة ومتسقة.

إن الشباطين التي سكنت القرن العشرين وعدّته تمخضت في أثناء العزم على ستمكّن المهمة التي استهدفها العصر لحدث منذ مداته (أي أسوب «الحياة الحديثة»، التي تعني حالة من «التحديث» الوسواسي، القهري، الإدمامي). وأما المهمة المصوّطة بكل جولة من جولات التحديث، والتي لم تكمل (إذا كان بلوغ تلك لهاية ممكناً أصلاً) فكانت تمثل في فرض نظام واضح قاس للإدارة على الفوضى الحامحة الهائجة، وفي نقل عالم البشر إلى عالم النظام، بمعنى نقلهم من عالمهم العامض أيما عموض، والمتقلب أيما تقلب، والعصي أيما استمضاء، والمهمل لأمنياتهم وأهد فهم أيما إهمال، إلى نظام كامل فاطع يقبّه الجميع ويؤمنون به، نظام واقع تحت سيادة العقل.

ركان مهد ذلك العقل في معهد العلماء وأصحاب الحرية أو «بيت سليمان» الذي تصوّره فرايسيس بيكون في أطلنطس الجديدة، ثم قضى فترة

تسريه في «لبنوتيكون» الذي تصوره جيرمي بنام، ثم استقر به المقام في أبنية مصانع غفيرة تسكها «أشباح قياسات الزمن والحركة» لدى فريدريك تيلور، وأطياف «سيور الدقلة» (Conveyor Belt) لدى هري فورد، وشبح لبيت بوصفه «آلة للعيش» لدى لو كوربوزيه. ذلك لعقل افترض أن تنوع لائنات والانحارات الشرية واختلافها لسوى منعصس مؤقتس لا بد من إزاحتهم من طريق بناء النظام عبر التطويع الجيد لاحتتماليات السدوك، من حلال سريب مناسب لمظروف الخارجة، ومن حلال معجيز أية سمات مقاومة لذلك لتطويع وإلعاء أهميتها. وعليه، فإن تصور جيرمي بنام في القرن الثامن عشر للمراقبة العامة قد طوره مشعل فوكو وتلامذته ومريدوه إلى منزلة النموذج العام للسلطة والهيمنة، وفي نهاية المطاف، النموذج العام لكل نظام اجتماعي.

وذلك النظام، في التحليل الأحر، يعني عاب أي شيء «لا أهمية له» - عديم القيمة أو غير مرغوب فيه - وغياب أي شيء يؤدي إلى التعاسة أو سعث على الحيرة وعدم لارتياح، لأنه نف في سريق التحكم الكامل الهادئ في الوضع الإنساني فكان النظام يعني، باختصار، تحويل الجائر إلى واجب - واستبعد كل ما يتبقى والإيمان بإمكانية تحقيق هذا العمل الفذ، والعزم الواثق من تحقيقه، كانا السمة المميزة للحدانة، وما رالا سمتها المميزة، ووصلا إلى ذروتها مع فجر القرن العشرين وواجه «العصر الحديث الساكر» تحدياً وتحريداً قاسيين من ثقته بالنفس بالذلاخ الحرب العظمى، إذ أدخلته هي نصف قرن من الألم والعذاب، بعدما كان هذا العصر رحلة نحو الكمال - رحلة تهدف إلى الوصول إلى حالة تتوقف فيها الصعوط الدافعة إلى تحسين الأمور، لأن الحدانة تصورت أن أي تدخل إضافي مع شكل العالم لبشري المحقق عند لحظة الكمال لن يريده إلا سوءاً. ولهذه الأسباب نفسها، كان العصر احديث أيضاً عصر التدمير، إذ استدعى السعي وراء الكمال استئصال كائنات غفيرة لا يمكن احتمالها في عالم مثالي، ومن ثم محو والتخلص منها، فكان التدمير هو جوهر الإبداع الخلاق، وكان تدمير العيوب شرطاً كافياً وضرورياً للوصول إلى انكمال، فكانت قصة الحدانة هي قصة التدمير الخلاق، لا سيم في القرن العشرين ولا شك أن الفطائع الدانة على مسار ذلك «القرن اقصير» (كم، وصعه إريك هومبرايوم، إذ ثت أن بدايته الحيفية عند عام ١٩١٤ وبهايته الحيفية عند

عام ١٩٨٩)، قد تمحّصت عن الحلم بقدره الكمال الهنيء على الملاحظة على نظامه ونقاؤه ووضوحه وشفافيته.

وتعددت محاولات تحقيق هذا الحلم إلى درجة لا يمكن حصرها ١٠٨ وكان هالك محاولتان دررمان نظراً لنطاق غير المسوق لطرحهما وعزمهما المدمل، وكلتاها تستحق بأن تكون ضمن أروع تجليات الحلم «بالطام النهائي» وأكملها، نظام لا يحتاج إلى إعادة التنظيم من جديد ولا يسمح بتعديلات إضافية. فهاتان المحاولتان وضعنا المديير التي قيس عليها فيما بعد كل المحاولات الأخرى، الحقيقية أو المزعومة. إن دقتهم المعتدلة الثبته هي التي مارالت تدور نذاكرتنا اجمعية باعتبارها السمودج الأصيل لكل النعمصيل اللاحقة - مهما كانت واضحة أو متحفية، ومهما كانت عازمة أو منرددة. إن المحاولتين اللتين نقصدهما هنا هما المحولة الثارية والمحاولة الشيوعية للاستئصال الهائي القاطع لكل حوايب الوضع الإنساني التي تنسم بالموضى، والعموض، ولعشوائية، ومقاومة السيطرة.

كانت الممارسات المازية نجري في القلب من الحضارة الأوروبية. وعلمها وصفها - في لمدان تماخر بأنها قد فوسين أو أدنى من تحقيق حلم فرانسيس ليكون تأسيس معهد العلماء وأصحاب الخبرة («أيب سليمان»). عالم وقع تحت سيادة كامدة للعقل من دون منازع، فالعقل هو أكثر الخدم إحلاصاً لأفضل مصالح الشر وراحتهم وسعدتهم. كما أن فكرة تنظيم العالم وترتيبه عبر إرادة شوائبه، وإيمان بأن ذلك ممكن (في ظل لسلطة والإرادة الكافيتين)، هذه الفكرة ولدت في ذهن هتلر عندما كان يتجول في شوارع فيينا، وهي التي كانت آنذاك العاصمة الحقيقية للعلوم والفنون الأوروبية

وفي الوقت نفسه تقريباً، عند عتبة الحداثة الأوروبية، تمخضت فكرة من الأصل نفسه في عقول أساس يحذقون من دون جدوى، سمرج من الاحترام والعبيرة، في الجانب الآخر من الحد لمسامي، في حالة من الذهول مما يرون، إنها الفكرة لشوعة التمثلة في ملاحقة الحصاره الحديث واللحق بها واستباقها في مضمار اسبق لمؤدي إلى لكتاب. إن اشعور المخري بالتحلف عن غيرهم في تلك المطاردة شجع على استمحل بالأمر، والإسراع في الخطوات، واتباع استراتيجية الطرد المحتصرة، وكان ذلك يعني ضمناً الحاجة إلى تكثيف في عمر حبل واحد قد يحققه الحانب

الآخر عبر سلسلة طويلة من الأجيال وبالطبع كان لا بد من دفع ثمن باهظ في معدنة الجيل الذي حرى احتيده ليعلن مجيء عالم حالٍ من المعاناة. فكل تصحية تهون في مقابل نبل الهدف وسحره، وليس هناك حصانة ولا مرور من لأي واقع قائم على أساس مزاياء المصية، ناهيك عن حضوره في العالم أصلاً فتذكرة الدخول إلى عالم الكمال لا بد من كتبها من جديد. ولطبع ليس لكل واحد الحق في الوقوف في الطابور للحصول على تذكرة، فكما هو حال كل نموذج لعالم جديد رثع، لم يكن للنموذج الشيوعي أن يكتمل من دور تحديد غير المؤهلين للدخول وعبر المسموح لهم بالدخول

فبعد التدقيق في وثائق اوحداث السخبة و لمكاتب الادارية للمؤسسة النازية، ظهر ارتباط وثيق بين «سبمة التحديث» و«سياسة التدمير» هي السياسات النازية الرامية إلى إعادة رسم الخريطة السياسية والعرقية والاجتماعية لأوروبا، فكان النازيون يعتزمون، بعد الغزو العسكري لأوروبا، فرض «نسى سياسية و اقتصادية واجتماعية جديدة بأسرع وقت ممكن»^(١). وكان هذا العزم يعني بالطبع عدم الاعتراف بالحقائق التاريخية، مثل اموقع الجغرافي للمستوطنات العرقية وتوزيع لموارد الطبيعية والأيدي العاملة. فجوهر السلطة هو العدة على تجاهل أهواء العبد، ففي عالم النظام الذي يخضع للتخطيط والتصميم العقلاني المسوق. لا مجال لكثير من نقايا ماضٍ عشوائي غير متوافق مع النظام الجديد أو ضار به مباشرة. فقد تظهر الحاجة إلى ترحيل بعض السكان إلى مواقع أخرى، حيث يمكن استغلال قدرتهم استغلالاً أفضل واستخدامهم في أعمال أخرى.

Götz Aly and Susanne Heim *Vordenker der Vernichtung Auschwitz und die deutschen (١) Pläne für die neue europäische Ordnung* (Hamburg: Hoffmann & Campe, ١٩٩١), pp ١4, 482

«إن ما كان في البداية مكتناً صغيراً جرى تأسيه في السادس من تشرين الأول/أكتوبر لعام ١٩٣٩ من أجل تسهيل إعادة توطين الأمم الأوروبية تحول بسرعة إلى مؤسسة قوية تتمتع بأفروع كثيرة، وتوظف إلى جانب مديريها ألقاً من اختصاصي الجغرافيا وعربية والهندسة المعمارية والهندسة المعمارية، للمساعدة والمحاسبة وكل الحقول العلمية التي يمكن تصورها» (ص ١٢٥ - ١٢٦) وقد ترجم هذا الكتاب إلى إنكليزية تحت العنوان التالي

Architects of Annihilation: Auschwitz and the Logic of Destruction (London: Weidenfeld & Nicolson, 2001).

نظر أيضاً روجر سمي على دن دايتز، في البوابة لألمانية لتالية

Vierteljahreshfte für Zeitgeschichte no. 4 (1993).

ثمة طبيعة متطرفة، وراдикаلية شرسة عvisية، ونية ثابتة لتجاوز كل الحدود، كل ذلك تنسم به معسكرات الاعتقال ومعسكر الجولاح ومعسكر أو شمينس ومعسكر كوليم والتحريرات الباربة والشوعية اللتان ارسلت بهما تلك الفطائع في التاريخ الحديث، ولهذا السب ثمة اعتقاد خطأ منتشر بأن هذه الفطائع هي أشكال من التمرد على القواعد الجوهرية انتي تمثلها «الحصارة الغربية»، وليس الإحلاص لتلك القواعد. بل إن هذه الفطائع كشفت بعواقبها الهائية مطلق الحمسة الحديثة لبدء النظام - الذي عجز عن تحقيق إمكانياته الكاملة وبسط سلطانه وسيادته على الطبيعة إلى درجة تتناسب مع أحلام الروح الحديثة وطموحاتها. إنها فعلت ما كان غيره على استعداد لفعله، ولكنهم كانوا على قدر كبير من الحياء والحجل اللذين حالا دون ذلك (أو كان يعتبرهم صعب شدد، أو كان ينقصهم العزم اللواتق).

إسا نواصل ارتكاب لفطائع، وإن كان ذلك في صورة أبسط وأقل إثارة للاشمئزاز، وبصورة أخف وأرق. إسّا، كما قلب أتب نحن، نرتكب الفطائع ماناع أمين لصيغه «العد، والإبعاد، والتحكم الإلكتروني» إسّا نرتكب الآن هذه الفطائع باستخدام التكنولوجيا العالية، وقد تجاوزن الطرق التقليدية البدائية ورفضناها وتركناها خلفنا، تلك الطرق لتي استخدمت الوعظ الأخلاقي في حرض الناس على أن يفعلوا ما لا يفضلون أن يفعلوه، واستخدمت العيون الشرية الضعيفة غير الحديثة بالثقة ولا الاعتماد من أجل المراقبة، وغسيل المخ ثغية الامتثال والانضباط، ولشرطة لضمان دوامها. فإلى جانب استئصال الأفراد والجماعات عديمة القيمة، شعر الاقتصاديون والمهندسون الزراعيون والمحططون للفصاءات العامة بأن الواجب يحتم عليهم «التطهير الصحي للبيئة الاجتماعية» في الأراضي المغزية. فالطبيعة العرفية للبشر، كما رأى المهندسون الباريون، لا يمكن بحسبها إلا تشمير الكائنات عديمة القيمة أو على الأقل مع نكارها.

ديفيد ليون: نعم، يبدو أن الحداثة يمكن أن تجيب عن أسئلة كثيرة، أم أن الحداثة تكشف عن بعض من أوحها الفطعية في تحليلك لقدرة التطموحات النقية على إسكات صوت الضمير والرحمة؟ ولكن قد يكون الأفطع من ذلك أنه على الرغم من القلق الشديد الذي أثير حول هولوكوست في حقبة ما بعد الحرب، يبدو أننا لم نتعلم إلا القليل.

فالأسف الشديد، والامتنكار لشديد لأنظمة حكم بعينها يبدو سطحياً تقريباً إلى حوار البرعة المتواصلة في فصل التقية عن حدودها المناسبة، والوثنية التي تقيّدنا بمنطقها وتعميب عن حدودها تحمل آثار الإبعاد أكثر انتشاراً وتدميراً في «عصر لمعلومات».

زيجمونت باومان إن هامر يونايز هو أحد أعظم فلاسفة الأخلاق في القرن العشرين، وربما يكون هو أول من لفت الانتباه، وبوصوح شديد، إلى العواقب الوخيمة للانحصار لحديث الذي حققه التكنولوجيا على الأخلاق. إننا نعلم الآن لتكنولوجيا (هكذا قال هانز يونايز، قبل أن تولد أفكار الصواريخ الدكية أو الصائحات من دون طيار، ناهيك عن تكنولوجياها)، وهذه التكنولوجيا التي نمتلكها يمكن أن نفعل بها أموراً كثيرة على مسافات كبيرة (في الزمان وفي المكان على السواء) إلى درجة لا تستوعبها خيالنا الأخلاقي، ذلك الخبان الذي مازال حبيساً، كما كان على مدار قرون خلعت، لتلك الفضائات الصيقة التي يمكنه رؤيتها والوصول إليها. كما أن جاك إيلول الذي ذكرته في حديثك تشكك في إمكانية سد الفجوة المتزايدة بين التكنولوجيا والأخلاق عدم قان إن «الأداتية» التي نسم بها عقلانيتنا قد انعكست منذ زمن ماكس فيبر، فلم تعد تهدت إلى تسخير اوسائل للعادات، ولكنها تسمح للوسائل المتاحة بتحديد غاياتنا

لم تعد نظور التقنيات «من أجل» أن نفعل ما نريد أن نفعله، ولكننا سحتار الأشياء لفعلها لأن التكنولوجيا للارمة لفعلها قد طورت (أو تم الحصول عليها، وتم العثور عليها بالمصادفة - بالخط) وكلما اتسعت المسافة التي تسمح لنا التكنولوجيا عندها بإطهار أشياء أو إحداثها، تضاءلت احتمالية عدم استخدام الفرص الحديدية المعززة تكنولوجياً، ناهيك عن مع استخدامها لأن أصراره لتابعة أو نتائجها المحزنة قد تعارض مع اعتبارات أخرى (ومنها الاعتبارات لأخلاقية) غير مرتبطة بالمهمة المطلوب تنفيذها. فأهم أثر للتقدم في تكنولوجيا «البعد، والإبعاد والتحكم الإلكتروني» هو التحرر المتزايد، وربما المتواصل، لأفعلنا من اقيود الأخلاقية؛ فعندما يسود اختيارنا المبدأ القائل «نحن نستطيع أن نفعل ذلك، ولذا سنفعل ذلك»، فإننا نصل إلى نقطة لا يمكن عندها الجزم بالمسؤولية لأخلاقية عن الأفعال البشرية والآثار اللاإنسانية، ولا التطبيق افعال لها.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية، قال جورج أورويل: «يبدأ أكتب ما أكتبه الآن، يحلق فوق رأسي أناس متحصرون بطائراتهم، يحاربون أن يقتلوني، إنهم لا يشعروني بأية عداوة تجاهي كإسان مرد، ولا أشعر أنا تجاههم بأية عداوة. إنهم يفعلون ذلك أداءً لوجههم (كما يُقال)». وبعد ذلك بسنوات قليلة كانت حنة أرندت تمحص فناء القبر الفسيح متعدد الطبقات الذي يُقال له أوروبا، بحثاً عن أنواع الشر الذين نمكنوا من أن يفعلوا ذلك بغيرهم من البشر، وكشفت بوضوح عن الطبيعة «العائمة» للمسؤولية داخل الجهاز البيروقراطي، وأطلقت على عواقب هذا التعويم «المسؤولية المجهولة» وبعد مرور أكثر من نصف قرن من الزمان، يمكن أن نقول القول نفسه عن الوضع الراهن الذي تشهده فنون القتال.

فهل هناك استمرارية؟ نعم، هنالك استمرارية، في صحة انقذات معدودة. فالجده المرتبة هي طمس الاختلافات بين الوسائل والغايات، أو طمس حرب استقلال تنتهي بانتصار فؤوس الحرب على الدرعين في حملها. فالفؤوس هي التي تحترق الآن الغايات، أي الرؤوس التي لا بد من قطعها بالفؤوس، وليس توسع الدرعين في حمل الفؤوس أن يفعلوا شيئاً لسمها أكثر مما يمكن أن يفعله صبي الساحر في الأسطورة (فليس بوسعهم أن يغيروا العقول التي لا يملكونها ولا محاطة المشاعر التي لا يملكونها) وليست أسطورة صبي الساحر مجرد حيلات واهية، فالجبراء العسكريون يقولون: «مثلما قامت المؤسسة العسكرية طويلاً بدفع التكنولوجيا إلى الأمام، فإنها الآن تنصير محاولات تحديد الطريقة التي يمكن أن يواكبها الناس التكنولوجيا من دون أن تستحوذ عليهم» ويرى آرت كريمر، المتخصص في العلوم العصبية، «أن هنالك تحميلاً معلوماً مفروضاً على كل مستوى من مستويات المؤسسة العسكرية - بداية من الجنرال إلى الجندي البسيط»^(٢) فكل رتبة في الجيش، من الجنرال إلى الجندي البسيط، قد أُرليت من مرتبة الساحر إلى مرتبة صبي الساحر.

ومنذ أحداث لحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠١١، ارتفع معدل «المعلومات الاستخباراتية» التي تجمعها التكنولوجيا المتقدمة المتاحة للجيش

Thom Shanker and Matt Riechtel "In New Military, Data Overload Can Be Deadly" (٢)
New York Times 16/1/2011

الأمريكي إلى ألف وستمئة بالمئة. وهذا لا يعني أن البارعين في استخدام فؤوس الحرب قد فقدوا ضميرهم أو جرى تحصيهم ضد الوازع الأخلاقي، بل إنهم بساطة لا يستطيعون مواكبة معدلات المعلومات التي تراكمها الأجهزة التي يشغلونها. واقع الأمر أن تلك الأدوات يمكنها أن تعمل على نحو جيد (أو على نحو سيئ) بمساعدتهم أو من دون مساعدتهم. فإذا ما أبعدت حاملي المؤوس عن شاشاتهم، فقلما تلحظ غيابهم عندما تظفر في توزيع النتائج.

ومع بداية القرن الحادي والعشرين، صارت التكنولوجيا العسكرية عوامة، وحرّدت المسؤولية من طامعها الشخصي إلى درجة لم تكن بالإمكان تحييدها في زمان جورج أورويل ولا في زمن حنة أرندت؛ فقد تولت الصواريخ الذكّة والطائرات من دون طيار مهمة صنع القرارات واحتبار الأهداف من أيدي الجنود العاديين ومن أرفع الرتب في الآلة العسكرية فأهم التطورات التكنولوجية في السنوات الأخيرة لم تكن في مجال الأسلحة الفتاكة، بل في مجال «تحييد الأخلاق» وفصلها عن القتل العسكري (بمعنى إراحة القتل العسكري عن فئة الأفعال الخاصة للنفس لأخلاقي) وقد حذر جونتير أندير بعد تدمير نازاكي، وقبل زمن طويل من تدمير فيتنام وأفغانستان والعراق، قائلاً: «أنت لا نصرّ بأسنانك غاضباً عندما تصب على زر ما... فلرر زر لا أكثر». وسواء أكانت صغطة زر ما تُشعّل آلة لصنع الأيس كريم أو ترسل تياراً في شبكة كهربية أو تطلق العنان لفرسان بهاية العالم الأربعة (الموت، والمرض، والحرب، والجوع)، فليس هالك من فرق؛ فإشارة بدء بهاية لعالم لن تختلف عن أية إشارة أخرى - وسيقوم بها، مثل كل الإشارات المماثلة الأخرى، أحد العاملين الذين يمثلون للروتين وينبلون مه^(٣). «فإذا كان من شيء يرمز إلى الطبيعة الشيطانية لدوقف الذي نعيشه، فإما هو راءة الإشارة، بمعنى إمكانية إهمال الجهد والفكر اللازمين لإطلاق الكارثة - أية كارثة، بما في ذلك تدمير الكرة الأرضية بأسرها» إن الحديد هو الطائرة من دون طيار، التي نوصف وصفاً بديعاً بأنها الكائن المفسرس. ذلك الكائن الذي يولى مهمة تجميع المعلومات ومعالجتها وتتألق الأجهزة الإلكترونية للطائرات من دون طيار في أداء مهمتها، ولكن أية مهمة تلك التي تتألق في أدائها؟ فإذا كانت الوظيفة الواضحة لفأس

الحرب هي أن نعين حاملها على قطع الرفاق والقتل، فإن الوظيفة الطاهرة للطائرة من دون طيار هي أن تعين مشغلها على تحديد أهداف مصيرها القتل. ولكن الطائرة التي تتألق في القيام بتلك الوظيفة وتتواصل إغراق مُشعبيها بتيارات من معلومات يعجز عن مواكبتها، ناهيك عن معالجتها بسرعة في الحال، «في لوقت الحقيقي»، قد تكون مكلفة بأداء وظيفة أخرى، وظيفة سرية خفية، لتبرئة مُشعبيها من لذنوب الأخلاقي الذي يطارده إذا كان يتولى شكل حقيقي كامل مهمة احتثار من صدر بحقهم حكم الإعدام؛ والأهم لطامة مشغلها مقدماً أنه إذا حدث خطأ، فلن يكون فساد الأخلاقي هو السبب؛ فإذا ما قُتل «أساس أبرياء»، فإنه لا يعدو أن يكون مجرد خطأ في، وليس فشلاً أخلاقياً، ولا خطيئة - وطبقاً للوائح والقواعد المنظمة للعمل، فإنه في أغلب الظن ليس جريمة. فأجهزة الاستشعار القائمة على الصائرات من دون طيار ستحدث طبقة جديدة من المحاربين الذين لا بد أن يعملوا على ترقية بحر المعلومات، ولكن هذه الأجهزة تتمتع بالقدرة على الإغراق أحياناً. ولكن أليست القدرة على إغراق القنارات الذهبية (والأخلاقية ضمناً وحنماً) لِمُشغلي تلك الطائرات مضمونة في تصميم تلك الصائرات؟ أليس إغراق مُشغلي تلك الطائرات هو الوظيفة الكبرى للطائرات من دون طيار؟ فهي شهر شط/فبراير من العام ٢٠١١ قُتل ثلاثة وعشرون من الضيوف في حفل زفاف، وجبث استطاع المشغلون الذين يضغطون على الأزرار أن يلمسوا الشاشات الحمقاء، لقد صلوا الطريق وأخطروا الهدف بالتحديد في تلك الشاشات؛ وكان هالك أطفال بين ضحايا القصف، ولكن المشغلين «لم يركروا بما يكفي عليهم وسط دوامة المعلومات التي كانت تُعرقهم» - «فما أشبههم بدباحث عن برة في كومة من العشر»، وما من أحد يتهم هؤلاء المساكين بأفشل الأخلاقي...

إن إطلاق الكارثة سما في ذلك تدمير الكرة الأرضية بأسرها صار أكثر سهولة وإمكانية عما كان حينما كان جونتر ألدز يدون تحذيراته؛ فقد انتحق معاصر التشعل الذي أصاب الملل زميله وحليته المحتمل - الرجل الأحق الذي يحق في الشاشات، وعقته عارق في «دوامة المعلومات».

ديفيد ليون: أشطرك الرأي كثير يا دومان. فثمة استمرايات لا بد من وضعها بعين الاعتبار (مع بعض الانعطافات، والرمادة والنقص) في عالم

«الفعل الغيبي». ولكن، مع أن الأمثلة التي سُفّتها مثيرة، فإني أريد أن أتمنّى في فهم الاستمراريات غير العكسية، تلك الاستمراريات التي لا تنصمّر القتل المباشر. وبعض سياقات المراقبة تنصّي إلى القتل باعتباره نتيجة متوقعة أو غير متوقعة، ولكن العالوية العطشى لا تنصّي إلى القتل ولكن، تحييد الأخلاق وفصلها عن الفعل قد يظهر بوصوح، حتى وإن اختلف طابع المسؤولية الأخلاقية المفقودة.

واسمح لي أن أربط ذلك مرة أخرى ببعض تعليقاتك على المراقبة، هذه المرة في سياق العولمة. وربما يحتج فريق أو يرفض التفارقة التي تستخدمها أنت بين «المولمين والمحليين» أو «الساحين والمشردين»، ولكن النقطة التي دافعت أنت عنها في العام ١٩٩٨ في كتابك لدي حاء تحت عنوان العولمة - هي أن قاعدة البيانات وسيلة أساسية لتمييز العث من السمين، والمهاجرين المرغوبين من المهاجرين غير المرغوبين. وقواعد البيانات تلك تعين على «فعل الأشياء من بعد» (أو «الفعل العياني») على نحو لا يقل عما يحدث في الحالات التي قد كنت تعلق عليها سراحة. وفي كتاباتي، لفتُ الانتباه إلى حقيقة مفادها أنه إذا كنا نفكر في المهاجرين، فإن الحدود تقع في كل مكان^(٤)

وأعني بذلك أموراً عدة، منها أن الحد بوصفه خطأً جغرافياً فقد معناه حتى إنه لم يعد تعبيراً مادياً عن ممارسة رسم الخرائط. فمع أن أجهزة نقاط التفتيش أو مكاتب الحمارك والهجرة قد تقع على حدود المعبر، فإن استخدام قواعد البيانات البعيدة وشبكات الاتصالات السلوكية يعني أن التفتيش المهم - العارق - يحدث خارج حدود الأرض أو على الأقل في مواقع متعددة غير مادية من الواقع. ولكن إذا كان الحد في كل مكان، فهذا يعني أن موقع المهاجر «غير المرغوب» ليس مهماً، فمن الممكن اعتقال المرء في أي مكان (واقع الأمر أنني لاحظت حالة في المسكة لمتحدة هذا الأسبوع حيث كان صراط الهجرة يتفحصون الناس في المواصلات العامة، وفي محطات الحافلات تحديداً، في تفسير مطاط للقواعد الحاكمة)^(٥).

David Lyon, "The Border is Everywhere: ID Cards, Surveillance and the Other," in: E. (٤) Zureik and M. B. Salter, eds., *Global Surveillance and Policing* (Cullompton: Willan, 2005).

(٥) لمصدر نفسه

وهو يعني أن العمل من بُعد الذي كتب عنه هانز يوباز وإيمانويل ليفياس وغيرهما قد جرى توسيعه الآن توسيماً كبيراً؛ فالعمل من بُعد بفضل الأبنية التحتية المعلوماتية وبرمجيات الفرز يرتبط بصنع القرار العسكري، وهو يرتبط أيضاً بصنع لقرارات الفارقة المتعلقة بفرض الحياة وإمكانياتها فهل يمكن أن يقدم نقداً لتحديد الأخلاق وفصلها عن الفعل في هذه السياقات أيضاً؟ وهل تبدو مناقشة هذه الأسئلة استراتيجية مجدية وجديرة بالاهتمام؟

زيجمونت باومان يخدم كل نوع وكل مثا، للمراقبة عرضاً وحاداً، وهو تحديد الأهداف، موقع الأهداف، والتركيز على الأهداف - فكل تمييز وظيفي يبدأ من تلك الأرضة المشتركة.

وأنت محقّ بالطبع يا ديفيد عندما قلت إن التركيز على «الأمر بالقتل» يضيق نطاق موضوعنا، وإن كنت أقترح بأن مراكز البحث والتطوير المتصلة بالمؤسسة العسكرية والممولة منها، ومعها فكرة «الإعدام من بعد»، هي «الوحدة الأمامية» لجيش مراقبة، حيث توفر معظم الابتكارات التكنولوجية التي جرى تكسيها فيما بعد بما تتناسب مع احتياحات تنوعات شبه مسلحة مهووسة بالأمن. وأيضاً مع استخدامات تجارية تسويقية مباشرة كما أن التطبيقات العسكرية الرائدة تضع المقاييس العية لمحتويات صدوق أدوات المراقبة، علاوة على الإطار المعرفي والرحماني لاستخدامها. وهذا أقرب إلى الحقيقة في عصر المكان المحظور مه في أي زمن آخر.

نعم، أنت مُحقّ في ذلك أيضاً يا ديفيد - فأدوات المراقبة الموضوعه في مداخل لمحال التجارية أو الأحياء السكنية المغلفة ليست مجهزة «بذراع إعدامي» مصمم لتدمير أهداف معلومة ومحددة عى لشاشات - ولكن غرضها هو تعميم الأهداف والإبعاد «إلى ما وراء الحدود». وهذا الأمر قد يُسهّل عى المراقبة فوز غير الجديرين ببطاقات الائتمان من بين الزبائن المتعطشين للشراء، وفصل المنسكحين المفلسين عن الربائن الواعدين بيس الحشود المتدفقة إلى المحال التجارية الكبرى. وهذان النوعان من المراقبة المعاصرة لا يهدفان إلى التصفية الجسدية، ولكن هدفهما هو نوع من الموت (موت كل شيء مهم) - به ليس موت الجسم، وليس موت لفناء، ولكنه موت قابل

للإلغاء (مبدئياً)، إنه موت اجتماعي، يخلق الفرصة لبعث اجتماعي (لإعادة التأهيل و استعادة الحقوق). فالإقصاء الاجتماعي، علة المكان المحظور، يشبه في جوهره حكماً بالموت لاجتماعي، حتى وإن كان الحكم في الغالبية العظمى من الحالات يطوي عى تأجيل حكم لإعدام.

وأنت مُحقّ تماماً عندما قلت إن القدرة التي تتبعها تكنولوجيا المراقبة من تُعد تستخدم بحماسة كبيرة في التحكم في الهجرة، وهذه عملية عولمية ظاهرة (قطاع المراقبة تجاوز سلطه الحدود، وتحرر من الحدود والقيود التي تفرصها المسافة، الجغرافية). وأنفق مع كل كلمة ذكرتها في تحليلك، فالولايات المتحدة نقلت صراط الهجرة من نقاط هبوط رحلات الطيران القادمة إلى النقاط التي يستقل فيها الركاب الطائرة، ولكن هذا يبدو حلاً بدائياً تقيدياً إذا ما قُورن بطرق متقدمة واسعة الانتشار في حكومات الدول الثرية، تلك الوجهات المحتملة للمهاجرين، في «وَاد انتهديد في مهده» - وذلك بإعادة ترحيه أوجهرة المراقبة على نقاط بداية الهجرة بدلاً من وجهات الوصول المفترضة المخيفة، حيث يتم تحديد المشتبه فيهم والقبض عليهم وتوقيفهم على مسافة كبيرة من حدودهم، وابتزاز الدول المصدرة لعمالة أو رشوتها للقبول بدور اشطرة المحلة المسؤولة عن مهام «مع الجريمة» أو «اعتقال المشتبه فيهم وتعجيزهم».

ويمكننا القول بأن المهم هنا ليس تجريد المسافة من أهميتها ولا التغلب عى قدرتها على المقاومة والإعاقة مقدار ما هو الرعة في توظيف امسافات، فالمسافة بين نقطة معادرة المهاجرين ونقطة وصولهم يحري مدها فيم وراء «الناطق المحدد» (حيث يُوضع المهاجرون في فئة «المشتبه فيه» بعيداً عن السكان الذي قد يحدث فيه الانتهاك الحقيقي للقانون، وبعاد تصوبرهم باعتدروهم متهمكين للقانون)، في حين أن المسافة التي تفصل أبراج المراقبة عن أهداف المراقبة تتلاشى تماماً بفصل الأدوات الإلكترونية «للاصلا في الزمن الحقيقي اللازم لمعالجة البيانات».

وهذا مكسب جاسي للمرفس - مكسب لا ينبغي التفلس من حادثته، وإغراء قلما يمكن مقاومه، وهو الفرصة «لفطبة» أو «نظيف» الآثار القبيحة لبعيصه بذلك التوظيف، مع إمكانيه وفوع آثار عكسيه، وهو الإبعاد القانوني

الجغرافي لصوري للمواقع التي تجري فيها «الأعمال لفذرة» وأحكام الإعدام عن المكاتب المكثفة بجمع المعلومات الاستخباراتية وإصدار الأوامر. وهذا يعني «تعويم» المسؤولية، إذا استحضرننا مقومة حنة أرندت إنها حيلة مدرستها حياة الهولوكوست ممارسة رهبة مد زمن طويل جداً قبل وصول تكنولوجيا المراقبة المسقمة الراهة، ولكنها حبة أكثر سلاسة وانسيابية وخالية من المتاعب (لمن يصدرون الأوامر) وأكثر كفاءة بفضل تلك التكنولوجيا. وبعلم أن «تعويم المسؤولية» هو إحدى الحيل الفعالة المنتشرة لحيد الأخلاق وفصلها عن الفعل - لتعطيل المقاومة الأخلاقية ضد ارتكاب الأفعال اللاأخلاقية ولاستخدام الوحيد لمعايير الكفاءة الأدائية في اختيار طرق التعامل مع الأمور.

ديفيد ليون هل يمكنك أن توضح أمراً إذا سمحت يا بومان؟ عندما نتحدث عن «آثار» التكنولوجيا، يبدو أحياناً كما لو أنها سلبية في كل زمان ومكان، بمعنى أن التكنولوجيا الجديدة تصمد العلاقة بين البشر ومسؤولياتهم الأخلاقية المتدنة، ربما مثلما فعلت البيروقراطية قتلها، وهكذا تساعد الطائرات من دون طيار في القتل من بُعد، وتعين الآلات الإلكترونية بوجه عام على «لعمل الغيبي». ويبدو أن أقلية من مشعلي تلك الطائرات يعانون من اضطرابات ما بعد الصدمة، حتى وإن كانت الميديوهات التي لا بد أن يشاهدوها غالباً ما تفضل على نحو رهيب^(٦).

فهل لا مفر من ذلك؟ أليس هناك مفر من تلك الآثار لمشؤومة لأجهزة الاتصال الإلكتروني، أم أن هذه لتكنولوجيات نفسها تيسر علاقات اجتماعية إنسانية واعدة؟ وهذا السؤال كان ورداً صمناً في الحديث عن حوارنا نفسه، فما كان لحوارنا هذا عبر القارات أن يحدث لولا تكنولوجيات الاتصال والمعلومات أو ما يميل الآن إلى تسميته باسم «وسائل التواصل».

ولا أقصد بذلك أن التكنولوجيا أدوات «محايدة» لا يكشف اتجاهها الأخلاقي إلا في أعراض استخدامها؛ فكل التطور التكنولوجي هو قطعاً

Elisabeth Bumiller, "Air Force Drone Operators Report High Levels Of Stress," *New York Times*, 18/12/2011, At < <http://www.nytimes.com/2011/12/19/world/asia/air-forcedrone-operators-show-high-levels-of-stress.html> > accessed Mar 2012

نتاج العلاقات السياسية والاجتماعية والثقافية، وكل ما نسميه باسم «التكنولوجيا» هو جانب من العلاقات «التكنولوجية الاجتماعية» و«الاجتماعية التقنية». وبهذا المعنى تمثل جميع الأجهزة والنظم التكنولوجية نرعات أخلاقية، لا سلوكاً أخلاقياً، بل اتجاهات أخلاقياً. وإذا كان هذا صحيحاً، فقد تسهم التكنولوجيات في إحداث آثار إقصائية سلبية، ولكنها تسهم بطريقة أخرى في ملء جزئي، على الأقل، على المسافة الجغرافية؛ فاستماعي باستخدام برنامج «اسكايب» مع أطفالتي أو أحفادي العبيدين مي هو مثال على ذلك.

وكان مُنظر وسائل الاتصال الإلكتروني روجر سيلفرستون يتحسر على الخط بين فهمين للمسافة في إحالات على اتصالات، وهما: الفهم الأخلاقي والفهم الجغرافي. وهو يتحدث عن «المسافة لمسافة»، التي يعني بها مسافة مميزة وصحيحة ومناسبة من الوجهة الأخلاقية أو الاجتماعية، وهو يوصي بالتطبيق النقدي لهذا المصطلح^(٧). فما المسافة المناسبة للإنترنت أو للعلاقات المرفقة؟ إن توفير وسيلة الاتصال من بعد هو تشجيع على الاتصال، بل وربما التواصل، ولكن المكني والاجتماعي لا ينبغي إغفالهما فالبعد هو أيضاً مقولة أخلاقية، والتغلب عليه يحتاج إلى القرب، لا التكنولوجيا. وهذا بالطبع قريب مما قلته أنت في موضع آخر، على سبيل المثال، في كتابك أخلاقيات ما بعد الحداثة (١٩٩٣)، حيث فتت إن القرب هو مجال الحميمية والأخلاق، وإن البعد هو مجال الغربة والقانون

وأعتقد أنك ترى أن الحداثة ترمض الحميمي و لأخلاقي، وأن هذا الرفض يُفرض علينا عبر القانون وأنشطة الدولة، وبالطبع عبر المراقبة على وجه الخصوص؛ فالقرب والبعد المناسبان يتطلبان مسؤوليه غالباً ما تنكرها الحداثة والتكنولوجيا. ولكن البعد المناسب له طبقات متعددة من المعاني والتفاصيل ولماذج. فالتكنولوجيا لا تحدد الأشياء، بل نقيد العمل، لكنها يمكن أن تعين عليه. وفي قلب العلاقات وميوعتها، نمة نطاق

Roger Silverstone, "Proper Distance: Towards an Ethics for Cyberspace," in: Gunnar (V) Liestol [et al], eds., *Digital Media Revisted: Theoretical and Conceptual Innovations in Digital Domains* (Cambridge MA: MIT Press, 2003), pp. 469-490

من الوسائط التكنولوجية والخطية التي تهر استقرار البعد المناسب للارم
للفعل الأخلاقي. فلا بد من إنتاج البعد المناسب. وإذا كانت المراقبة ترتبط
بأفكار التحكم - بمعنى الحضور الدائم بلسطة - فهذا لا يستبعد إمكانية
وجود طرق نخدم بها المراقبة رعاية الآخر والسؤال المهم هو كيف
يمكننا أن نسلط بمسؤولية تجاه غيرنا من البشر؟

فهل يمكن تطوير تكنولوجيات لمراقبة لرعاية الآخر أم أنها مرتبطة لا
محابة بتعطيل الحس الأخلاقي ونحييد الفعل الأخلاقي؟

زيجمونت باومان: إن الحداثة هي حالة من «التحديث» البوسواسي
القهري الإدماجي، ونحسب الأشياء باستمرار، وهي بذلك أشبه بسيف حاد
يستهدف دوماً الواقع القائم ويمكننا أن ننظر إلى التكنولوجيا بالطريقة نفسها
- فلما كان استحداث التقنيات المناسبة لتلك المهمة وتطويرها واستخدامها
هو أداة أساسية، وربما الأداة الأساسية، للفعل القصدي الحديث، فيمكن
الظفر إلى التكنولوجيا باعتبارها السمة المميزة للحداثة. ولكن السيف عادة ما
يكون ذا حدين، وهو يستخدم لأداء المهمة المطلوبة، لكنه لا يستطيع أن
يقطع بالحدين، والسيف بطبيعته أداة خطيرة الاستخدام فبعيداً عن مقاصد
السيف، التي يختارها لما تنطوي عليه من خير وصلاح، فإنه معروف بأنه
يهرج لأهداف المقصوده ويدمرها. فالفعل القصدي يحتاج إلى تركيزه على
المسألة المطلوبة حتى يكون فعالاً، ولكن الموضوعات المسهقة من الفعل
عادة ما تكون في شكه من الاعتماد المتبادل مع غيرها من الموضوعات
المهملة في تلك المناسبة.

فأهداف الفعل يصاحبها حتماً «عواقب غير متوقعة»، وأصرار حبيبة لم
يرغب فيها أحد، ولم يخطط بها أحد في أغلب الظن ومن المعلوم أن
أولريش بيك قال إن كل فعل بطوي على «مخاطر»، وإن الأثر «الإيجابي»
للفعل، والأثر «السي» له بصلة عن أسباب واحدة. فعندما نقل الفعل،
فلا بد أن نقل مخاطره الوثيقة وقد ظهر اتجاه نحو راحة خطاب
«المخاطر» ليحل محله خطاب «الصبر التابع» أو «الحسائر التابعة» - وتوحي
فكرة «الأثر التابع» بأن لآثار الإيجابية المفترضة والآثار السلبية القطعية هي
أثر متوازية، ولهذا السبب، فإن كل تطبيق صريح واع لكل تقنية جديدة يفتح
(مبدئياً على الأقل) محالاً حديداً لمصائب غير معهودة فما أد اشكر أسلاها

شبكة السكك الحديدية وشيورها حتى ظهرت كوارث السكك الحديدية، كما فتح انطلاق السمر الجوي مجاًلاً واسعاً لكوارث جوية غير معهودة؛ وحلت عيباً تكنولوجيا الطاقة الدرية/ النووية كارثة تشيرنوبل وفوكوشما، ذلك الشبح الدائم الذي يذر بحرب نووية ونعجر عن طرده؛ وأما الهندسة الوراثية فقد زادت من معدلات الطعام المتاحة زيادة جذرية، لكنها ما زالت كارثة عولمة وشكة حدوث إذا ما أجرى بعض المهندسين تفاعلات عبر مختلطة وحركوا عمليات غير مقصودة نفع خارج لسيطرة .

وأعتقد أن روجر سيبرستون يتحدث عن تلك السمة نفسها التي لا يمكن أن تنفصل عن «التقدم التكنولوجي»، وإن كان يعرض لذلك في «ترتيب معكوس»، إذا حار التعبير وأعتقد أنه سيمثل لكل حموة بعد التطبيقات المقصودة للمراقبة، وينظر إلى الأهداف الصالمة على أنها سبب رئيس ومحرك رئيس للتقدم الكبير في تكنولوجيا المراقبة، ويتمثل «كتشاف» في أن التكنولوجيا التمهيرية قد يكون لها بعض الفوائد للباحثين عن التمكن أيضاً (والجدران نستخدم لبناء الحيوانات والسجون، كما نستخدم لحدهم للباحثين عن بيئات ملائمة لنضام والتراحم). إن القول بأن التكنولوجيا سلاح ذو حدين، وأنها قد نجد تطبيقات غير متوقعة وتخدم مصالح غير محصنة، ليس اكتشافاً جديداً تقريباً. ومهما كثرت أمثلة تطبيقات تقنيات المراقبة الجديرة بالثناء (وبكيفية قطعاً غير محصنة)، فإن تلك التطبيقات الجديرة بالقبول والتقدير يس هي التي تصع للمودج، وليس هي التي ترسم «خارطة طريق» تطور تكنولوجيا المراقبة، وليس هي التي تقرر القيمة الاجتماعية والأخلاقية لتلك التكنولوجيا. وحتى وإن كثرت الأضرار السارة، فما زال هالك، كما يذكر أولريش بيك دوماً، واجب الحساب الدقيق الصارم للمخاطر، إنه حسب المكاسب والخسائر. فماذا يسرد في الميزان، إذا ما أخذنا كل التأثيرات في الحسان - مكاسب اجتماعية أم خسائر اجتماعية؟ تقدم الأخلاق أم سادها؟ شر التفرقة الاجتماعية والعزل الاجتماعي أم تعزيز لنضام البشرى؟ فلا أحد منكر أنه مع التفاد السريع لإمدادات مصادر الصدف غير المتجددة، فإن الطاقة الدرية قد تمثل حلاً حقيقياً لأزمة الصدف البوشية، ولكن، بعد فوكوشما، تأخذ حكومات أغلب البلدان القوية على محمل الجد إمكانية حظر شامل على محطات الطاقة الدرية .

الفصل الرابع

(اللا) أمن والمراقبة

ديفيد لبون: إن تحقيق الأمن هو أحد الأسباب الأساسية الدرة للاهتمام بالمراقبة في الوقت الراهن، ويتحقق ذلك بمريد من المراقبة بالطبع، ولا جديد في ذلك. ولنتذكر على سبيل المثال إشارات الكتاب المقدس إلى أهمية «حراسة» المدينة، أو فرانيسكو وهو في نوبة حراسة على مدخل قلعة إلسبور في المشهد الافتتاحي من مسرحية هاملت التي كتبها وليام شكسبير. فحفظ الأمن كان دوماً سبباً أساسياً للمراقبة البقطة، وتحديد هوية المارة من الأصدقاء أو الأعداء، وأدى ذلك إلى ربط حفظ لأمن ربطاً قوياً بالحماية والسهر على رعاية الناس.

ولكن في القرن الحادي والعشرين، يبدو أننا نفتقر إلى تلك البراءة، فعلاً ما يشير الأمن إلى فكرة ضمانية تسمى الأمن «القومي»، وهو اليوم أولوية سياسية في كثير من البلدان وعمرها، وهو بالطبع قوة دافعة كبيرة في عالم المراقبة. ويبدو أن الوسائل الدرة لتحقيق الأمن هي تقنيات المراقبة الحديثة وتكنولوجياها، التي يفترض أن تحرسنا، لا من أخطار بعينها، بل من مخاطر أكثر صبابية وهلامية. لقد تعبرت الدب، تغيرت من منظور الحراس والمحروسين؛ فإذا كان المرء يستطيع أن ينام بسهولة في الماضي وهو يعلم أن نوبة الحراسة الليلية يعطه على أبواب المدينة، فذاك عهد قد مضى. ويبدو أن لأمن يولد، وهذا تكمن المفارقة، أشكالاً من انعدام الأمن باعتباره أثراً ثانوياً - أم أنه يكون في بعض الحالات سياسة مفصودة؟ - شعوراً بفقدان للأمان يتتاب الذين يفترض أن الإجراءات الأمنية تحميهم.

لقد قلت في تعليق لك يا باومان إن المجتمع الحديث السائل هو «أداة تحاول أن تهب من صعوبة الحياة مع الخوف»^(١). فإذا كنت «الحداثة

Zygmunt Bauman, *Liquid Fear* (Cambridge Polity, 2006), p. 6

(١)

الصصة» قد اعتادت أن تغزو المخوف واحد، تلو الآخر، فذ الحادثة السائلة تكتشف الآن أن الصراع ضد المحاول هو مهمة مدى الحياة. وإذا كنا نحن في العرب غير و غير بذلك وعياً كاملاً قبل أحداث لحادي عشر من أيلول/ ستمبر، فإن ما تسميه «أهوال ابعولمة» قد لحقت سا. فعد تلك الأحداث، أصبحت ممارسات إدارة المخاطر مطلوبة ومرغوبة، ومشهورة جداً وواضحة. وأب لاحظت أنه مع تركيز المراقبة على «الأهداف الخارجية المربية نقالة للتسحيل والرصد»، اضطرت أنظمة مراقبة أخرى أن «تخفل الدواعي والاختيارات الفردية وراء الصور المسجلة، ومن ثم لا بد أن نصفي في نهاية المطاف إلى إحلال فكرة «لجماعات المشتبه فيها» محل «المحرم المرء»^(٢).

فلا عجب أن حالات الشعور بعدم الأمان تظهر بسرعة ما أن يتم تركيب أجهزة فحص كامل للجسد، أو ما أن يتم تركيب جهاز جديد لمطابقة الصصات والإحصاءات الحيوية في المطار، أو ما أن تُطلب حوارات سفر محدثة عند المعابر، وفيها شرائح تحديد الهوية باستخدام الترددات اللاسلكية. ولا بدري متى تجد أنفسنا ضمن الفئات الخطيرة أو، لكن أكثر دقة، متى يتم استبعادنا من المشاركة أو معنا من الدخول أو إبلاغاً بعدم الأهلية. أو ربما نجد أن ما تسميه محققاً «الهوس الأمني» يُحدث مزيداً من الإزعاج المصّر؛ فها هم العاملون بالحطوط الجوية النرويجية يحاطبون سلطات المطار ويشكون من «الإجراءات الأمنية المفرطة» التي تدمر الأمن الحوي الحقيقي، فطام الطائرة يشعر بالضيق والإبهاك من التفتيش عشر مرات أو اثني عشرة مرة في اليوم الواحد، والطيارون الذين يرعون مئات الركاب لا يمكن الوثوق بهم، فلا يستريحون لساو الغداء من دون تفتيش أممي، وهم يقولون إهم يشعرون كأهم محرمون^(٣).

ولكن الأمر قد يبدو مفضلاً إذا تصورنا أن حالات الشعور بعدم الأمان المرتبط بالمراقبة لأمنية تقتصر مباشرة على الأوضاع التي أعقبت أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر فعلى سبيل المثال، نجد أن تورين

= وقد صبر لكتب باللغة العربية عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر عنوان الخوف السائل

(٢) لمصدر نفسه، ص ١٢٣

Katja Franko Aas, Helene Oppen Gundhus and Heid. Mork Lomell, eds. *Technologies of Insecurity: The Surveillance of Everyday Life* (London: Routledge, 2007), p. 1

موناها، في كتابه الرائع عن المراقبة في زمن انعدام الأمن، يوضح أن أنواعاً عدة مختلفة من «ثقافات الأمن» وما يصاحبها من «سُي سحتة لمراقبة» تنطوي على عواقب مماثلة، ومنها توليد عدم الشعور بالأمن، واستثناء الظلم الاجتماعي. ففي الولايات المتحدة، التي يأتي منها معظم لأمله في هذا الصدد، يخبرنا تورير موناها أن «الحيط لجامع هو الحوف من الآخر»^(٤). والأدهى هو تشجيع لموظفين البسطاء، من أجل مراقبة كل خوف جديد، وكل شعور جديد بعدم الأمان، على فعل أمرين: أولاً، تحميل العبء سخرين المؤن وتركيب أجهزة الإنذار وشراء وثائق التأمين؛ وثانياً، تأييد الإحراات المنطرفة، بما في ذلك التعذيب والتجسس على الناس.

وإذا أخذنا ذلك كله بعين الاعتبار، يبدو لي أن استخدام مصطلح «المراقبة السائلة» هو استخدام في محله، فهذه مراقبة نامسب لأزمة السائلة، وهي تتسم ببعض السمات البارزة للسبولة المعاصرة. إننا نعتمد على أنفسنا لهوّن من صعوبة الحياة مع الحوف، ولكن كل محاولة تمرر مريداً من المحاطر، والمحاف، وأهوال لحادي عشر من أيلول/سبتمبر وعواقبها بدل على هذه الأعراض، لكنها بدل عليها وحسب. والمشكلة هي أعم مما يحدث في أمن المطار وقط التفنيز على الحدود، فهل يمكن أن يبدأ هذا الجزء بال تعليق على التحولات قبل الحديثة ولتحولات الحديثة، ثم التحولات الحديثة السائلة في المراقبة الأمنية؟ ماذا تعبر حقاً؟ وهل انتهت للأبد بعض سمات المراقبة الأمنية في عصر قبل الحداثة - التي ألمحت إليها في إشارتي إلى الكتاب المقدس ومسرحة شكسبير؟

زيحمونت باومان: مرة أخرى تقع تمام الاتفاق يا ديميد .

أولاً، كان فرايسيسكو يحرس أمن قلعة إل سينور من الأحطار التي كانت تنسرب إليها من «حارج المدينة» - ذلك المعصاء الشاسع الممتقر إلى السيطرة الجيلة والذي يسكنه اللصوص وقُطاع الطرق وغيرهم من المجهولين الخطرين وأما خلفاء فرايسيسكو، فإنهم يحرسون امدينه من تهديدات لانهاية تحوم داخل المدينة، وتولد داخلها. لقد تحولت قلاع الأمن في

Torin Monahan, *Surveillance in the Time of Insecurity* (New Brunswick: Rutgers (E) University Press, 2010), p. 150.

الحصر عبر القرون إلى بيئات حاضنة للأخطار الحقيقية أو المزعومة، المتوصلة أو المصطنعة. فقد تحولت المدن المُشيّدة على أساس فصل حُرُر النظام عن بحر الموضى إلى أشدّ مذبح الموضى عزارة، مستجيبة لجلدران المربية وغير المربية، والمناريس، وأبراج المراقبة، وسفد السهام والمذائف في أسوار المدينة، وأعداد عميرة من المدججين بالسلاح.

ثانياً، إن «لحيط الجامع» لكل لأدوات الأمية داخل لمدينة هو «الحرف من الآخر». ولكن «الآخر» الذي سبيل إلى الخوف منه أو ندفع دفعاً إلى الخوف منه ليس فرداً ما ولا جماعة أفراد وضعوا أنفسهم، أو أجبروا، فيما وراء حدود المدينة وحُرموا من الحق في الاستفراغ أو الإقامة بها، بل إن ذلك الآخر هو أحد الحيران أو المارة، أحد لمتسكعين أو المطردين، وكل غريب بالأساس. ولكن، كما نعم جميعاً، فإن سكان المدن غرماً، لا يعرف الواحد منهم الآخر، وحمماً مشته بأسا بحمل الخطر، ومن ثم، فب حبيب بدرجة أو أخرى يريد تكثيف التهديدات العائمة المتفرقة المحبولة وحشدها في مجموعة من «المشتبه فيهم المعتادين». وهذا التكثيف يُرجى منه وضع التهديد على مسافة، وفي الوقت نفسه حمايت من خطر التصيف باعتبارنا جزءاً من لتهديد.

ولهذا السب لمدوج - الحماية من الأخطار والحماية من التصنيف ضمن الجماعات الخطيرة - فإننا نعرز مصالح أصيلة في شبكة كثيفة من إجراءات المراقبة ولاستقاء والفصل والإقصاء. نحن جميعاً نحتاج إلى أن نميز أعداء الأمر حتى لا بحسن أحد من أعدائه. . إننا نحتاج إلى أن نهم غيرنا حتى نصم براءتنا، وأد نُقصي غيرنا حتى نُحَبِّب الإقصاء. إننا نحتاج إلى أن نفق بكفاءة أجهزة المراقبة حتى نسمحنا راحة الاعتقاد بأننا نحن الكائنات المحترمة نسجو من المخاح التي تصبها تلك الأجهزة - ويعود بذلك احترامنا إلى مركزه السابق ومكانته الراسخة. وهذا في واقع الأمر تحول غريب مشؤوم في معنى رسالة الشاعر الإيكليزي «حور دن» منذ قرون حلت. «ليس الإنسان جريرة، وما من إنسان مكتفٍ بنفسه، بل كل إنسان قطعة من القارة الأوروبية، وجزء من الكل... فلا نعت أحدأ أداً ليعلم لمن تدق الأجراس، فهي تدق لك أنت» .

ثالثاً، يبدو أسا جميعاً، أو على الأقل الغالبية العظمى منا، قد تحولنا

إلى مدمنين للأمن، لقد استوعبنا رؤية العالم التي تؤكد شبح الحظر في كل مكان، تلك الرؤية التي تؤكد شمولية الأسباب الداعية إلى عدم الثقة واشك، تلك الرؤية التي تؤكد أن فكرة لتعيش لأمر لا يمكن تصوره إلا باعتباره سلاح اليقظة الدائمة، وهكذا صرنا عائلة على المراقبة. وهن نقول أنا ميتون: «إن الحاجة إلى الأمن يمكن أن تتحول إلى إدمان، حيث يجد الناس أنهم مهمما شربوا من حمر لمراقبة، فيها لا ترويهن، إنها مثل المحدرات، فما أن يعتادوها، فإنهم لا يمكنهم الاستغناء عنها»⁽⁵⁾ ذلك لأن «الخوف يولد الخوف». وأنفق تماماً مع هذا الرأي، وأعتقد أنك أيضاً تتفق معه. والمقاومة الفردية الوحيدة ضد التيار العام والمراج شه الكوني إنما هي مقاومة لا طائل كبير منها، فالأمر يحياح إلى إرادة قوية، كما أن كلفته كبيرة على المستويين المادي والاجتماعي. فما هي السبلة «إلينا»، وهي إحدى الحالات في دراسة أنا مستون، بتفاحاً بعد الانتقال إلى سنها الجديد «نالك الكير من التدبير الأمنية هناك - من كاميرت المراقبة إلى أقفل كثيرة، وأفعال مزدوجة على لأواب والنواخذ، وأنظمة إدار متعددة ومعقنة للغاية»، وهكذا شعرت لسيدة «إلب» بعدم الارتياح في بيئة تذكرها دوماً بضرورة الخوف والالتفات المتوحش والاستنفار، ولذا أرادت أن تتخلص من كل هذه الأدوات الأمنية؛ ولكن الكلام أسهل من الفعل، فعندما تمكنت في نهاية الأمر من إيجاد عمال لإزالة لأقفال، عبروا عن دهشتهم من رغبتها، وأخبروها بأن هذا أمر عجيب.

كما أن أجنييس هيلر، في عدد جديد من دورية ثيسيز إليفس Thesis Eleven، لاحظت تعبيراً دالاً على هذه الأعراض في روايات تاريخية معاصرة: فالروائيون المعاصرون الذين يصنعون حكايتهم الروائية في أزمة سحيقة قبل حدثائية قلما يركزون على الاعتداءات الوحشية سجيوش الأجنبية والعزو والحروب، حتى وإن لم يكن هنالك من يقصر في هذه الاعتداءات في تلك الأزمة التي توصل فيها حكايتهم الروائية، بل إنهم يركزون، بدلاً من ذلك، على «الخوف المحيط» الذي يتسرب إلى الحياة اليومية - الخوف من الاتهام باستخدام السحر أو اهرطقة أو السرقة أو القتل... ولروائيون

الذين ولدوا في أزمنتنا وتربوا فيها يعرفون لأسلافنا بأثر رحيم، ويعرفون في دوافعهم أسواق الأموال النمطية في عصرنا الذي يعاني من الهوس بالأمن وإدماجه. لقد انتقلت مصادر الكوابيس إلى خريطة عالمهم، إذ جاز التعبير، من «الحارج هالك» إلى «الداحل هنا»، إنها تطهر فحاة في أقرب المفاهي أو الحانات، بين أقرب الجيران - وأحياناً تستقر في مطابخنا أو في غرف نومنا.

وهذه هي مفارقة العالم الذي يزخر بأجهزة المراقبة، مهما كان عرضها الظاهر؛ فمن جهة، نحن في حماية من انعدام الأمن تفوق ما كان لأي حيل سابق، ومن جهة أخرى، لم يمر أي جيل سابق قبل العصر الإلكتروني بمشاعر عدم الأمن باعتبارها تجربته اليومية يعانيها المرء طوال النهار (و ليل)...

ديفيد ليون: حسنًا يا داوود، ولكنني أريد أن أُلح عليك في أمرين. ويتعلق الأمر الأول «بمشاعر عدم الأمان»، فهي تقع في مستويات عدة، وهي تسهم، لا في «انقافه الخوف» العام كما يقول البعض، بل في ثقافات متعددة الحوف وعلى أحد المستويات، على سبيل لمثال، هنالك محاوف مرتبطة بكون المرء جزءاً من أقلية محظورة، مثل المسلمين العرب الحظرين في الغرب؛ فقل بصحة أساسع قامت ماهر عرار للمرء الأولى، وهو مهندس اتصالات كندي من أصل سوري تعرض لسلسلة من الأخطاء الفظيعة ارتكبتها بحقه الجهات الأمنية لكندية، ثم تعرض لاعتقال تحسمي من السلطات الأمريكية في نيويورك، وانتهى به المطاف ليكون ضحية تعذيب في سوريا خلال العامين ٢٠٠٢ و٢٠٠٣، وهذا الوضع لفظيع، القائم على سوء استعمال مع معلومات مربة للعامة، هدد بتدمير صحته، وحياته الأسرية، وكل عرير له. ولكن مشاعر فقدان الأمان فيما يسمى «محتتمعات المخاطر» لا يقتصر تأثيرها في أناس مثل عرار الدين ليس لهم ارتباط واضح بالإرهاب (بم في ذلك من ليس لهم علامات «شرق أوسطية»)، بل إنه يشمل أناساً ملقوا تحديراً بأن الاختناكات الحسية تكشف عن نزعانهم الطبيعية إلى أمراض بعينها، أو آناء وأمهاات حريصين حرصاً مفرطاً على حماية أسانهم من الأخطار التي تحيط بوسط المدينة...

إن القاسم المشترك بين هذه الحالات هو رؤية الأمن باعتباره شيئاً يتعلق بأغلبية، تاركاً الانحرافات الإحصائية الشدة في الهامش وهكذا، فإن المسلمين العرب في العرب، ولكن أيضاً الأقلية التي يفترض أن حيناتها

تشير إلى أمراض ممكنة أو من هم عُرضة لمخاطر الشوارع بالليل، يتدبرهم جميعاً الإحساس بعدم الأمان. فالمستقبل المتخيل للأمن هو استبعاد لكل حالات الشدود (الإرهاب والمرض والعنف) أو على الأقل احتوائها، ذلك لأن المراقبة ترتبط بما يفهمه ميشيل فوكو - الانضباط والأمن^(٦). فمشاعر فقدان الأمان هي نتيجة طبيعية عملية للمحتجابات الراهنة الموهوسة بالأمن.

فلا يمكن فهم تكنولوجيات الأمن/ اللاأمان باعتبارها مجرد منتجات لتكنولوجيا المعلومات والانصالات، أو حتى باعتبارها نتيجة لوقوع في فخ حالات الاستثناء (التي أبطلتها أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، ولكنها لم تخلقها)؛ بل إنها جزء من تصور اجتماعي وسياسي أكبر يتعلق بالمخاطر ورفيقها الدائم، اللابئين. فكيف نعالج هذا الموضوع، سياسياً؟ فمع كثيرين آخرين ممن لم يستسلموا إلى السحرية من قدرتنا على التعبير، أرى أن هنالك استراتيجيات للتصدي لتلك التطورات التي تحول الأمن/ اللاأمان إلى مسائل مصيرية لإمكانات الحياة. ولكن إذا كننا أفهمنا جيداً، فإن السلطة والسياسة تمصلاان إلى حد كبير في الأزمنة السائلة، وتنتخر لسلطه فيما يسميه مانويل كاستلز «فضاء الدفق السائل»، تاركةً لسياسة ذائلة في فضاء الأمكنة الثابتة^(٧).

هذه الفكرة مقنعة، ولكنها تعث على الشلل، فهي تعني ضمناً أن السياسة العمومية - التي لم تظهر إلى لوجود - هي وحدها التي يمكن أن يكون لها أثر حقيقي. وأتفق معك بأن توازن السلطة والسياسة هو هدف بيل، ولكن ما إمكانية سياسة تصحح فيها الديمقراطية (المساءلة) والسحرية (التي لا يرسم حدودها إلا تحالف الأمن والمراقبة) مركز صراع على مستويات أكثر محلية؟

زيجمونت باومان هاء مؤلف اسمه ميشال ويليك. وأنا معجب جداً به، فهو يتمتع بموهبة وبراعة فريدة في اكتشاف العام في الخاص، وبقدرة على تقدير إمكانياته الداخلية وكشمها. وقد كتب ميشال ويليك رواية بعنوان إمكانية حزيمة، وهي أفضل تصوير للواقع لمرير مجتمعنا الحديث السائل

Didier Bigo, "Security: A Field Left Fallow," in: M. Dillon and A. W. Neal, eds., (٦) *Foucault on Politics, Security and War* (London: Palgrave Macmillan, 2011), p. 109

Zygmunt Bauman, "Conclusion: The Triple Challenge," in: Mark Davis and Keith (٧) Tester, eds., *Bauman's Challenge: Sociological Issues for the Twenty-First Century* (London: Palgrave Macmillan, 2010), p. 204.

الذي يسوده كلٌ من لسرعة المردية، واستفكيك، والتحرر من القيود والصوابط. وقد يكون ميشال ويليك هو الشخص الذي كنت تفكر فيه عندما أشرت إلى الذين «استسلموا إلى السحرية من قدرتنا على التعيير»، فهو رجل متشكك جداً، وعاقد للأمل، وهو يسوق أساناً وحيهة كثيرة حتى يبقى في حالة التشكك وفقدان الأمل. ولا أوافق على موقفه، ولكنني لا أرى أنه من السهل دحض الأسباب التي يسوقها. . .

إن الروائيين لعظماء الذين صوروا الواقع المرير في الماضي، أمثال يعجبي زامياتين وجورج أورويل وألدوس هكسلي، هم من رسمت أفلامهم الأموال التي استحوذت على أهر العالم الحديث لصلب، علم المستجيبين والجنود المهووسين بالنظام والاضباط الدقيقين. كان هؤلاء الروائيون على أعلى درجات الاستعداد والحذر، وكانوا يأملون أن تصدم رؤاهم إخوانهم، ونصحهم إلى المحلول، بحيث يفضوا عن أنفسهم غفلة الخراف السائرة في حنوع نحو المديح، فكانت رسالتهم تقول إن هذا هو العالم الذي سيمضي إليه هندوؤكم - إلا إذا تمردتم - فكان يعجبي زامياتين وجورج أورويل وألدوس هكسلي، مثل ميشال ويليك، أبناء عصرهم. وهذا السب، فهم، على العكس من ويليك، كانوا يؤمنون بالحياطين الذين يعيطون الثياب حسب الطلب، كانوا يؤمنون بإسناد المستقبل للنظام، واسبعاد فكرة المستقبل الذي يصع منه بنعسه باعتبارها فكرة شادة تماماً. فكان هؤلاء الروائيون يخشون الفياسات الحطأ، والتصبينات غير الجذمة في شكلها أو عديمة الشكل، والخياطين السكارى أو العاسين. ولكن لم ينتهم خوف من أن دكاكين الخياطين ستعلن وتنهار، ولم ينتهم خوف وأنها ستسحب أو تتوقف بالتدرج - ولم يتوقعوا مجيء عالم لا وجود فيه للخيابين الذين يفضلون الثياب حسب الطلب

وأما ويليك فكان يصور من أعماقه عالماً حالياً من الحياطين؛ عالم المستقبل، في مثل ذلك العالم، يصنع نفسه نفسه، مستقبل يتشكل وفق مقولة «افعلها بنفسك»، مستقبل لا يتحكم فيه أي من منصي هذه المقولة، ولا يمتنى ولا يستطيع أيٌ منهم أن يتحكم فيه. إن معاصري ويليك، ما أن يوضع كل منهم في مداره الخاص الذي لا يتدخل أمداً مع غيره، ليس لهم حاجة بالمراقبين ولا المرشدين، لا حاجة بهم بهم أكثر مما تحتاج الكواكب والنجوم القائمين على تخطيط اطرق وحركة المرور؛ إنهم قادرون كل القدرة

على إيجاد طريقهم إلى المذبح بأنفسهم، وهم يفعلون ذلك - مثل الشخصيتين الرئيسيتين في رواية ويلك، فهما يأملان (من دون جدوى، للأسف، من دون جدوى...) بأن يلقيا على ذلك الطريق. فالمذبح في الواقع المرير الذي يصوره ميشال ويلك هو أيضاً لا يتحقق إلا باتباع مقولة «اعملها بمسك».

وفي مقابلة شخصية أجريها سورانا هوبيل^(٨)، عرّ ويلك عن رأيه بكل صراحة قائلاً: «ما أعتقد، بالأساس، هو أن المرء لا يستطيع أن يعبر أي شيء يتعلق بالتحويلات المجتمعية». وعلى النعمة نفسها، يوضح ويلك أنه إذا أسف على ما يحدث في الوقت الراهن في العالم، فليس يغير ذلك شيئاً «إنني لا أحب أن أدّ بإعادة الزمن لأسي لا أؤمن بأنه من الممكن إعادة عقارب الساعة إلى الوراء». فإذا كان أسلاف ويلك مهتمين بما يمكن أن يفعله الماعدون في مركز قيادة التعبيرات المجتمعية من أجل القضاء على العشوائية المزعجة التي يمثلها السلوك الفردي، فإن اهتمام ويلك كان ينصب على مآل عشوائية السلوك الفردي في غياب مراكز لقيادة وهي غياب انفاعليس المستعدين لقيادتها. فليس ويلك قلقاً من إفراط التحكم ولا من إفراط القهر - ريفه المحلص الدائم - بل إنه قلق من تدرجهما التي تجعل كل قلق غير ضروري وغير فعال وهكذا يتحدث ويلك إلينا من على متن طائرة خالية من أفراد طاقم الطائرة في كابينة قيادتها.

«أنا لا أؤمن كثيراً بتأثير السياسة في التاريخ... ولا أؤمن بأن علم النفس الفردي يؤثر في الحركات الاجتماعية» - هدد ما توصل إليه ويلك فإذا سأل سائل: «ماذا يمكن فعله؟» فإن السؤال يبعد صحته ومعناه من حلال الإجابة القطعية. «لا أحد» عن سؤال تال. «من سيفعل ما يمكن فعنه» فما من فاعلين نراهم أعيننا سوى «العوامل التكنولوجية، وأحياناً، لا غالباً، العوم الإنسانية». ولكن لتكنولوجيا معروفة، للأسف، بالعمى، فهي تعكس المتتالية سحرية التي تنبع فيها الأفعال غايات معبسة (تلك المتتالية التي تفصل الفاعل عن غيره من لأحسام المتحركة) - إن التكنولوجيا تتحرك لأنها يمكن أن تتحرك (أو لأنها لا يمكن أن تتوقف)، لا لأنها يريد أن

^(٨) Michel Houellebecq, the Art of Fiction no. 206, "Paris Review" no. 194 (Fall 2000). At <http:// (A)

www.theparisreview.org/interviews/6040/the-art-of-fiction-no-206-michel-houellebecq > accessed Apr 2012)

تصل، في حين أن الله، ذلك الخيب لذي يذهب بالأبصار، يرمز إلى إخفاقات الشر وعجزهم عن القيام بالمهمة (عمرهم عن مواجهة الصعاب والعزم على تحقيق المقاصد). والعاجزون يهديمهم العميان، ولأنهم عاجزون، فليس لهم من خيار آخر. لا خيار لهم، بأي حال، إذا ما تركوا لمواردهم المحدودة جد، ولا خيار لهم من دون طيار بعيون يقظة دائمة - طيار يظفر ويرى. والعوامل «التكولوجية» و«الدينية» تتصرف بطريقة غريبة مثل «الطبيعة»، مما من أحد يستطيع أن يتحقق من موقع نزولها إلا عند نزولها، ولكن هذا يعني شيئاً واحداً، كما قال ويلك، وهو أن ما من أحد يستطيع أن يتحقق من ذلك، لا. يُبين له أنه لا يمكن إعادة عقارب الساعة إلى الوراء.

إن ويسك، موعيه الداني وصراحته الجديرة بالثناء، يؤكد نفاذة الأمل، إذا كان هنالك من شخص عنيد وسادج بما فيه الكفاية ليوصل التشبث بالأمل. فوصف الأشياء لا يفصلي إلى تغييرها، واستشراف المستقبل لا يفصلي إلى معه من الحدوث. فهل وصداً أحياناً إلى نقطة اللاعودة؟ هل حكم فرانسيس فوكوياما نهاية التاريخ أثبت صحته، حتى وإن جرى تعنيد حشاه و لاستهراء بها؟

أنشكك في حكم ويلك، حتى وإن كنت أتمق مع عريضة الحثيات التي سافها، وهذا يعود في أغلب الظن إلى أن العريضة تحتوي على الحقيقة، الحقيقة وحدها، ولكنها لا تحوي الحقيقة الكاملة، فقد سقط شيء مهم للعناية من حساب ويلك؛ ذلك لأن ضعف الساسة وضعف عدم النفس المردي ليسا وحدهما سبب المستقبل المظلم المرسوم (بدقة). ولذا فإن النقطة التي بلغناها حتى الآن ليست نقطة اللاعودة. ولكك تعي السبب المحتمل لاستحسانني لقول ويلك وتحفظاتي عليه، ذلك لأنك أشرت إلى الطلاق الواضح بين السلطة (القدرة على فعل الأشياء) والسياسة (القدرة على انتقاء الأشياء التي ينبغي فعلها).

واقع الأمر أن قنوط ويلك وانتهزاميته يصدران عن أزمة العمل المستقل. وفي أعلى تلك الأزمة، على مستوى الأمة/الدولة، فقد اقترب العمل المستقل على نحو خطير من حافة العجز، ذلك لأن السلطة تتبخر لأن في «مضاء الدفق السائل» خارج سيادة السلطان، حارج سيادة السياسة

الحدودية الدائمة للدولة. فمؤسسات الدولة لأن مثقلة بمهمة استحداث حلول محلية لمشكلات تصدر عن أوضاع عولمية، وسبب نقص السلطة، فهذا عبء لا تستطيع الدولة أن تحمله، ومهمة لا تستطيع أن تؤديها بموارده المحدودة وداخل المجال المتعلق لحياراتها الممكنة. والاستجابة الياتية المنتشرة لهذا لتعارض هي الرعة للخلص التدريجي من واحباتها، حتى وإن كان قيامها بواجباتها متوضعا، حيث ظلت تكتسب شرعيتها من الوعد بالقيام بها. وأما المهام التي تتحلى عنها الدولة واحدة تلو الأخرى أو تفقدها، فإنها تُسقط إلى أسفل - إلى عالم «ميسبة الحياة»، إلى الموضع الذي يجري فيه ترشيح الأفراد إلى منصب مربط يجمع بين السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية. فالأفراد بحكم القانون هم من يُتوقع منهم الآن أن ينكروا، بمهاراتهم ومواردهم العردية، حلولاً فردية لمشكلات الأوضاع المجتمعية (وهذا هو باحتصار معنى «سيرورة الرعة العردية» في الوقت الراهن، فهي سيرورة يتحصى فيها تعميق التسعية في صورة تقدم الاستقلال). وكما الحال هي أعلى الأزمات، فإن المهام في أسهلها لا تناسب إلى حد كسر مع الوسائل المتاحة والممكنة، ويصدر عن ذلك الشعور بفقدان الحيلة، الشعور بالعجز، كالعوالق الطافية على سطوح المياه، حيث كُتب عليها الهريمه للأبد في مواجهة عبر متكافئة تماماً مع تيارات عاتية.

إن العتوة المتنامية بين عظمة الصعوط وسرة الدفاعات تغذي مشاعر العجز وتممرها مادامت قائمة. ولكن تلك الفجوة لن تظل قائمة، وهي لا تبدو مستعنة عن الاختفاء إلا عندما يجري تصوير المستفس باعتباره «مريداً من الموحود»، واستيفاء للتيارات الحاصره. فالاعتقاد بأن نقطة اللاعودة قد تحققت بالفعل يضيف إلى مصداقية هذا الاستيفاء من دون أن يصح بالضرورة فصوريات الواقع المرير تتحول مرات كثيرة إلى سوءات تدحصى نفسها بنفسها، كما نوحى الأعمال الأدبية لكن من يفحني رامياتين وجورج أورويل على الأقل .

ديفيد ليون. شكراً على صراحتك الكبيرة يا ناومان! وأنا مندهش من أن هذا يعيدت من جديد إلى نقاشاتنا الباكرا (في الثمانينيات من القرن العشرين) عن اليوتوبيا ونقصها ذلك أن كل نوع أدبي بفتح إمكانيات للنظر فيما وراء الحاضر، فايوتوبيا تسعى جاهدة إلى رؤية أرض موعودة ممكنة به، يكفي للسعي إليها، لكنها تبسط الحيال في الوقت نفسه إلى سمات مجهولة

من الاجتماع البشري، وأما نقيض اليوتوبيا فيستلهم النزعات التدميرية اجتماعياً والمولدة للقلق في زماننا ليس لنا كيف أننا سمحنا هي كرب وعذاب للأند. إن نمو المراقبة الإلكترونية باعتبارها أحد أبعاد الديمقراطية غير الليبرالية الموهوسة بالأمن قد أشعل الحيال امناقض لليوتوبيا الذي يصور الواقع امزير - ويبعث على اليأس أحياناً. وهذا يمكن أن نلاحظه بدرجات متفاوتة في أفلام مثل البرازيل (١٩٨٥)، وبلبلد وانر (١٩٩٢)، وجانكا (١٩٩٧)، وتقرير الأقلية (٢٠٠٢)، علاوة على الرؤية المقنعة التي ساقها الباحث القانوني دانيال سولوف، ومقادها أن كافكا يقدم استعارات أكثر ملاءمة مما قدمها ورويل للمراقبة الراهنة^(٩).

ومن جهة أخرى، لا يبدو أن الحذر من الإفراط في الاهتمام بالمستقل قد أوقف طوفان الحلم الرقمي والإيمان بأن المستقل هو الذي سيتحقق فيه معنى الحياة وأتردد في أن أبجل هذا الإيمان بمصطلح «الترعة اليوتوبية». ففكرة العالم الافتراضي قد صارت موضوعة شهيرة حتى تحولت إلى ما يسميه فيسنت موسكو «المصاء الأسطوري» الذي يتجاوز العوالم التقليدية للزمان والمكان والسياسة، وهو يسميه «العالم الرقمي المقدس»^(١٠). فمنذ ابتكار شرائح السليكون الإلكترونية المعقدة في العام ١٩٧٨، فاضت اليوتوبيات التكنولوجية «ثورات» الإلكترونيات الدقيقة» و«محتمات المعلومات»، كما ظهر رجال عصر المعلومات، مثل ستيف جوبس، وصاروا مشاهير وأيقونات يُشار إليها بالبنان. ويبدو أن كثيرين من الخبراء مارالوا يعتقدون بأن أفضل عوالم ممكنة هي العوالم الرقمية، وهذا يطنق على الديمقراطية والتنظيم والترفيه والأمن والعمليات العسكرية. وبالطبع، تحلل المراقبة مكانة بارزة في كل هذه الأمور - ذلك لأن فبدة المعركة المعاصرة تبدأ «بقدره المرء على الرؤية واتصور والملاحظة والكشف»^(١١).

Danle Solove. *The Digital Person. Technology and Privacy in the Information Age* (New York: New York University Press, 2004). p. 47

Vincent Mosco, *The Digital Sublime: Myth, Power and Cyberspace* (Cambridge, MA: MIT Press, 2004)

S. F. Murray "Battle Command Decision Making And The Battlefield Panopticon," *Military Review* (July-Aug. 2006): 46-51, cited in Kevin Haggerty, "Visible War: Surveillance, Speed and Information War," in Kevin D. Haggerty and Richard V. Ericson, eds., *The New Politics of Surveillance and Visibility* (Toronto: University of Toronto Press, 2006)

ولكن في كتاباتك با دومان نجد عمقاً آخر يختلف تمام الاختلاف عن «المكر البيوتوي» الذي أعتقد بأنه يفضح صحاحه الأحلام الرفمية ويحصرنى هـا كتابك عن الاشتراكية. البيوتوبيا النشطة، الذي قلت فيه إن اناس يصعدون إلى نلال متناية لتكتشف من قممها أراضي بكر، تحثهم «روح العلو النهمة دوماً» على استكشافها، ورواء كل بل بأملون بأن يجدوا هدوء النبهة وسكيتها، لكن كل م يجدونه هو سحر النبهة وحاذيتها وحال اليوم لا يختلف عن حاله قبل ألقى سنه خلت، «الأمل متى رأيناه لا يكون أملاً؛ فما يراه الإنسان لماذا يأمله بعد؟» (رسالة نولس إلى مؤمى روما ٨ - ٢٤) (١٢).

وأنتف معك تماماً حول فكرة «روح لعنو النهمة دوماً»، ولكى أتساءل أيضاً عن وجود أشياء مشتركة بين «البداية» و«النبهة» أكثر مما نتوقع، بمعنى أن السكينة الكامنة في الأصل قد تتحقق في المستق

ومهما كان الطريق الذي يفصى إليه هذا التفكير، فأنا أفترض أن الناملات الوبوسة ونقائصها مارالت نفسح محالاً للنقد الإندعى، سم في ذلك النقد الذى يهتم بالمعلومات والمراقبة. إن تحليل كيث تيسر لموقفك يا باومان يتوافق مع هذا الافتراض عندما يقول «إن نرعتك البيوتوبية «تدل على ممارسة الإمكانية التي تسعى سعياً نقدياً لإخراج العلم من التحجر الواقع بفعل الاعتراب والسلطة لمتوحشة» (١٣) إن المثير في كتاباتك هو أنك تيسر أن العالم لا يجب أن يكون كما هو عليه، وأن هناك بديلاً لم ينو في الوقت الراهن طيعياً جداً، وواضحاً جداً، وحنمياً جداً (١٤). وفي المتدى الاجتماعى العالمى في موساي قبيل نصح سوات، وجدت آفاقاً من الناس من بلدان مختلفة يؤمنون بالشعار الذي يقول «هناك عوالم أخرى ممكنة»

وفيم يتعنق بالمراقبة باسم لأمر، فإن ذلك لا يفسر لنا شيئاً في واقع الأمر؛ فالعمون، الإلكترونية النانة في الشارع، والجمع الشامل للمعلومات، وتدفق المعلومات الشخصية ذات الضغط العالى، كل ذلك يعد اسحابات

Zygmunt. Bauman, *Socialism. The Active Utopia* (London: Allen & Unwin, 1976), p. (١٢)
141

Keith Tester, *The Social Thought of Zygmunt Bauman* (London: Palgrave Macmillan, (١٣)
2004), p. 147

Keith Tester, *Conversations with Zygmunt Bauman* (Cambridge: Polity, 2000), p. 9 (١٤)

عقلانية لمحاطر سائدة. ونحن نلهم على سماع أصوات تقول لماذا؟ ولأجل ماذا؟ وهل تعلم العواقب الشرية لكل هذا؟ إني أنصب ناساً، على أمر بأد أسمع أحداً يقول: هل يمكن أن يكون هناك طرق أخرى لتصور مشكلات العالم وكيفية التعامل معها؟

زيجمونت باومان: إذا أذنت لي، أريد بشدة أن أخطر خطورة أخرى للأمم ولكنها في رأيي خطوة مهمة، س هي الخطوة الكبرى التي قد ندعنا إلى السبب الحمق المضطرب دوماً، والذي لا ينصب أدلاً، وراء قنقتنا، حيث لا تمثل الرغبة في مزيد من المراقبة سوى أحد المظاهر - وإن كان أحد أسوأ المظاهر وأكثرها إثارة للتفكير. إن مركز الرعة الشرية الفطرية الأصلية في العلو هو السعي وراء الراحة، وراء عالم لا قلق فيه ولا ملل ولا إرهاق، عالم واضح كل الوضوح، لا يحسن مفاجآت ولا أسراراً، لا يرهبا ولا يأخذنا أبداً على حين عرة، عالم لا مصادفة فيه، ولا «عواقب غير متوقعة». ولا نقلبات للقدور. ننت الراحة الكبرى للسل والحسد هي جوهر الفكرة السائدة البديهية عن «النظام»، وهي تتوارى في كل جهد لصنع النظام والحفاظ عليه، بداية من ربة المنزل (أو رب المنزل) المشغولة بوضع أدوات المرحاض في المرحاض وأدوات المطبخ في المطبخ، وأدوات عرفة النوم في عرفة النوم، وأدوات غرفة الصوف في غرفة الصوف، ووصولاً إلى الحراس - عمال الاستقبال وأفراد الأمن الذين يفصلون من لهم حق الدخول ممن كُتب عليهم العذاب في مكان آخر، ويصارعون من أجل حل قضية لا يتحرك شيء فيه إلا إذا جرى تحريكه. وأنا متيقن أنك لاحظت أن المكان الذي يقترب من رؤية نهاية القلق بشأن المصادفة هو المقدير - ذلك هو أكمل وأشمل تجسد لحدمس «النظام».

ولربما قال سيجموند فرويد إن القلق الذي نعبر عنه بتركيب مريد من الأفعال والكاميرات التلفزيونية على الأبواب والممرات إنما يهتدي بغريزة الموت! وتكمن المعارضة في أن القلق يتناوباً لأن في رغبتنا النهمة في الراحة، لا نشع أدلاً ما حييت، فنلك الرعة التي تثيرها غريزة الموت وتعربها لا يمكن إشاعها، لا بالموت. ولكن المعارضة هي أن هذه الرؤية «لنظام نهائي» على شاكلة المقدر هي ما يجعل منا «سائين لنظام» ونحن مدمون عليه، ومهورسون به، وهي ما تبث فينا الحياة، وتبعث فينا القلق السائم، وتدعنا إلى العنو اليوم فوق ما تمكنا من الوصول إليه بالأسر.

وهذا التعطش اندائم للنظام هو ما يجعلنا نشعر بأن كل واقع موضوعي يستدعي الإصلاح، وأما اعتقد أن المراقبة هي إحدى الصناعات المعدودة التي لا تحتاج أدناً إلى لخوف من نفاد السخار والتوقف عن العمل .

دقيق ليهون: بالطبع يمكننا أن ندفع بحوارنا نحو قضايا العلو، نحو بحث في حدود الرعة في راحة البال والجسد، بل وسحو الحدل بشأن صدور الشهوة النهمة للمراقبة عن عريرة الموت فهذه القضايا تتجاوز بنا المصحح الصناعي للأمن والسرافة وتعدنا في الوقت نفسه سفاتيح ممكنة تفسر ازدهار مشروع الأمن والمراقبة وأقول غيره من المشروعات.

وأنتف معك بأن رؤى «نظام نهائي» قد تبقى شبه خفية وراء الهوس المعاصر بالأمن، وبأن الرغبات في «الراحة» تربط ارتباطاً وثيقاً بالعجز عن الراحة، مع أسي أعرف بعدم يقيني باسم بأن مثل تلك الرؤى «تشكل مثل المقابر» (مع أن منزلاً يطل على حديقة كانت في أصلها مدام تنقسم بانتظام في عام ١٨١٦ إلى قطع مخصصة لكل من «الأسكتنديس والإيرلسديس والإنكليز» وفق رئاسة القداش على المقابر من الكنيسة المشيخية أو الكاثوليكية أو الإنجليكانية. كما كانت تلك الحديقة تحتوي على قطاع خاص للمساكين الذين بلغو من الفقر ما يحول بينهم وبين الدفن في القطاعات الأخرى، ولا شك أن السوسولوجيا التاريخية للمقابر تعيننا على فهم الأمور وإدراكها).

ولكن اسمح لي بأن أشير إلى قصة الأمن والسرافة في إطارها العربي؛ فمع أن أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر نفسها لم تفص إلى ذلك الهوس بالأمن، فإنها كثيراً ما أفضت إلى رواج الاهتمام بالأمن والمراقبة، وهذا الرواج أفضى إلى ازدهار ملحوظ في أرياح الصناعات ذات الصلة، كما نحج في إعادة إنتاج أنظمة مراقبة يومية مكثفة في المناطق الحضرية في جميع أنحاء شمال الكرة الأرضية، لا سيما في الولايات المتحدة. وهذا مثال فريد لفكرة «تقديس لتكنولوجيا الرقمية». فتصريحات وزارة الداخلية هي ترسيمات للعلو عبر التكنولوجيا^(١٥)، وهذا الإيمان الكبير يُوضع في كل تكنولوجيا حديثة بحيث قد بدو التشكك فيها وقدما كماً أو ندباً للمقدمات

David Noble, *The Religion of Technology: The Divinity of Man and the Spirit of* (١٥) *Invention* (New York: Penguin, 1997).

وربما لا بد للمرء من أن يعود إلى عصر النهضة ليحدد الحدود اقرية
للفكرة لقائلة بأن السلام والرخاء يمكن تحقيقهما عبر العلم والتكنولوجيا،
وهذا إيمان رسخته أفكار عصر التنوير^(١٦). وقد عصر النهضة في جانب منه
رد فعل واضحاً ضد الكنيسة لسلطوية في أوروبا في العصور الوسطى، وأما
فكرة السعى إلى تحقيق سيادة السلام والرخاء عبر اليه الابتكار فقد عكست
تحديداً الإيمان الراسخ الذي تجسد في مقولة الحكماء التي استشهدت أب
بها في كتاباتك: «إد أردت السلام، فعليك بالعدل»، وتقوى التوراة اليهودية
إن إقامة العدل وحب الجار هما الطريق إلى السلام (وبشارة التمام والكمال
لما بين الله والخلق)، والمفصل المسيحي لهذه الفكرة هو قول المسيح
«اطلوا أولاً ملكوت الرب وبره، وهذه كلها تُراد لكم...»

ولهذا، غاب أنظر إلى هذا الالتزام بكفاءة التفقيه والابتكار العلم
والتكنولوجيا في أيمن -لرأيه- لتحقيق السلام باعتباره بحثاً رائداً عن صمد
ممسع للأمن؛ فالاعتقاد بأن تكنولوجيا المراقبة الأضخم والأسرع والأكثر
اتصالاً في خدمة الأمن يمكنها أن تضمن السلام إنما هو اعتقاد خطاً بكل
وضوح ويعوق الخيارات الأخرى حتماً وقد علقّت على معدلات المراقبة
المساعدة من بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر قائلاً:

كان حاك يلدول يتأمل ذات مرة في مصير الممد القديمة مثل بابل
ونبوى في لعراق، ولأحظ أن هذه الثقافات كانت مغلقة، كانت محصنة من
الهجمات الخارجية، في أمن تمرره الأسوار والآلات؛ فهل من شيء جديد
تحت الشمس؟ ولكن حاك يلدول يقابل كل ذلك برؤية للمدية تصع في
المعملة إقامة العدل وحب الجار، فمن ذلك الالتزام بالمسؤولية تجاه الآخر
ينشئ السلام والرخاء. والحرية والأمن، وكلها عايت نحث عنها عبر
أولويات رتفة؛ فمدية لعدل وحب الجار لا تعنى أبوابها أنداء، إنها مدنة
الثقة والتكف، وبورها يطرد كل ما يفعل الآف في الظلام^(١٧)

وتع تعليقاتي تحيلُ مسجذات المراقبة في أعقاب أحداث الحادي
عشر من أيلول/سبتمبر، حيث سنت برعتها إلى تشديد الإقصاء (المكان
المحظور)، وتربية الخوف، وتغصية صع القرار مستار السرية

(١٦) David Lyon, *Surveillance after September 11*, (Cambridge Polity, 2003), chap. 6. (١٦)

(١٧) المصدر نفسه، ص ١٦٦

الفصل الخامس

النزعة الاستهلاكية والمواقع الإلكترونية والفرز الاجتماعي

ديفيد ليون إن إحدى الأفكار المحورية في كتاباتك يا باومان هي الكشف عن مركزية النزعة الاستهلاكية في إنتاج المروق الاجتماعية ومركزيتها للهويات. وقد كنت من المعجبين بكتابك عن العمل والنزعة الاستهلاكية والفقراء الجدد عندما صدر أول مرة عام ١٩٩٨. ولكن ثمة مفارقة هنا كما أراها، وهي أنه بينما ينطوي الاستهلاك على الإغراء الممتع للمستهلكين، فإن هذا الإغراء هو أيضاً نتيجة المراقبة لمنهجه العريضة. وإذا لم يكن ذلك واضحاً عبر الأشكال المختلفة من سويق قواعد البيانات، فإن استحداث مواقع لأمازون والميس بوك وجوجل يكشف هذا الوضع الراهن. بيد أن توماس ماتييس، في تصدير لكتاب حديث عن الإنترنت والمراقبة، يكشف المرفق الخفي قائلاً: «تحت السطح تقع محافل مدارس المراقبة المجهولة القائمة على استخدام الإنترنت... الأثر الشاسع للعلامات الإلكترونية التي نخفيها وراءنا ونحن نقضي حوائجنا اليومية - في المصارف والمحلات والمراكز التجارية، وفي كل مكان، وفي كل يوم من أيام السنة»^(١).

وبينما تنتقل من التفكير في أمور عاجلة تتعلق بالأس والمراقبة إلى موضوع الاستهلاك، قد يبدو أنه يمكننا أن نتنفس الصعداء بحرية أكثر، فهذا هو عالم المرح والتسكع والحرية. ولكن لا يبدو الأمر بهذه السهولة! فنحن هنا بصدد إدارة مفصلة عاملة تقوم على جمع المعلومات الشخصية على نطاق

Christian Fuchs, Kees Boersma, Anders Albrechtslund and Marisol Sandoval, eds., (١)
Internet and Surveillance (London: Routledge, 2011), p. x.x

واسع من أجل التسلسل والتصنيف والتعامل المختلف مع الفئات المحتممة للمستهلكين وفق ملفاتهم الشخصية. وتأمل يا دومان العمة التي يسمحها موقع الأمازون لكثيرين عبر تقنيات «المرز التعاوني الطوعي»، حيث يخبرنا الموقع بأنك تتي يشتريه غيرنا، وهي كتب مشابهة للكتب التي فكر في شرائها، وكل صفقة بيع يحققها الموقع تولد معلومات عن نفسها لتستخدم لاحقاً في إرشاد مستهلكين جدد في اختياراتهم. وهل نضع سنوات، جمعت بين أفكارك يا دومان عن التودد إلى المستهلكين وأفكار جاري ماركس عن تصنيفات الشرطة للمثمنة فيهم (الاشباه النصيفي) لتوليد مفهوم هجين سميت «الإعواء النصيفي»^(٢) وما زلت أعتقد بخودة المفهوم.

ولكن موقع الأمازون على الإنترنت يحرض على نية المستهلكين إلى الطريقة التي يُرأى بها، عبر خاصية «قائمة الرغبات»^(٣)، فليس الأمر عمليه حفة بالكامل! فهذه الحاصة ليست سرّاً، بل يمكن بالأساس أن تتسبب فيها كن من يربح في ذلك. كما أن قائمة الرغبات تذكرنا بالرغبة الشديدة لدى الناس بأن يلاحظهم غيرهم، فلا يحلو الأمر من شيق البصر لا عص البصر^(٤) وهكذا يلتقي البصباح بالمتسكع من خلال مواقع التواصل الاجتماعي^(٥). ولا يقتصر الأمر على ذلك، فقائمة الرغبات تعطي المستهلكين فرصة إدراك أنفسهم، وختيارهم الظهور العام من دون حجل ولا حرج، ويبدو أن موقع لأمازون يسجج في إدارة الربائن عبر علاقائهم المتوصلة، وأيضاً عبر تقديم فرصة المحاولة الواعية أو غير الواعية للتأثير في إدراك الآخرين للأمر، وذلك عبر تنظيم معلومات التفاعل الاجتماعي وإدارتها.

ولكن موقع الأمازون، في نهاية المطاف، يحصل على المعلومات التي

(٢) David Lyon, *Surveillance Studies: An Overview* (Cambridge: Polity, 2007), p. 185

(٣) Sachin Singh and David Lyon. 'Surveilling Consumers: The Social Consequences of

Data Processing on Amazon.Com, in Russel. W. Belk and Rosa Lamas, eds., *The Routledge Companion to Digital Consumption* (London: Routledge, 2012)

David Lyon, "9 11, Synopticon, and Scopophilia. Watching and Being Watched," in: (٤)

Kevin D. Haggerty and Richard V. Ericson, eds. *The New Politics of Surveillance and Visibility* (Toronto: University of Toronto Press, 2006), pp. 35-54

Dana Boyd, "Dear Voyeur, Meet Flaneur, Sincerely, Social Media," *Surveillance and Society* vo. 8, no 4 (2011), pp. 505-507

يحتاجها، ويترك رائته يسكنون في سعادة في «فقاعة العز»^(٦) ومن المعلوم جيداً أن أساساً مختلفين سحشون في موقع جوجل بالكلمة نفسها ويحصلون على نتائج مختلفة، وهذا يعود إلى أن موقع جوجل يقرر نتائج البحث وفق استفساراتك السابقة. وبالمثل، فإن من يتمتعون بعدد كبير من الأصدقاء على الميس بوك لن تصلهم إلا حديثات لأصدقاء الدين يعتقد لقيس بوك أنهم يريدون معرفة أخبارهم، على أساس معدلات الفاعل القائم بينهم وموقع الأمازون يناسب مع هذا النموذج تماماً، ولكن الهاجس الموازي لوجيه هو أن «عمليات الفرز تحذف دعابة ذاتية تلقائية، وتعرض فينا أفكارنا، وتضخم رعبنا في الأشياء المألوفة، ونجعلنا لا نعبأ بالأخطار التي تحوم في الأرض المظلمة المسكونة بالمجهول».

ولكن الحللية العريضة هي أن المرافحة الاستهلاكية، لا سيما عبر استخدامات الإنترنت، لا تقتصر على كسب لمستهلكين القاعيين ووعدهم بمزيد من المكافآت، بل تشمل إقصاء من لا يمثلون للتوقعات الاستهلاكية وقد ذكرت من قبل كتابات أوسكار غاندي حول هذا الموضوع، حيث يبين أن «النسب العقلاني» الذي تحرره الشركات، في مجالات عدة، له آثار سلبية في بعض أساس يقول أوسكار غاندي:

«إن التمييز الإحصائي في التحليلات المعقدة يسهم في الضرر التراكمي الذي يزيد الحب والانعصال والإقصاء، ويوسع العجوة بين أهل القمة وأهل القاع. ومع أن المراقبين توجهوا وجهة التركيز على استخدام هذه الأنظمة لدعم الإعلانات عبر الإنترنت، فإن المطاق الذي تصل إليه هذه الأنظمة هو أوسع من ذلك بكثير، لأنه يعطي نطاقاً واسعاً من اصصائح والخدمات، بما في ذلك أسواق لمال والإسكان، والرعاية الصحية، والتعليم، والخدمات الاجتماعية»^(٧)

وهذه جميعها أفكار محورية تبين فكرة «المراقبة السائلة»، في ثوبها الاستهلاكي، وأنا متيقن أنك تريد أن تعلق على أكثر من أمر فيها! ولكن هل

E. Pariser, *The Filter Bubble: What the Internet Is Hiding from You* (New York: Penguin, 2011).

Oscar Gandy, "Consumer Protection in Cyberspace," *Triple C*, vol. 9, no. 2 (2011), pp. 75-189.

يمكسأ أن نبدأ باستفسار من كتاباتك؟ إنني أعتقد بأن اهتمامك بالآثار الإقصائية للمراقبة - التي أنغر معك بشأنها - تقودك أحياناً إلى حثزال الأمر في الطرق التي تمارس بها آليات المراقبة السائلة صغطاً على المستهلكين كاه. فالعهم الصحيح للآليات التي تبسر ذلك هو أمر مهم، إذا كان المرء يؤمن بأن التحليل الاجتماعي ينبغي أن يكون له اهتمامات من يتعرضون للتهيش والإقصاء، ولكن سلطة المراقبة نفسها تنتج سلوكيات متنوعة تؤثر في جماعات محتلفة بأشكال محتلفة، فهل هذا يعني بالضرورة أنه يتطسع الأعباء، في هذه الحالة عمر الإغواء الصصفي، نصبح الأقلية عُرضة للضرر التراكمي؟

زيجمونت باومان قبل بضعة قرون، كانت الطفرة الكبرى (أو القفرة الكبرى كما سجلها تاريخ فن التسويق) في تقدم المجتمع الاستهلاكي تتمثل في الانتقال من إشباع الحاجات (من الإنتاج المستهدف للطلب القائم) إلى استحداث الحاجات (الطلب المستهدف للإنتاج القائم) - عمر حذب الرغبة المشعلة وإعوائها وتعريضها وذلك لنحول الاستراتيجي حقق تقدماً كبيراً في النتائج، ولكن صاحبه ارتفاع ملحوظ في كلفة «خلق الطذب» (كلفة توليد الرغبة في النسل وفي الامتلاك، وفي إدامة هذه الرغبة)، وبالطبع كان ذلك يستدعي دوماً إنفاقاً عالياً، فالتكاليف لا يمكن حفظها بالأساس، وكل منتج حديد يُلقي به في السوق يتطلب خلق الرغبة من العدم، فالرعبات هي دوماً موحهة ومميرة، ومن ثم فهي غير قابلة للنقل ولا التحويل.

إسا الآن بصدد المرحلة الثالثة من الجذب الهيجلي (الموضوع، ونقيض الموضوع، والتركيب). فعلى صوء النزعة المترسخة بوجه عام إلى البحث عن الإشباع في السلع المعروضة والاستعداد اعوام لتوحيد «الحديد» مما هو «معد» وقرئهما - علاوة على تقدم تكنولوجيا الاحتفاظ بالسجلات مما يسمح بتحديد موضع ذلك الاستعداد عندما يكتمل بضحه ليستجيب على الفور للإثارة - يمكن تحقيق تحول جوهري آخر نحو توجيه العروض لأشخاص أو فئات مستعدة للإقبال على العروض بحماسة. ومن ثم فإن المرء الأكثر كلفة لاستراتيجية التسويق السابقة - توليد الرغبات - يُشطب من ممرانية التسويق، ويُنقل إلى كهل الربائن المحتملين. وكما هو الحال في المراقبة، يقترب تسويق المضائع من عبارة «افعها نفسك»، ويصح الاستعداد

الحاصل أكثر طواعية . فمتى أَدْخُلُ موقع أمازون، أجد سلسلة من عاوير الكتب «المتقاة خصيصاً لي»، فعلى ضوء سجل مشترياتي السابقه من الكتب، شير الاحتمالية العالية إلى أنني سأحضع للإغواء... وهذا ما يحدث عدة! بفضل تعاوبي الطرعي، بل وغير المقصود، فإن أمازون يعرف الآن تعصباتي أو هواياتي أكثر مما أعرفها، فلم أعد أنظر إلى اقتراحات موقع الأمازون باعتبارها إعلانات تجارية، بل أعتبرها مساعدة ودودة في تيسير تقديمي عبر غابة سوق الكتب، وأدين له بالشكر والعرفان، ومع كل صفقة جديدة، أدفع الثمن حتى أحدثُ تفصيلاً في قاعدة بيانات أمازون، وأوجه صفقتي المستقبلية توجيهاً خائياً من الخطأ...

إن استهداف مواضع لسوق الجاهزة للاستعمال هو طريقة لا تستدعي استثماراً مبدئياً للوسائل، ولكنها تعُدُّ بنتائج فورية، وهو محال ملائم جداً لاستخدام تكنولوجيا المراقبة - كما لو كن على مقاسها - فعلى هذه الحجة الأمامية، سجلت تكنولوجيا المراقبة أسرع تقدم وأروعه، وهناك توقع بمزيد من التقدم الأسرع والأروع في القريب العاجل. ومثال موقع أمازون الذي تناوله ببراءة هو أمر مذهل غير مسروق، وينفتح على المرحلة الأخيرة من العدل الهيكل في تطبيقه في تاريخ التسويق. وقد سارت شركات أخرى على خطى موقع أمازون، ومازالت شركات كثيرة أخرى تنتظر دورها في الانضمام وهكذا يجري صقل أدوات المراقبة التسويقية وتعديلها في أثناء انتشارها. ففي التسويق الذي يُمارس على الميس بوك، على سبيل المثال، يُراعى عدم ذكر إشارات سيئة إلى الميوس الشخصية للزبائن، بل يتم ذكر الإشارات الائقة اجتماعياً، وغير المسيئة لأهل الحرمات الشخصية - إشارات إلى الاستحسانات والأوليات والمكسبات المفصلة للأصدقاء واقع الأمر أن ثمة تقييد مقصود وحرىء على شاكلة البانوبيتيكون يتخفى في صورة ملهى الإغواء الكريم المصناف الاجتماعي الصدوق الذي يعمل تحت راية التصاميم...

وهذا الاستهداف، بالطبع، لا ينطبق إلا على المستهلكين الأثرياء، ذلك لأن تطبيقه على المستهلكين أصحاب العيوب المساكين، على المشتبه فيهم ممن صممت أجهزة مراقبة الأماكن المحظورة من أجل تحديدهم وإظهارهم وطردهم، سيكون إهداراً للموارد وفي محال المراقبة

الاستهلاكية، يجري تشغيل التطبيقات القهرية والإعوائية ما أن تتم عمليات تطهير المكان، التي تتولاها أجهزة مراقبة المواقع المسحورة.

ديفيد ليون: نعم، هذا ما يحدث حقاً، وهذا سبب آخر يدفعني إلى الاعتقاد بأن نظريتنا عن «الحدث السائلة» تناسب تماماً دراسة المراقبة فحيث تسود النزعة الاستهلاكية فمما يمكن أن نصف «موقع لتواصل الاجتماعي» بأنها اجتماعية^(أ).

وأنت تقول بأنه يمكن قراءتها باعتبارها شكلاً من أشكال ملهى الإغواء تحب راية الضامن المغربي، فالمستهلكون في عصر الحدث السائلة تدفعهم الأجهزة الإلكترونية إلى الاعتماد على أنفسهم كأفراد باحثين عن اللذة. واقع الأمر أنني سمعت ذات مرة طالباً جامعياً يشكو (في مقص غريب للخطاب السائد) «أن لدينا الحق في الاستمتاع». إننا نجد فقاعات الفرر التي تقدمها مواقع التواصل الاجتماعي، وبضخمتها عندما ننغم تفضيلاتنا وميولنا مع كل صغطة إلكترونية، وهذه الفقاعات تعيد ببساطة إنتاج ذلك «الانطواء»، ونكمن المعارضة في أن هذا «الانطواء» هو أحد أشكال الانسحاب، وهو الرغبة في الظهور لعام.

وهذا يرتبط، في طي، بعملية طويلة في الثقافات الغربية، حيث يتدمج شَبَقُ البصر - لا غش البصر - مع لانتشار المتزايد لممارسات المراقبة، مع آثار مثيرة عدة، ويتعلق أحدها بانتعاش الطوعي الظاهر للمستهلكين في المراقبة. وكما قلنا من قبل عند الحديث عن موقع الأمازون، يمكننا أن نفهم تماماً، من الداخل كما يبدو، جاذبية هذه العملية. ولكن هذه الظاهرة، التي يمكن أيضاً قراءتها برؤية نقديه أفضل باعتبارها إهمالاً في المعلومات

(أ) ربما هناك استثناءات، فيما يتعلق بسياق المراقبة. وربما يمكن النظر إلى وسائل التواصل الاجتماعي في علاقتها بمكة «سرب السجرات» أو «لحشد السمع» التي استخدمها ميشال هاردت (Michael Hardt) وأطوبيو نجرى (Antonio Negri) في كتاب:

Multitude: War and Democracy in the Age of Empire (New York: Penguin, 2004)

كما استخدمها بارمان في كتاب له بعنوان

Consuming Life (Cambridge: Polity, 2007)

ويبدو أن مواقع التواصل الاجتماعي في أثناء ما يسمى بالربيع العربي تتردد فيها أصدااء فكرة «الاحتشاد المدفع» أو «الانتشار مع الأسراب».

الشخصية، قد تغوينا بمزيد من ارضا عن رحلات شحنياتنا الرقمية. فبدلاً من السؤال عن سبب حصول الموظف المسؤول على رقم الهاتف، وخصة القيادة والرقم الريدي أو الجدول مع طلب الآلة لمريد من ابيانات قل إتمام الصفقة، فإننا نفترض أنه لا بد من وجود سبب وحدوى. على سبيل المثال، عندما يتعلق الأمر بالاستخدام الشائع «الطقات الولاء» (Loyalty Cards) من سلاسل المحال التجارية وشركات الصيران وأمثالها، تشير دراسة دولية حديثة إلى أن الناس لا يعرفون شيئاً عن الصلات بين استخدام بطاقات الولاء وإنشاء الملفات الشخصية، أو لا يهتمون بمعرفة ذلك^(٩).

ولكن، فيما عدا ذلك، نجد أن فقاات الفرز تسهل أيضاً الجهل بأحريين يتم استبعادهم من خلال عمسة الفرر نفسها؛ فإذا كان الناس لا يعرفون، ولا يهتمون بإنشاء الملفات الشخصية بمسهلكين على الإنترنت، فليس من الصعب أن نستشف أنهم قد يكونون أهل معرفة بالمكان الاستهلاكي المحطور، الذي يستعد المستهلكين المعيين المساكين من التسويق. ناهيك عن المواقع المحظورة الأخرى في الفضاءات الحصرية، مثل المواقع التي تمنع سكانا بعينهم من التمتع بخدمات أساسية وفق بياناتهم الشخصية، أو تلك التي ترفع من قيمة بعض أحياء المدينة بينف تُشيطل أحياء أخرى - وهذا يعيد مرة أخرى إلى موضوع تطرفنا إليه من قل في حوارنا. فقد بن ستيفن حراهام أب بعض المدن الأمريكية، كما في غيرها في أفغانستان وفي بلدن أخرى، صارت «ساحات حرب»، وأهدافاً تسويقية، وفق البيانات الشخصية لسكان^(١٠) وهنا يعمل المؤسسة العسكرية والسوق معاً في «المجمع الصناعي العسكري للإعلام والرفية»^(١١).

وهكذا يبدو أن العوالم المتمركزة حول المراقبة الاستهلاكية تتمتع بصلات مذهلة بالوجوه الأكثر ألفة للمراقبة، إنها تقوم على ائبايد لمتبادل

Jason Pridmore, "Loyalty cards in the United States and Canada," in: Elia Zureik et al. (٩) eds, *Surveillance, Privacy and the Globalization of Personal Information* (Montreal: McGillQueen's University Press, 2010), p. 299

Stephen Graham, 'Cities and the "War on Terror",' *International Journal of Urban and Regional Research* vol. 30, no. 2 (2006), p. 271

James Der Derian, *Virtuous War: Mapping the Military Industrial-Media Entertainment* (١١) Complex (Boulder: Westview, 2001)

زيجمونت ياولمان: واقع الأمر أن التكنولوجيا قاملة للنقل والتحويل - والنقل الشديد في هذه الحالة، كما في حالات أخرى كثيرة. ولم يكن من السهل، في طني، تحديد القطاع الذي يلعب الدور الريادي في هذا المجمع الصناعي الجديد المتنامي حتى وقت قريب نسبياً - في أثناء الحرب الباردة وهي المغامرات العسكرية اللاحقة للإمبراطورية العالمية الطامحة العاشنة - وهو الرأي الأكثر شيوعاً بين صفوة القادة العسكريين. ولكن يبدو أن المركزية المتواصلة للأمن العام في السياسات المعلنة للدولة تعززها الآن اهتمامات الدولة بالشرعية أكثر من «حقائق الواقع» - تلك الحقائق التي تغل مركز الجاذبية إلى لقطاع المجاري للمجمع الصناعي الحديد (بما في ذلك ترفيه وسائل الإعلام).

وأنت تعلم حقاً عن الوضع الراهن للأمور في هذا المجال أكثر مما أعلم، ولكنني أظن أن أقسام البحث والتطوير في الشركات التجارية الكبرى تتسلم قيادة التطوير الراهن لامتراتيجيات المراقبة وأدواتها من المعامل العسكرية السرية الثامنة. وليس عندي حصاءات - وأنا أعتمد ها عليك باعتبارك في وضع أفضل، فقد درست الموضوع بعمق أكثر مني، ولكنني أظن أن الأموال الضخمة ليست هي وحدها التي تتغل إلى تلك الأقسام في هذه الأيام، ولكن أيضاً في أوقات الكساد الاقتصادي تنتمي تلك الأقسام إلى المناطق المعهودة التي مازالت «مستشاة من ترشيد الإنفاق»، وهي محصنة من ترشيد الإنفاق في رأس مال المخاطرة المستور وغير المتوازن.

وأما فيما يتعلق بالتعاون الطوعي للمراقبين في منظومة المراقبة القائمة على إنشاء الملفات الشخصية، ذلك التعاون الصامت أو الصريح، المقصود أو غير المقصود، فأنا لا أرجعه (أو على الأقل بالأساس) إلى «شئ الصبر». فقد عرّف هيجل الحرية بأنها ضرورة بحري تعلمها وإدراكها .. والرغبة في الظهور هي مثال واضح، بل وربما أوضح الأمثلة، على تلك القاعدة الهيجلية في زماننا الذي يشهد نسخة معلة ومحدثه من الكوجيتو الديكرتي: «أنا أظهر للجميع (وأخطى بنسجيل ومشهدة ومتابعة منهم)، إذأ فأنا موجود».

ولقد أهدي الإنترنت الناس العاديين فرصة كانت تتطلب في الماضي مغامرات تقوم بها فئة معدودة من فناني الجرافيتي المبرزين، إنها فرصة إظهار الخفي، وإحضار المهمل والمتجاهل والمهجور، والإثبات الملموس للقاطع للوجود - في - العالم. أو إذا استحضرننا التشخيص الذي قام به قبل عشرات السنين ديك هيبيديج بمركز بيرمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة، ربما نقول إن الإنترنت جاء ليخرج الناس من ظلمات الاختفاء والنسيان إلى نور الظهور العام واكتساب موطن قدم في عالم غريب غير مضياف. . . وهكذا، فإن اكتساب الوجود - في - العالم بمساعدة الفيس بوك هو أيسر من رسم الجرافيتي، فهو لا يستدعي مهارات صعبة الاكتساب، كما أنه يخلو من المخاطر السياسية (بعيداً عن الشرطة التي تحصى على الناس أنفاسها)، وهو قانوني، ويحظى باعتراف واحترام وتقدير على نطاق واسع. والدافع دوماً هو الظهور العام؛ وهو خدمة تتحسن وتنمو وتزداد سهولة في الاستخدام. . . فهل يتحول الاستسلام للضرورة إلى متعة؟

إن الدافع الذي نحن بصدده ما زال كبيراً، إن لم يكن أكثر من ذلك، كما كنا هي عصره قبل الإنترنت، وهو يصدر عن الإحساس الكبير بالإهمال والإغفل والإخفاء في سوق الصور الراقية لمعركة، إنه يولد مشاعر تتأرجح بين الغضب المشلول واليأس الباقم. وأعتقد أن هذا الدافع وتلك المشاعر هي التي تحمل أغلب المسؤولية عن اسجاح الكبير المدهل لإنشاء الملفات الشخصية على طريقة «افعلها نفسك».

الفصل السادس

المراقبة من منظور أخلاقي

ديفيد ليون إن كل فكرة محورية في حوارنا تولد أسئلة كثيرة، وهي لا تقتصر على التحليل المناسب للمراقبة - هل هي مراقبة سائدة؟ وماذا تعني سيولتها؟ - بل تشمل التحديات الأخلاقية المصاحبة لذلك التحليل أو المتضمنة فيها والمكونة له. إن حاري ماركس هو أحد أبرز الأكاديميين الذين كشفوا عن الأعمال للأخلاقية وغير القانونية للمراقبة ابراهنة، وهو الذي أكد عام ١٩٩٨ أن المراقبة الجديدة بحاجة إلى أخلاقيات^(١)، ولأن كتابات جاري ماركس آنذاك من الكتابات «الأخلاقية» الممسودة في هذا المجال، معادة ما يتم الاستشهاد بها، وفيها يحاول أن يشق طريقه في هذا المجال، وهو يرى أن التغير التكنولوجي يحدث بسرعة كبيرة، وأن له آثاراً عميقة في مجال المراقبة حتى إن الأشكال القديمة للتنظيم باتت في أشد الحاجة إلى التحديث.

إن كتابات جاري ماركس هي دليل إرشادي في التدخل القانوني والتنظيمي في علاقته بالمراقبة، وهو يمنح أولوية لكرامة الأشخاص، ويؤكد احتساب الأضرار، سواء أكان للناس على وعي أم لا بكونهم تحت المراقبة، وما إلى ذلك من المبادئ العريضة التي يمكن ترجمتها إلى قواعد. وكما أقول، كانت كتاباته فرقة في تطوير المجال، فكان أحد أوائل الباحثين الذين أكدوا أن «الاشتباه التصفيقي» لا بد من أخذه في الاعتبار إلى جانب الأشكال الأكثر فردية وتقليدية عندما يحري توظيف الرمجيات والإحصاءات في خدمة الشرطة^(٢).

Gary T. Marx, 'An Ethics For The New Surveillance,' *Information Society*, vol. 14, no (١) 3 (1998).

Gary T. Marx, *Undercover Police Surveillance in America* (Berkeley: University of California Press, 1988), chap. 8.

ومع أن المبادئ الأخلاقية عند حاري ماركس هي مبادئ عريضة، فإنها تتميز بأنها تحاطب مواقف محددة، نوعية صوغ ممارسات بديلة. ولكي أشعر بأن ثمة قضايا أخلاقية نحتاج إلى مواجهتها على مستوى آخر تماماً. ولا أريد هنا أن أتجه للمناقشة إلى مجال منفصل عن «الأضرار» المرتبطة بالتقنيات الحديثة للمراقبة - التي ناقشها بأسفاضة في حورن - ويبدو لي أن بعض القضايا الأخلاقية الأساسية تواجه في أثناء تطوير المراقبة التكنولوجية حياتنا اليومية.

فهل لنا أن نعود خطوة إلى الوراء؟ فمن الواضح أن عدم التواصل والتحكم في الآلات (مدد لخمسنيات من القرن العشرين) قد وجد مأواه في «العالم الافتراضي» ورفقته القريبة، المراقبة. وهنا يحصرني حلقات التحكم بالغذاء الاسرجعية التي كانت محل اهتمام لنوطفها في أغراض التصنيع، والتي انتقلت إلى الإدارة العامة قبل تعميمها باعتبارها الاستراتيجية الأساسية للمدرسة التنظيمية في القرن الحادي والعشرين. فلا عجب أن يرى حيل دولوز وديفيد جارلاند المراقبة الصاعدة في إطار «مجموعات التحكم» و«ثقافات التحكم»^(٣) ومع أن التحكم اليوم يتسم بالميوعة، على العكس من العمل في الفضاءات الثابتة للناوبينكون وحطائره المسيجة، فإن لفكرة القديمة التي عشقها جيرمي بنثام مارالت قائمة وواضحة (وقد يجعلها أهل الجراحة واضحة إلى درجة الإلشاء والفضح).

والأمر المهم هنا هو الطريقة التي فقدت بها المعلومات حسنها^(٤) فعلم التواصل والتحكم في الآلات الذي بزغ في الخمسينيات من القرن العشرين لم يكن مقطوع الصلة بالتعريف الناشئ للمعلومات، ذلك التعريف الذي كان يتصور المعلومات باعتباره شيئاً قابلاً للقياس الكمي والتسليع. وفي سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، انهمك مُطَوِّرو التواصل في سلسلة عبر أطلسية من لقاءات «اللقمة» من أجل مناقشة الطريقة التي يمكن بها تصور المعلومات في هذا المجال المتطور. هاتما المشاركون البريطاني في تلك

Gilles Deleuze, "Postscript on the Societies of Control," *October*, vol. 59 (Winter 1992). (٣)

David Garland. *The Culture of Control* (Chicago: University of Chicago Press, 2001)

N Katherine Hayles. *How We Became Posthuman: Virtual Bodies in Cybernetics*, (٤) *Literature and Mathematics* (Chicago: University of Chicago Press, 1998) chap. 3.

الاجتماعات المشؤومة، والمتخصص في العلوم العنسية، في جامعة كبل، دونالد ماكي، فكان يرى أن المعلومات لا بد أن يكون لها علاقة واضحة بالمعنى، ولكن لم يُصح إليه أحد. وأمّا ممثل المدرسة الأمريكية - كلود شانون - فهو الذي حقق الفجر والانتصار الكامل على غريمه، وكان نتيجة ذلك أن المعلومات صارت تستخدم إلى حد كبير في نظرية التواصل باعتبارها كائنًا منفصلاً تماماً عن أصولها الإنسانية التي لها معنى.

فلترتبط ذلك بواقع المراقبة في لوفت الراهن، فالأجساد ننحول إلى «صحيح معلوماتية»، وتُختزل إلى مجرد بيانات، وربما يتصح ذلك على أكمل وجه في استخدام البصمات والإحصاءات الحيوية على الحدود. ولكن في هذه الحالة السادحية (Paradigmatic)، تتمثل الغاية في التحقق من هوية حسد الشخص حتى يمكن السماح له بعبور الحدود (أو عدم السماح له بعبورها)، فالمعلومات الخاصة بالجسد تُعامل كما لو أنها حاسمة في تحديد هوية الشخص. وإذا كان الأمر كذلك، فتمتد قلق بشأن كفاية بصمات الأصابع أو قرحة العين (Ins Scan)، وتجاهل «وحدة الجسد وسلامته»^(٥) وهذا أمر يكشف الطريقة التي تؤثر بها المعلومات المنعصلة عن الجسد تأثيراً خطيراً في فرص الحياة لدى مهاجرين وطالبي لجوء من لحم ودم، ومن هم على شاكلتهم^(٦).

واعتقد بأن هذا الأمر يشير إلى نحول جديد لما نسميه «تحديد الأخلاق وفصلها عن الفعل» عبر وسائل تقنية؛ فالتوسط الإلكتروني يزيد من المسافة بين الماعل ونتيجة الفعل إلى حد غير مسبوق في البيروقراطية قبل الرقمية، ولكنه يقوم أيضاً على فكرة باهتة يصعب تمييزها أو إدراكها، إنها فكرة «المعلومات» المنتزعة بحرية من الشخص. فإن تحديد الأخلاق وفصلها عن الفعل هو أمر جوهري، ويمكننا أن بني نقاشنا هنا على هذه النقطة. ولكن قبل أن نعمل ذلك، أريد أن نطرق إلى القضية من الطرف الآخر، إذا جاز التعبير، من منظور أخلاقيات الرعاية، فهل لنا أن نستكشف فكرة المراقبة في علاقتها بتحديد الأخلاق وفصلها عن الفعل؟

(٥) Irma van der Ploeg, *The Machine-Readable Body* (Maastricht: Shaker, 2005), p. 94.

David Lyon, *Identifying Citizens. ID Cards as Surveillance* (Cambridge: Polity, 2009), (٦)

pp 124-25

زيجمونت باومان: لقد وصفت يدك على لب الموضوع مرة أخرى يا ديميد، لقد صدقَ حَدُثُك فيما يتعلق بقاط تماس المراقبة والأخلاق التي تتجاوز النطاق التي ذكرها جاري ماركس. بدايةً، لم يكن ليخطر بالخيال أن الإعراء والإعواء مفتاحان لكفاءة البانوبتيكون في توبيد السوك المرعوب، فلم تكن في أيامه «حررة» في صندوق أدوات البانوبتيكون، بل كانت «العصا» وحدها هي التي في الصندوق. فالمراقبة اسانوبتيكية تفترض أن طريق الاستسلام لأحد العروض إما يتحقق عبر أحد من الاختيار، وأما المراقبة الاستهلاكية في عصرنا فتفترض أن استغلال لاخبر (عبر الإعراء لا الإكراه) هو الطريقة المثلى للتخلص من السلع المعروضة، وهذا يعني أن تعاون ضحايا الاستغلال هو المورد المهم الذي توظفه ملاهي الإعراء والإعواء في الأسواق الاستهلاكية.

ولكن كانت تلك ملاحظة هامشية، وربما تكون عكس ذلك إذا أردنا أن نسهل الطريق لاهتمامك الحثي الرئيس. إن تفكيك الكليات وتقطيعها وسحقها وتحريكها إلى كتل من السبات التي يمكن إعادة تركيبها (وإعادة ترتيبها وتركيبها في كُلية مختلفة) ليس أحد ابتكارات الشرطة ولا مراقبة الحدود، ولا هو خصوصية للسلطات الشمولية ولا الأنظمة السياسية المهيمنة بالسلطة بوجه عام. فإذا ما نظرنا إلى هذا الأمر نظرة استرخاع وتأمل، فإنه يبدو سمه عامه للطريقة الحديثة في الحياة (طريقة معروفة بهوسها بالتمييز بين الأشياء، وتصنيفها، وهرزها)، والآل يحري إعادة توظيفها على نطاق واسع من أجل استراتيجية متغيرة جذرياً في مسار الانتقال إلى المجتمع الاستهلاكي الحديث اسائل، وإعادة شرفه الآن من أجل إدراج «الاختيار الحر» في استراتيجية التسويق، أو لكن أكثر دقة، لجعل الاستعداد استعباداً طوعاً، ولجعل الخضوع خضوعاً يعيشه صاحب الاختيار كما لو كان تقدماً في الحرية ودليلاً على استقلاله (وهذا ما أسميه «صنمية الذاتية» subjectivity (fetishism)^(٧) وأحد الأمثلة المتطرفة، وربما الصارخة إلى حد الاستمزاز الشديد، وإن كان مثلاً فريداً، هو اعتياد وكالات الوساطة في العلاقات بين الجنسين على ترتيب موضوعات الرغبة وفق التفضيلات التي يحددها الزبائن

- مثل لون البشرة أو الشعر، والطول، وحجم الصدر، والهوايات، وفضاء أوقات الفراغ، .. إلخ والافتراض الضمني هنا هو أن زبائن تلك ابوكالات، في بحثهم عن رجل أو امرأة، يحتاجون إلى تركيب داك الرجل أو تلك المرأة بانتقاء السمات المعروضة. وفي أثناء «التفكيك» من أجل التركيب»، يغيب كيان عن أنظارنا وأدهاسا، بل ويضيع منا، إنه الإنسان، الذات المستقلة وموضوع مسؤوليتنا. ولك الحق أن تقلق هنا يا ديفيد، فعندما يتم التعامل مع إنسان آخر كما يتم التعامل مع السلع المتتقاة وفق لونها وحجمها وما إلى ذلك، فمن تحييد لأخلاق وفصلها عن الفعل يكون في كامل نشاطه ويبلغ تأثيره التدميري مذه. فتركيبه من السمات، سواء أكانت حية أم غير حية، يصعب أن تكون موضوع أخلاقياً تحصح معملته لحكم أخلاقي، وذلك يسري على وكالات الوساطة في العلاقات بين الحسنيين بالقر نفسه الذي يسري به على هيئات الشرطة، حتى وإن كانت أهدافهم الظاهرة مختلفة تماماً ومهما يكن بهذا التدريب من وطبة ظاهرية، فإن الوظيفة الكامنة غير المنفصلة هي إقصاء موضوع التفكيك/إعادة التركيب من فئة الموضوعات المهمة أخلاقياً ومن عالم الالتزامات الأخلاقية، وهذا يعني تعطيل الأخلاق عند التعامل مع الإنسان.

ديفيد ليون: نعم، ولكن بمعارقة هي أن المراقبة - بمعنى أن إنساناً ما يراقب حركاتك وسكانك - قد تحظى بتقدير واهتمام شديد في تقليات الحياة الحديثة السائلة وتغيراتها. وغالباً ما يكون هذا «الإنسان» «شيثاً ما»، ويجمع ذاك الشيء معلومات منقصنة عن لجسد عبر عملية قرر باستخدام الرمحيات والأساليب الإحصائية. وهذا نتاج الفصل المزدوج للأخلاق عن الفعل، فتُلغى المسؤولية من عملية التصنيف، بل إن مفهوم «المعلومات» نفسه يحتزب إسمية موضوع التصنيف، سواء أكان الهدف هو الجمع بين الحسنيين، أو القتل.

إن عمليات المرز لتعاوني الطوعي، بل ونموذج قاعدة البيانات المترابطة، تتجه في بعض الأحيان وجهة إنكار العلاقة الارتباطية بين الشر أو إلى حبسها وإخفائها. فإذ كانت الإنسانية، كما يقول إيمانويل ليبناس، غير قابلة للاكتشاف إلا في وجه الآخر، وفي إدراك مسؤوليتنا نحو الآخر، فإن أنظمه المراقبة تنطوي على شيء مزعج بلغايه يمزق تلك العلاقة

الارتباطية بين لشر، بل وربما يقضي عليها تدريجياً. ولكن ألم يكن علينا أن نتوقع مثل هذا ما دامت إحدى النقاط العارفة باتجاه المراقبة الحديثة هي نموذج التصميم المعماري المحيظ المعروف باسم «البابونيكون»؟

لقد كان جيرمي بشام مُصلحاً عثمانياً، وظهرت آراؤه في عصر كان يناقش الحل في المؤسسات العقابية، وكان يشارك في هذا النقاش أصوات مسيحية عدة (ومدافعون عن نقل المجرمين إلى مستعمرات عقابية في الطرف البعيد من العالم). وكنت أتساءل دوماً إذا ما كان جيرمي بشام واعياً بهذا، وإذا ما كان يحاول أيضاً أن يمسح نقد خطته بالاستشهاد بالمزموور المئة والتاسع والثلاثين من الكتاب المقدس الذي يتحدث كله عن الله الصير الذي لا يحمي عبده شيء. ولكن فهم بشام لهذا الأمر يقصر على سلطة المراقبة والسيطرة التي يملكها إله لا تتركه الأبصار، ولا تستوعبه الأفهام، ويرجو عباده رحمة ويخشون عذابه، فكانت رؤية جيرمي بشام هي الرؤية العفلانية المحدودة لعصر التنوير.

ولكن قراءة أكثر اعتدالاً لهذا المزموور تكشف شيئاً آخر عن فكرة الله الصير. إنها علاقة ارتباطية تهدي الإنسان وتحميه: «هناك أيضاً يذكّك تهديني ويُعناك تمسكي» (لمزموور المئة والتاسع والثلاثون: ١٠). فلا شئ أد هناك توحياً أخلاقياً هنا، ولكن التشبيه السياقي هنا هو عين لرعايه التي تشبه عنية الصديق والأب. وأرى أن هذه القراءة يتمخض عنها أخلاقيات الرعاية النفسية، وليس ذلك بالضرورة أو بالأساس للبحث عن ممارسات مراقبة بديلة بقدر ما هو الفحص الدقيق لممارسات الكشف عن آثارها الحفيفية وفصحها. وذلك هو ما يصعبه لوفا إيترون عندما يؤكد أن أثر المسافة التي تحدثها الشاشة يمكن أن يزعج وجه الآخر باستبعاد سمات الإنسانية كافة^(٨). وأنا أشتشر كثيراً بأخلاقيات الشفافية.

زيجمونت بلومان: لستُ متيقناً من أن رؤية جيرمي بشام لعصر التنوير كانت محدودة كما تقول، فقد كانت متناغمة تماماً مع المبادئ المميرة لعصر

Lucas Introna, "The Face and the Interface: Thinking with Levinas on Ethics and (A) Justice in an Electronically Mediated World," (Working Paper, Centre for the Study of Technology and Organization, University of Lancaster, 2003)

التنوير. الإدارة البشرية لأمر العالم، والاستعلاء عن العباد، الإلهية (القدر «الأعمى»، والمصادفة «لعشوائية») ليحل محلها العقل، ذلك العدو الدود للمصادفة والعموص والإبهام والتناقض، بل إن «لناتويكون الذي تصوره حيرمي بنثام كان نسخة تأسيسية صلبة من روح عصر التنوير».

وثمة مبدأ آخر محير لعصر التنوير، ألا وهو مبدأ أقل شهرة، وإن لم يكن أقل أهمية من المبدأين السابقين المتلازمين لعصر التنوير، ألا وهو انقراض لرحل الأخلاقي والحمز لدى العوعاء «الشعب» أو «عامة الناس»، أو كما قال حان جاك روسو بكل صراحة لا بد من إجبار الناس على الحرية. فالعرب الأخلاقية المقدمة تخرج إلى الاعتماد على امتثال الناس أو طمعهم، لا على دواعيهم الأخلاقية المهمة. ولذلك السب، فيما أعتمد، لم يكن هناك توقع وسع للحشد الطوعي في الحرب المعصية ضد تقلبات لقدر، فكان ابرهان على تصيف الواجبات وتنظيمها لا على إطلاق العنان للحرريات. ولهذا السب فإن حيرمي بنثام ورواد «الطواحين الصناعية الشيطانية» التي دمرت الطبيعة والعلاقات البشرية، وفريدريك تايدور صاحب قياسات الزمن والحركة التي استهدفت احتزال العامل المكلف نشعين الآلة إلى دور العبد المطيع لها، كل هؤلاء استطاعوا أن يصدقوا أنفسهم تماماً بأنهم أهل الأخلاق، ودعائهم، وأدعها للتنفيذية - بمعنى المرفقة والهداية إلى لطريق المستقيم وفق تفسيرين اللذين ذكرناهما للمرور لمتة والتاسع والثلاثين. فكان تأسيس الأخلاق، وكل ما يتعلق بها، مهمة المديرين المحترفين وامتيازاً خاصاً بهم؛ وكان العقل الإداري، كما صوره كتاب حيرمي بيريهام عن الثورة الإدارية (١٩٣٩)، هو الذي يتحدث بلسان حيرمي بنثام، وهنري فورد أيضاً.

ولكن اليوم، خلفنا وراءنا الطموحات الديكتاتورية الأخلاقية التي راودت المديرين الذين صورهم حمز سربهام، وذلك نسخة «الثورة الإدارية الثانية»، إذ اكتشف المديرين وصفة أفضل كثيراً للتحكم والسيطرة، وأقل كلمة وإرهاقاً وإجهاداً، وأكثر ربحاً على الأرحح، ألا وهي إسناد الواجبات الإدارية إلى الحاصعين للإدارة أنفسهم، ونقل مهمة السيطرة عليهم من مديين إلى دائنين، ومن ديون إلى أصول، ومن كلمات إلى مكاسب، وذلك بإسناد المهمة للصرف المستعصر من العسنة. وهذا شيء يشتهر به محلات الأثاث

ومستلزمات اعمارل المعروفة باسم «إيكيا» - حيث تترك عملية تجميع القطع المصنوعة إلى الزبائن الذين يدفعون ثمن امتياز أداء المهمة، بدلاً من أخذ أحر على أدائها - ولكنه مبدأ بحري توظيفه على نطاق مترادف في تشكيل المادح الراهة الحاكمة لعلاقات السيطرة والتبعية

إن السبيل إلى إعاده الطابع الأخلاقي لتلك لنمذح كما يظهر في إحالتك على لوقا إيتروما ينطوي على تشجيع الأمل وروح الإقدام بقدر ما يحتاج إلى الاختبار في الممارسة - ولكن علينا ألا ننسى، كما تعلمنا من سلسلة طويلة من علامات الفجر وصحوة الأمل في الماضي، أن لحدود الفاصلة للرعاية عن التبعية، والحرية عن الاستسلام، إنما هي محل نزاع دائم، وتبدو كل ثنائية متعارضة أشبه طرفين متلازمين (بل متكاملين) للعلاقة نفسها - فربما تفتح المراقبة بعض الشكوك الأخلاقية بإظهار «تطبيقات الرعاية» التي تمسكها، ولكن هذا انفتح له ثمة - وليس بريئاً بأي حال على المستوى الأخلاقي. فدم تتوقف المراقبة عن كونها مراقبة، ولم تتوقف اشكوك الأخلاقية المرتبطة بها ارتباطاً مباشراً، وما زلنا ننظر من دون حدود أن ننعيم بمزايا مراقبه من دون عيوب... حتى وإن كان اكتشافها بحري الإعلان عنه من جديد مع كل اكتشاف تكنولوجي جديد.

الفصل السابع

القدرة والأمل

ديفيد ليون: في حوار ها أريد مناقشة قضيتين طهرتا عدة مرات في حوارنا من دون أن نناقشهما بالتفصيل، ألا وهما القدرة والأمل

فأنت بقدرة، فهي مسألة أساسية في مناقشة المراقبة، وهي ترتبط بإشارتك التي ذكرتها لستر بيلهارتس في عام ٢٠١١^(١)، والتي معادها أن أنطونيو غرامنشي كشف لك أنه لا يمكن اعتبار الناس غير واعين بمظومة المجتمع، ولا ينبغي اعتبارهم ضحايا بُني اجتماعية مهما مدت تلك النية قوية. ونوحى بعض دراسات المراقبة بأن الناس مقيدون في شبكة بيروهرطيه، وواجهون تحت سيطرة عدسات الكاميرات، ومرافبون من هواتفهم النقالة. فأين يجد القدرة أو أين نرعاها؟

وأنت مسألة الأمل، فهي مرتبطة بمسألة القدرة، فأنت تتبع أفكار غرامنشي، وتشير كتاباتك إلى إمكانات للفعل البشري، فالبشر يمكنهم أن يغيروا مجرى الأمور، وهم يعيرونها بالفعل، ويعكرون خارج الصندوق، بل وأحياناً يغيرون مسار لتاريخ باتجاه العدل والتبصر. وأعلم أن السلطة تتبحر في فضاء التدفق السائل، وأن جهاز الأمل الوطني يشجع على سمات وممارسات عميقة جداً، وأنه ينجح في توسيع نطاق هذه السيمات والممارسات إلى درجة يصح عنها جميعاً «مشتبه فيهم» وفق «تصنيفات محدده». كما أعلم أن هناك حالة من الرضا المتنامي في لفقدان العام للسيطرة على معلوماتنا الشخصية، ومع ذلك كله، لا أعتقد أننا خسرنا كل شيء. ولكن ما هي الأسس التي يقف عليها ذلك الأمل؟ وكيف تقويه

Peter Beilharz, ed., *The Bauman Reader* (Oxford: Blackwell, 2001), p. 334.

(١)

شدائد اللايقين والإبهام أو حتى الشك؟ وكيف يمكنه أن يسهم في
الاحتمارات الحيوية بين الحياة الإنسانية والحياة الإنسانية؟

زيجمونت بلومان: يمكننا أن نقول «إننا خسروا كل شيء» عندما (إذا)
اعتقدنا بأن هذا صحيح (وهذا ما توصل إليه عالم الاجتماع وليام إسحاق
توماس قبل قرن من الزمان عندما قال: «إذا ما اعتقد الناس بأن شيئاً ما
صحيح، فإن هذا الشيء عدة ما يكون صحيحاً في عواقب أفعالهم»). وحتى
عندما يحدث ذلك، فإن الناس لا يخسرون كل شيء - ذلك لأن عدم القول
بذلك الموقف، حتى وإن طارده الناس إلى أن يصل إلى أقية اللاوعي
وسجنوه هناك، يحفر بفقاً في ذلك الاعتقاد، لتظهر خلاله المعجزات،
وتندفق... وأفترض أنه من المحال في الأصل العيش مع الاعتقاد بأننا
«خسرنا كل شيء». فهذا أمر لا يمكن تصوره، افتراضاً بأن البشر مخبوقات
تتجاوز الحدود دوماً، ولا يمكن أن يكونوا غير ذلك، فهم يتمتعون بنعمة
اللغة التي تحتوي على كلمة «لا» أو يعانون نقبتها (فكلمة «لا» شير إلى
إمكانية رفض الواقع ودحضه)، كما أنها لغة قادرة على التعبير عن زمن
المستقبل (القادرة على التأثير برؤية للواقع ليست واردة بعد، ولكن قد تكون
واردة في «المستقبل» بالقوة نفسها التي تتأثر الحيوانات بالدليل الذي تمدها
به حواسها). فالإنسان اعاقل القادر على العلو والاختيار والتجاوز لا يعترف
فكرة الخسارة الكاملة، وإن كان هذا لا يعني أن تحقيق الكلام على أرض
الواقع عملية سهلة وواضحة، وواقعة من السجاح، أو أن هناك وصفة مصمونة
(فاطحة) للحروح من المشكلات تنتظر من يعثر عليها، وأنه مور العثور
عنها، يتم تمدها بسهولة، وتلقى استحساناً ونصفاً. ولكن اسمح لي أن
أحيلك مرة أخرى على ما ناقشناه بعجالة في المقابلة التي حرت مع ميشال
ويلبك...

هناك نقطة أخرى جديرة بالتنويه؛ إن الأمة/الدولة ليست «الفاعل
الوحيد المأروم»، فثمة «فاعل مأزوم» آخر، ألا وهو الفرد الذي يجد تشجيعاً
ونتوقع منه أن يجد (كما يذكرنا دوماً أولريش بيك) «حلولاً فردية لمشكلات
متولدة اجتماعية». وكلنا «أن» «أفراد» يسبب هذا الحكم - غير المكتوب،
ولكنه حكم محفور بعمق في كل ممارساتنا الاجتماعية أو معظمها، فكيف
«أفراد بحكم المأزون» - ولكن أغلبنا في مناسبات كثيرة يحدون أنفسهم

بعيدين كثيراً عن مكانة «الفرد بحكم الواقع» (بسبب نقصان في المعرفة وفي المهارات أو في لحوارد، أو لأن «المشكلات» التي سوجهها لا يمكن «حلها» إلا معاً لا فرادى، عبر الفعل الجمعي المتناغم والمتناسق). ولكن من غير المحتمل أن يقبل «الرأي العام» ولا ضميرنا بتلك الفجوة بين الآمال الاجتماعية وقدراتنا العملية. وأعتقد بأن ذلك الشعور العميق بالخزي والذل وإنكار الكرامة والأمل في النجاة والوقوف في حالة حنطة من عدم الأهلية هو أقوى دافع لحالة «الاستعباد الطوعي» الراهن (تعاوننا مع المراقبة الإلكترونية/ الرقمية). وهذا الحال يس سوي محاولة بائسة للهروب من الهجران إلى حياة الوحدة، إلى حياة العجز. فربما نتقيد، وربما نفع في الفح، ولكنا نقفز ونغطس ونعوص بار دتنا في المقاومة الأخيرة للأمل.

ديفيد ليدون: إذا كان الأمر كذلك، فإن المقاومة الأخيرة للأمل لن تدوم طويلاً وكيف لها أن تدوم؟ وأنى لنا في الأزمنة الحديثة السائلة أن نصمد ونقاوم؟ وأوافقك الرأي في التحولات التي تحد من صلابة الحداثه - حتى وإن كان كارل ماركس وغيره قد حذرونا قبل زمن طويل بأن الصلابة الظاهرية «تدوب وتختفي» - مع استمرار الإبهام في كل الأنحاء وأشكال «اللايقين المصنوع» الذي تتسم به مجتمعات المخاطر. فلا شك أن الأمل يحفي رجحه، بل وسفاؤه لصعيف، ويتوارى خلف الكواليس ويتحين دوره ليتحدث على مسرح الأزمنة السائلة التي لا ترحب به.

فهذا الإحساس بالسيولة يضخمه في كل مكان تدفق المعلومات واصور التي ناقشها في سياق المراقبة، ولهذا الإحساس بالسيولة تأثير في «تبريد الذكريات». فالذكريات «الساحنة» التي قد شكل التطور الثقافي وتوجهه وجهات أخلاقية سليمة يحل محلها يرود الابهام بالرسائل الإلكترونية وتحديث حالة المستخدم والتكهات التي يتم مراجعتها، وهي تتنقل بسرعة حاطمة عمر وعيناً^(٧) وحتى في مجال المراقبة، كما في الصورة لمجازية الذي ذكرتها عن «الغطس والغوص»، نحد أن لأشياء في تعبير دائم، ومالك تتميز أيضاً لحالات الاستهلاكية مع كل معلومات لمعاملات

Jan Assman, *Das kulturelle Gedächtnis* (Munich: Beck, 1992), cited by Miroslav Volf and (٢) William H. Katerberg, *The Future of Hope: Christian Tradition and Modernity and Postmodernity* (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 2004), p. ٨.

التجارية وإمكانيات اعتفالك للاستجواب في المطار، فكل ذلك يتغير مع مستويات السير والحركة والانتقال والانصال والمعاملات اليومية.

وهذا سبب اهتمامي بكتاباتك التي تؤكد أن التأويل ممكن تحقيقه باستعادة الذكريات، هي عالم تمتلك فيه العلوم الاجتماعية غالباً ملاذاً - مناسباً - للتأويل المرتبط بالشك في الوضع القائم فربما نستطيع أن نكيف أنفسنا بالعشر مع الإسهام أو أن نتراجع عن أحلام تقديس التكنولوجيا الرقمية، أليس هذا إمكانية للاهتمام بما يمكن استعادته من المفردات المهمورة ثقافياً من دون الرجوع إلى الماضي أو الرجعية؟ وأتذكر أنني حضرت حلقة دراسية في عام ١٩٩٦ مع جاك دريدا في إصاءاته لفكرة ليفيناس عن المسؤولية^(٣)، وقد ساعدني ذلك على إحياء أملي الضعيف بأن هناك بدائل تستوعب الأرملة الحديثة السائلة.

وهذا تأويل يمكن تحقيقه باستعادة الذكريات، كما أراه، لأنه يعود للنور، حتى يستطيع مواجهة الحاضر والاشتباك معه، متشبهاً بالأمل فيما لسا وراءه (كما ذكرت بكلمات القديس بولس من قبل). ففي عالم تستحوذ عليه المراقبة، وتحول فيه المراقبة استنوسيكية الإنسان إلى مادة مسهفة، يؤكد ليفيناس أن هذا لا يسد إمكانيات وجود نوع آخر من لمراقبه فالمراقبه لا تعمسا بالضرورة عن إساية الآخر^(٤)، وهكذا، بعيد ليفيناس إلى الآخر الوارد في التوراة، الآخر بوصفه الأجنبي أو الغريب، الأرملة واليتيم ومن يمر بقوة في التاريخ التوراتي إلى الآخر الغريب أكثر من السيدة هاجر؟ تلك الروحنة التي تعرضت لإقصاء فسي من جانب إبراهيم وسارة؟ فلم يغفل الإله (يهوه) عجزها ولا وضعها، بل إن هاجر نفسها تعترف بفضل الله عليها قائلة: «إله الذي يراني». فتنطلة الحب وفعل التحرير لا يمكن فصلهم في هذا السياق^(٥)، وثمة طريق آخر ممكن، طريق حافل بالأمل.

نيجمونت باومان لماد، سجات إلى وصف درمي مثل المقاومة

Jacques Derrida, *Adieu à Emmanuel Levinas* (Paris: Galilée, 1997), and *Adieu to* (٣) *Emmanuel Levinas* (Stanford: Stanford University Press, 1999).

Robert Paul Doede and Edward Hughes, "Wounded vision and the optics of hope," in (٤) Volf and Kaiserberg, *Ibid*, p. 189

(٥) المصدر نفسه، ص ١٩٣.

الأخيرة للأمل»^٩ بسبب أزمة القدرة، فهي أوضح مشكلة لسماق الراهن. فالأمل يعاني من الضعف والوهس والتشنج، لأننا لا نستطيع تحديد ذات فاعلة وفعدة وقوية للاعتماد عليها في تحقيق الكلام على أرض الواقع، ونرجع هذه الصعوبة إلى انفصال سلطة فعل الأشياء عن القدرة على صون فعل الأشياء الصحيحة واجتناب الأشياء الخطأ والكيانات السياسية الفاعلة (التي تحددها حكومة الدولة) تعجز عن التصدي لجسامة المهام؛ فمقدنا السياسيون يتفقون يوم الجمعة على ما سيفعلون، ثم يقصون عطلة-يومي السبت والأحد وهم يرتعشون حتى تفتح أسواق الأوراق المالية أبوابها يوم الاثنين... فلا عجب أن الاقتراحات بأن ذوات فاعلة بديلة تولد وتتلهم على الانضمام للمعركة تستهلك استهلاكاً نهماً وشراً - وهذا يفسر وهرتها الكبيرة. فهل من الممكن أن يقوم الإنترنت بما عجزت الأحزاب في الحكومات عن تحقيقه؟ وهل من الممكن أن تحقق أدوات جديدة للمراقبة ما لم تحققه سنوات من الوعظ الأخلاقي وسن القوانين الأخلاقية؟ إنا نعيش على أمل، ونطلع إلى الشائعات الواعدة. . هي تلك لوسيلة الرسمية لقدرة على استدعاء الآلاف من الرجال والنساء إلى ميدان عدم نحاول أن نكشف عن وعد بتأسيس نظام حديد ينهي تناقضات النظام الراهن وحماقاته وهذا أمر لا بأس به، وهو ممتاز لسلامتنا العقلية، ما دمنا نشبه بالأمم؛ وبصايل الأمل كثيراً عندما نعيش (أو نقل بوعلايات الآخرين) بأن لحانة التي سحقتها نظام ما نحج هي مسألة بديهية.

أنت مُحقّق تماماً في رؤية ليفيئاس، ولكن ماذا كان بإمكان ليفيئاس أن يقول عن الفرص المتاحة لتأصيل رؤيته وتشيته في الواقع إذا كان لها أن تخاطب عصر المراقبة الإلكترونية والرقمية؟ فالفأس وآلة الحلاقة هم متحان من منتجات التكنولوجيا - ولكن البول كل البول لمن يستخدمونهم بلا تدبر فهل يستطيع المرء أن يحلق ذقه بالفأس؟ وهل يستطيع المرء أن يقطع الحشب بآلة الحلاقة؟ (وإن كان يوسع المرء أن يستخدمهما معاً للقتل، وليس بالضرورة اتفاقاً مع أغراضهما الأصلية). فالمراقبة الإلكترونية تقطع الرابطة التي يصلها «وجه الآخر» عند ليفيئاس ويركها في كلية واحدة. .

بها هو جبرار بيرى، أحد الخبراء الفرنسيين لارزين في الآثار

الاجتماعية لطعم المعلومات، يسرد القصة، عندما التقى شاباً تونسيين بعد الثورة بقليل^(٦)، حيث أخبرهم كيف كان من الصعب عندما كان في عمرهم أن يدعو إلى تجمع صغير، وقد تعجب الشباب من كلامه وضحكوا؛ فهم لم يتصوروا وجود مثل هذا العالم، ولم يحاولوا قط أن يفكروا بلفته. وأما جيران بيرري فاندعش هو الآخر وصحك عندما حاول أن ينتزع من هؤلاء الشباب قصة «وصولهم» إلى استخدام الوسائل الإلكترونية لتركيب «اجتماعهم البشري» وتفكيكه، فلم يحصل جيران بيرري على إجابة - وأدرك أن السؤال كان السؤال الخطأ عندما يوجه إلى هؤلاء الشباب، فهم لم يعيشوا في عالم حالي من «الفيس بوك» و«تويتر» - ومن ثم فهم لم «يصلوا» إلى استخدام اليمس بوك وغيره لبناء عالمهم الاجتماعي وتفكيكه.

إن العالم الاجتماعي الوحيد الذي عرفوه وعهدوه هو عالم بحري في مجرى الأجهزة الرقمية، فكان الإنترنت أمراً طبيعياً شأنه شأن البحر أو الحال، ولم يعرفوا شيئاً مقارنة به حتى يقوموا مزاياء أو عيوبه النية. وأما عن التنبؤ بحال الأمور في المستقبل، فإن جيران بيرري بدا قلقاً، وهو يوحى بأن نظام تحديد المواقع عالمياً سيبت دوماً موقع المرأة الجغرافي، وسيظهر جهاز الحاسوب ضغطاته الإلكترونية، وهذا سيسمح بقياس منوعات السلوك الجمعي والفردى، بل منوعات كميات المعلومات التي يمكن أن تكون خطراً برمتها على الديمقراطية. فإذا لم ننشر الوعي بين الناس الآن، فإن هذه الممارسات الخطيرة مستتقر في مواضعها من قبل أن نثير الأسئلة الصحيحة، ولن يحدث النقاش الديمقراطي الطبيعي، وسيكون لأوان قد فات

حناً، فهل لنا أن نتفق ولو لحين (إلى أن يظهر دليل أكثر يقيناً وأقل عموضاً بفعل الناس للتاريخ وصنعهم به) بأن المراقبة الرقمية هي سيف حاد لا نعلم حتى الآن كيف نحقق حدته - وهي بكل وصوح سلاح ذو حدين لا نعلم كيف ستخدمه بحذر وسلامة؟

وأما فيما يتعلق بآمالنا، فإن الأمل هو سمه بشريه لن نفقدنا أبداً من دون أن نفقد إنسانيتنا؛ ولكن العثور على ملاذ امن ملقي فيه مرساء الأمل

^(٦) "Pour les enfants, Internet est aussi naturel que la mer ou la montagne," *Le Monde* (30 Nov 2011).

يستغرق وقتاً طويلاً. وجميعنا يعلم مصير الغلام الذي قرر أن يصبح ويدعي كذباً مهاجمة الذئب للأغنام ويستنجد بأهل القرية. . . ولكن ما نعلم قليلاً عنه، وننساء بسهولة أكبر، هو أن مصيراً مماثلاً ينتظر أيّاً ما يصبح في أغلب الأحيان، من قمة سميئة مبحرة قائلاً: الأرض الموعودة أماناً!

ديفيد ليون: إن هذا الموضوع في حوارنا، مثل الموضوعات الأخرى التي تناولناها، سيقى مفتوح النهاية، ولكن تعليقاتك المثيرة تدفعني لأن ألح عليك في النقاش مرة أخيرة. نعم، الأمل والمعاملة الإنسانية لا يمكن فصلهما. نعم، إن العثور على مرسى آمن يمكن أن يستغرق وقتاً (وربما يبدو أكثر تملصاً ومراوغة في الأزمنة الحديثة السائلة). ولكن إذا كان الغلام الذي بحث بإنذار كاذب بوجود ذئب وحذر من أخطار غير موحدة، فماذا عن أولئك الذين قد يعملون اقتراب ظهور «الأرض الموعودة»؟ إن قصة الذئب تؤكد أهمية قول الحق حتى نعلم الأخطار الحقيقية. وقد مسنا أمثلة عكسية عدة، حيث الادعاءات المستقبلية الحمقاء التي تتحدث عن وعد التحول الكامن في التكنولوجيا، على سبيل المثال. فلا شك أن ذلك التفاؤل الأبله هو تفاؤل زائف، مثل الذئب المخيف في القصة لقديمة، ولكنه تفاؤل ممكن، أليس كذلك؟

فهل تسمح لي بأن أشير هنا إلى مثال أجد فيه وجهة حقيقية - رجفة أقتنع بأنها تصدر عن الأمل - في محاولاتي لفهم المراقبة؟ فهذه القنوات ليست سائدة في الكتابة الصريحة للوسيوولوجيا أو التاريخ، ولكنها حاضرة حضوراً هادئاً في الخلفية، ولا يمكن إثنائها (نصرف النظر عن دلالة ذلك)، ولكن لا يمكننا إلا أن نفترضها افتراضاً مسبقاً، فجميعنا، شتاً أم أبنياً، نعتمد على تلك الافتراضات «التي تستخدم في تحليل المعلومات الطرية نفسها».

فبعنا كثر أحاول استيعاب تنابير المراقبة التي أعقت أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، كنت أحاول أن أفهم العبارات «الإقصائية المتزايدة لتدابير الأمن والمراقبة» فكأت تتشكل آذاك مفردات جديدة واضحة في وسائل الإعلام والسياسة التي وضعت يدها على «المسسم» و«العربي» و«الشرق أوسطى» باعتبارهم ثغرات محظورة. وكما قال بيير بورديو ببساطة،

وبحكمة بالغة: «إن قدر الجماعات مقيد بالكلمات التي تصفها»^(٧)، ونحن نعلم الآن لعواقب الوخيمة المترتبة على ارتباط تلك التصنيفات بكلمة «إرهابي» وهذا إقصاء بالهيمنة، حيث يُوصف الشخص موضوع الإقصاء خارج الحياة الطبيعية (والقانونية) ولكن، كما يرى عالم اللاهوت ميروسلاف فولف^(٨)، ثمة أنواع أخرى للإقصاء تتضمن الإبادة (كما في البوسنة ورواندا)، واستراتيجية أخف وضأة تسمى «الاستيعاب والدمج» (فأنت تستطيع البقاء على قيد الحياة بينما بشرط أن تُدعى هويتك - وقد أعلنت الحكومة الكندية أن الساء لا يمكنه ارتداء النقاب في أثناء احتمالات منح الجنسية وحلف يمين المواطنة). وهناك أيضاً الإقصاء عبر الإغفل الذي ناقشاه عن حديثنا عن المستهينين المعيين على سبيل المثال.

وقد استكشف ميروسلاف فولف سراحة هذه الأمور عندما سأله بورجن مولتمان إذا كان بوسعه باعتباره كروانياً أن يعاقب أحد المحاربين الصرب الذين دمروا بلاده. ولما كان ميروسلاف فولف مسيحياً، فإنه كان يأمن من دون مواريه بأن يأتي الوقت الذي تتحول فيه سيوف الحرب إلى محراث الأرض، ولكنه يترك أن السؤال في الوقت الراهن هو: «كيف يمكن العيش تحت حكم قيصر في غياب حكم الحقيقة والعدالة؟»^(٩) وهو يستشهد بما قاله هانز إيتسبرجر (ليتجاره)، ومفاد هذا لاستشهاد هو أن صحرة سيزيف، التي حُكم عليه أن يحملها ويصعد بها إلى أعلى الجبل، تسمى «السلام». فالأعمال البسيطة وأعمال الجيرة لا بد أن تسير حتى وإن كان من المحتمل أن يعود القاتل في أية لحظة. ولكن من يحملون الصليب ويهندون بهدي المسيح «سيكسرون دائرة العنف برفضهم الوقوع في آلية الانتقام عبر الحاضع للوعى، وهكذا يصبح الإصرار على عدم الانتقام بذرة تنمو منها شجرة السلام». ^(١٠)

إن تلك البصاعات الراسخة تنفذ إلى لتحليل الاجتماعي وكتبة التاريخ.

Pierre Bourdieu, *Distinction: A Social Critique of the Judgment of Taste* (London: (v) Routledge, 1986), pp. 480-481

Miroslav Volf, *Exclusion and Embrace: A Theological Exploration of Identity, Otherness (A) and Reconciliation* (Nashville, Abingdon Press, 1996), p. 75

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٧٧

(١٠) المصدر نفسه، ص ٣٠٦.

وحتى إن كنا نحلف مع المعتقدات التي نشتق منها، ألا نستطيع أن نكون تحذيرات استراتيجيه مع فصاعات أخرى تؤكد، على سبيل المثال، القدرة والأمل؟ فقد لاحظ كيران فلاسجان، وأوافقه الرأي، أن كتاباتك يدومان «تؤكد أشجائاً لاهوتية في الحدث»^(١١)، وأعتقد بأنه قد إنها «غير متوقعة» بمعنى أنك متشكك ومرتاب للعانة في فعل الله في العالم، وأنت تتخذ موقفاً نقدياً عميقاً (مثلي) من كثير من مظاهر الاعتقاد «الدبي». ولكنه فُجِنَ بأنك تعترف بشجاعته بأهميه تلك الأفكار التي تُترك في أغلب الأحيان لعلماء اللاهوت وأعي بذلك واقع الشر. وحنمية الأخلاق، وصلابة العلاقات طويلة الأجل، وإيثار، وأولية حب الجار، ومشكلات الأخلاق... وكلها موضوعات تطرقنا إلى كثير منها في حوارنا.

وأحدي أمير في إصدار التكاليد المسيحية من دون حرج ولا أسف، في حين أنني أحيى على كتاباتك لأنها تعبر عن أفكار، بل عن الترامات، تقترب جداً من أفكاري والتزاماتي إن كتاباتك تنفق تماماً مع أشياء عزيزة عليّ حتى إسي وجدت أن بوسعي أن أواصل الرحلة بعيداً في صحتك، حتى وإن وجدنا لحظات نوتر أو اختلافاً أساسياً، واكتشفت أنك أحياناً تستشهد باستحسان بالمصادر لمسحة، وهي، بما في ذلك مروسلاف فولف، تعرف أنها مدينة لك باجميل والعرفان بحكمك. وكما يقول ليفيتاس، ووفق المعتقدات الروحية لكتابالال يهوديه، ثمة «آثار» في كتاباتك تتردد فيها أصداء صفاء الكتب المقدسة وحذتها اللاذعة، أصداء نوقظ الصير ونفغمه للعمل، وتقودنا إلى وجهات جديدة.

فهل هذه مراقبة سائلة؟ حساً، نعم إنها مراقبة سائلة، وعلينا أن نستوعب الطرق الحديدية التي تنسرب من خلالها امراقبة إلى شريان الحياة المعاصرة في توافق مع تيارات الحدانة اسائلة ولكن فكرة السيولة ترد على قلم مفكر يرفض رفضاً تاماً ضحالة كثير من الطريات الاجتماعية وكثيراً من سطحيته. ويتجه بدلاً من ذلك إلى وجهة الأفكار المحورية. وأعتقد أن سؤالي مفاده إسي أي مدى يمكن للنظرية الاجتماعية والسياسية أن تبقى

Kieran Flanagan, "Bauman's Implicit Theology," in Mark Davis and Keith Tester, (eds.), *Bauman's Challenge: Sociological Issues for the Twenty-First Century* (London: Pagraive Macmillan, 2010), p. 93

مفتوحة لإسهامات المتكلمين من داخل التقاليد الدينية؟ أن تبقى مفتوحة من بعد، على سبيل المثال، في اليهودية القديمة والمسيحية القديمة حذور فكرة مفادها أن احتار الحكم ابرشيد يتحدد بالطريقة التي نعامل بها المستضعفين، أو أن تبقى مفتوحة لمن يحرر على انشبت بالأمل، لا الأمل بتحقيق يوتوبيا بشرية حالصة، بل الأمل بتحقيق كلمات الحكماء القدامى، وعود الأنبياء، أو حتى تكرار الكلمات التي غالباً ما نستخدمها أنت. «أن تندرع الكلمة محسدا».

زيجمونت باومان. إنك يا ديفيد مصع يدك على الرجوع، كما فعلت كثيراً في حوارنا. وفي دراستي المتواضعة لقر الحياة، رأيت أن المقدر هو الذي يحدد نطاق خياراتنا المتاحة والواقعية، ولكن من طبعنا نحن البشر أن نتنفي الحيات وهذا الحصور المشترك والتفاعل المشترك لهدين العالمين المستقلين في أغلبهما يفيد القدرة على تحديد مسار الأفعال البشرية، فلا يمكن التنو الكامل بمسارها أبدأ، وحتى الناربون والشوعسون، في معسكرات الاعتقال التي شيدوها، لم ينحخوا في القضاء التام على الحيات البشرية فأنت وأنا، وكل البشر من حولنا، من الماضي السحيق وإلى الأبد، هم أصحاب اختيار - كائنات قادرة على الاختيار، وكائنات قادرة على صنع التاريخ مثما يصنعهم التاريخ...

ولأني مقتنع بكل ذلك، فأنا أوص في الوقت نفسه بإمكانية الأخلاق وحتمتها. فلن ننسى أساً أن حواء وآدم تعلمنا عدم أكلا من شجرة معرفة الخير والشر... كل م في الأمر أن كل مجموعة من الظروف («القدرة») تعرض فيود مختلفه على اختيارات مختلفه، وهذا يعني أنه في ص ظروف متباينة تختلف احتمالات بعض الاختيارات. فالإنسان كائن عاقل، كما أنه كائن قادر على لاختيار، ومن ثم فإننا البشر نميل إلى تفضيل الاختيارات الأقل كلفة على الاعتبرت الأكثر كلمة (بصرف لنظر عن نوع العملة التي تُقدّر بها التكاليف والمكاسب لسيبة). ولكن هناك فرق كبير بين تحديد مسار الفعل واحتمالته، وفي هذه المساحة السليطة يتحرك طابع البشر - في صعبة الأخلاق؛ فكون لإنسان على خلق يعني شيء كثيرة، ولكن ذلك بالتأكيد تقريباً ليس وصفة لحياة سهلة مرتحة. فهذا اللايقين هو أشد ألوان لالايقين عدداً؛ لأنه لالايقين حتمي مائن قبل التفكير في الاختيار وبعد

الاحتيار، وهذا بلاغي هو تربة الأخلاق وموطنها الطبيعي. والأخلاق في الغلب الأعم (بعكس تعاليم حل الفلاسفة لأخلاقيين) لا تكمن في الامتثال لقواعد ملزمة ومقسولة ومطاعة عالمياً تقريباً، بل تكمن الأخلاق في المقاومة الصامدة - ولهذا نحن نأبى أن ندفع المقاومة بنفسه . . .

وأعتقد أن هناك «قراءة احتيائية» بين هذا الاعتقاد ومذهب الراحل توني يودت؛ فهي اليوم التالي لمونه، دوت في مذكراتي الكمات اتالية: «إذا كنا لم نتعلم شيئاً من اقترن العشرس، فلا بد أناسا على الأقل قد استوعبنا أنه كما كانت الإجابة مثالية، كانت العواقب وخيمة. فالتحسينات التدريجية في الظروف غير المرصية هي أفضل ما يمكن أن نصبو إليه، وربما كل ما ينبغي أن نسعى إليه». فوسع التاريخ أن يعلمنا التواضع والاعتدال في أمورنا، ولى يحطم التاريخ آمالنا - ما دمت نصحت إلى نصائح. وفي حوار مع ديفيد هولاي بصحيفة الإمدبندنت، عرصر توني يودت مذهبه قائلاً:

سألني البعض إذا ما كنت أرى برافاً إلى شيء أشبه بالزعات السلطوية الاستبدادية أو الشمولية اديكتورية، فقلت إنني لا أرى شيئاً من هذا القبيل، بل أرى شيئاً أشد بدمراً، ألا وهو فقدان الإيمان، فقدان الإيمان بثقافة الديمقراطية لمصوحة. ذلك الشك والانسحاب المنقذم للغاية على طرهي الأطلسي . . . ولكنني أعتقد أيضاً بأننا من المحتمل أن نرى في منتصف الجيل القادم صحوة سياسية في صورة احتجاجات سياسية غاضبة وتنظيمات بين الشباب ضد حالة الركود التي استمرت طيلة الخمس والعشرين سنة الماضية؛ وهذا تفاؤل متوسط الأجل، وتشاؤم قصير الأجل^(١٢)

وإذا أردنا أن نؤيد هذا «المتاؤل متوسط الأجل» ونبرره، فإن المستقبل - ليس المستقبل العاجل، بل المستقبل القريب نسباً - لا بد أن يحمر ويتخذ مسراً بين إحياء الماضي (الحرورية سيلاً) والرفض الجميل لميراثه (دوامات شاربيديس). (إنه من دواعي السرور - ولكنه من أبواب التفضيل - أن نقول إن الديمقراطية الاجتماعية، أو أحواتها، تمثل المستقبل الذي نرسمه لأنفسنا

(١٢) "Tony Judt "I am not pessimistic in the very long run", Independent (24 Mar 2010)

في عالم مثالي». هكذا قال توني يودت في حوار آخر مؤكداً كل كلمة قالها على حدة^(١٣) فالتخلي عن مكاسب الديمقراطيين الاجتماعيين - الصفة الجديدة، المجتمع العظيم، ودولة الرفاه الأوروبية - إنما هو حيلة لمن جاؤوا قبلنا وخيبة للأجيال القادمة».

ولكننا الآن نشهد سقوط نمايين عاماً من الاستثمار في الخدمات العامة، إما نطرح بعيداً جهود لماضي وأفكاره وطموحاته، وفي طرحنا للإحبة السيئة، سينا الأسئلة الجديدة، وأريد أن أثير الأسئلة الجديدة في حوارنا مرة أخرى.

وأنا شخصياً أشك في أن توني يودت قبض على المعنى الذي كان يتوق إليه في الحياة، على الأقل في حياة الإنسان الفرد الذي كان يحمل اسم «توني يودت» - وكما قرر أناس آخرون، كل على حدة، نأد يشبعوا حياتهم بمعنى مماثل - ربما في التاريخ البشري أيضاً، وقد اعترف توني يودت إلى ديفيد فولاي قائلاً:

إن الحوارات الفلسفية الحادة الوحيدة التي أحرقتها كنت مع صديقي الفيلسوف توماس ناجل هنا في جامعة نيويورك، فكان لنا حوارات طويلة حول مسؤوليات لبشر الأحياء عما يحدث بعد رحيلهم، فكنا لا نتحدث عن الحياة بعد الموت، بل عن الحياة بعد أن يموت المرء، وعن مسؤوليات المرء تجاه العالم الذي يتركه وراءه بعد مماته، بمعنى سلوك الفرد الآن، وما يقوله المرء أو يحاول أن يحققه، وما إلى ذلك ..

وهذه المسؤوليات جوهرية للعامة؛ فنحن نموت يقيناً - فلا سبب بعد مماتنا، أو على الأقل إذا حيا بعد مماتنا، فأنا لا أعلم أي شيء عن ذلك، ولا أملك دليلاً، ولا حجة أقدمها لتأييد ذلك - ولكننا نواصل حياتنا في أناس آخرين بطرق نحن مسؤولون عنها فالدكرى التي نحققها، والانطباع الذي تتركه عن شكل الأفكار التي كانت لنا، والأسباب التي قد تكون لدى الناس، لمواصلته النقاش حول هذه الأفكار، هي مسؤوليات لنا تجاه عالم نعيش أن نكون مسؤولين عنه. فثمة أسباب للعمل الآن كما لو كنا سنعيش

Evan R. Goldstein, "The Trials of Tony Judt," *Chronicle Review* (6 Jan. 2010).

(١٣)

للأبد، كما لو كنت سنعيا أبداً لتحمل المسؤولية عن كلامنا وأفعالنا. إنه شعور بالعيش للمستقبل حتى وإن لم يكن مستبعداً.

ديفيد ليون نعم، هذه حقاً طريقة أخرى للإقناع بمفكرة المسؤولية عند ليفياس والعمل بمقتضاها. وأما أنا، وباعتباري مؤمناً، فإني أريد أن أضيف أن العهد الجديد (الإنجيل) يأمرنا بأن نعيش في الحاضر الآن كما لو أن المستقبل قد جاء بالفعل. إننا نعيش الآن حياة العدة التي كنا نصلو إليها، نعيش لحظه العنور على أنفسنا في وجه الآخر، نعيش تحويل سيوف الحرب إلى سيوف المحراث، نعيش الإصرار على تمكين أصوات المهمشين - المشتبه فيهم وفق التصنيفات الجمعية - حتى نسمع أصواتهم من دون أن يحشوا عواقب الكلام.

زيجمونت باومان: «أن نعيش في الحاضر الآن كما لو أن المستقبل قد جاء بالفعل»... هذا الأمر، مثل غيره من الأوامر في العهد القديم (التوراة) والعهد الجديد (الإنجيل) كان مرجعاً للقديسين، بما في ذلك المسؤولية التامة عبر المشروطة التي عبر عنها ليفياس، وهو مؤمن أيضاً (ولكن علينا أن نتذكر أن هذا العالم سيكون حقيقياً إذا كان الاهتمام رسائل العهدين القديم والجديد وفضل استيعابها يعتمدان على إيمان بألوهية مُرسليها). فالقديسون الذين تلقوا الرسالة هضموها، وأعادوا تدويرها في أعمال، ولهذا السبب سميهم قديسين. واأسفاه، لا يمكننا أن نكون قديسين، ولكن لن نكون بشراً من دون حضور القديسين. فهم يهدوننا إلى الطريق، بل هم الطريق، وهم يثبتون لنا أن الطريق يمكنك أن نسلكه، وهم وخبرات الضمير لنا، ونحن من نرفض أو نعجز عن شق الطريق واتباعه.

وفي روايته لأحيرة، الخريطة والأرض (تأمل الرسالة في ذلك العنوان)، يحاول ميشال ويليك أن يجيب عن سؤال مفاده إذا ما كان وليام موريس يوتوبياً (هو المشهور بعبارة «التصميم والتنفيذ لا يسغي فصلهما أدناً»). وقد ظل ميشال ويليك يتأمل هذا الأمر، ورفض شدة أن يقدم إجابة قاطعة («إنني شيخ كبير للغاية، ولم يعد لي رغبة في الوصول إلى نتائج قاطعة ولا عادة الوصول إلى النتائج القاطعة»)، ولكنه، مع ذلك، يقول «ما

يمكن أن يُقال هو أن نموذج المجتمع الذي قدمه وليام موريس بحق لن يكون يوتوبياً في عالم كان فيه الرجال جميعاً مثل وليام موريس». وأنا أؤيد هذا الافتراض، بكل ما فيه من تشجيع صريح. . . ونحذير ضمني.



المراجع

Books

- Aas, Katja Franko *Sentencing in the Age of Information* London: Glass House, 2005
- _____, Helene Oppen Gundhus and Heidi Mork Lomeli (eds). *Technologies of InSecurity The Surveillance of Everyday Life* London: Routledge, 2007
- Agier, Michel. *Le Couleur des exiles. Être étranger dans un monde commun* Marseille: Éditions du Croquant, 2011.
- Anders, Günther *Le temps de la fin*. 1960, Paris: L'Herc, 2007
- Andrzejewski, Anna Verner *Building Power: Architecture and Surveillance in Victorian America*. Knoxville: University of Tennessee Press, 2008.
- Andrejevic, Mark. *«Spy» Surveillance and Power in the Interactive Era*. Lawrence: University of Kansas Press, 2007
- _____. *Reality TV: The Work of Being Watched* New York: Rowman & Littlefield, 2004
- Aubert, Nicole (ed) *L'Individu hypermoderne* Toulouse: Erès, 2004
- Aly, Gb̈z and Susanne Heim *Vordenker der Vernichtung Auschwitz und die deutschen Pläne für die neue europäische Ordnung* Hamburg: Hoffmann & Campe 1991
- Architects of Annihilation Auschwitz and the Logic of Destruction* London: Weidenfeld & Nicolson, 2001
- Assman, Jan. *Das kulturelle Gedächtnis*. Munich: Beck, 1992.
- Bauman, Zygmunt. *Collateral Damage Social Inequalities in a Global Age* Cambridge: Polity, 2011.

- _____. *Consuming Life*. Cambridge: Polity, 2007
- _____. *Liquid Fear*. Cambridge: Polity, 2006.
- _____. *Liquid Modernity*. Cambridge: Polity, 2000.
- _____. *Postmodern Ethics*. Oxford: Blackwell, 1993.
- _____. *Socialism. The Active Utopia*. London: Allen & Unwin, 1976.
- _____. *Work, Consumerism and the New Poor*. Buckingham: Open University Press, 1998.
- Beilharz, Peter (ed.). *The Bauman Reader*. Oxford: Blackwell, 2001
- Belk, Russell W. and Rosa Llamas (eds.). *The Routledge Companion to Digital Consumption*. London: Routledge, 2012
- Bourdieu, Pierre. *Distinction: A Social Critique of the Judgment of Taste*. London: Routledge, 1986
- Bowker, Geoff and Susan Leigh Star. *Sorting Things Out*. Cambridge, MA: MIT Press, 1999
- Davis, Mark and Keith Tester (eds.). *Bauman's Challenge: Sociological Issues for the Twenty-First Century*. London: Palgrave Macmillan, 2010
- Dillon, M. and A. W. Neal (eds.). *Foucault on Politics: Security and War*. London: Palgrave Macmillan, 2011.
- Derian, James Dex. *Virtuous War: Mapping the Military-Industrial-Media-Entertainment Complex*. Boulder: Westview, 2001
- Derrida, Jacques. *Adieu à Emmanuel Levinas*. Paris: Galilée, 1997.
- _____. *Adieu to Emmanuel Levinas*. Stanford: Stanford University Press, 1999
- Foucault, Michel. *Discipline and Punish*. New York: Vintage, 1977
- Fuchs, Christian, Kees Boersma, Anders Albrechtslund and Marisol Sandoval (eds.). *Internet and Surveillance*. London: Routledge, 2011.
- Garland, David. *The Culture of Control*. Chicago: University of Chicago Press, 2001
- Gandy, Oscar. *Coming to Terms with Chance: Engaging Rational Discrimination and Cumulative Disadvantage*. Farnham: Ashgate, 2009
- _____. *The Panoptic Sort: A Political Economy of Personal Information*. Boulder: Westview, 1993

- Greer, Germaine. *The Future of Feminism*. Dr J. Tans Lecture. Maastricht: Stadium Generale, Maastricht University, 2004
- Gilliom, John. *Overseers of the Poor*. Chicago: University of Chicago Press, 2005
- Haggerty, Kevin D. and Richard V. Ericson (eds.). *The New Politics of Surveillance and Visibility*. Toronto: University of Toronto Press, 2006
- Hayles, N. Katherine. *How We Became Posthuman. Virtual Bodies in Cybernetics, Literature and Mathematics*. Chicago: University of Chicago Press, 1998.
- Kaufmann, Jean-Claude. *Sex@mour*. Paris: Armand Colin, 2010
- Kracauer, Siegfried. *The Salaried Masses: Duty and Distraction in Weimar Germany*. London: Verso, 1998
- Liestøl, Gunnar [et al.] (eds.). *Digital Media Revisited: Theoretical and Conceptual Innovations in Digital Domains*. Cambridge, MA: MIT Press, 2003
- Lyon, David. *Identifying Citizens: ID Cards as Surveillance*. Cambridge: Polity, 2009
- _____. *Surveillance after September 11*. Cambridge: Polity, 2003
- _____. *Surveillance Studies: An Overview*. Cambridge: Polity, 2007
- _____. (ed.) *Surveillance as Social Sorting: Privacy, Risk, and Digital Discrimination*. London: Routledge, 2003.
- _____. (ed.). *Theorizing Surveillance: The Panopticon and Beyond*. Cullompton: Willan, 2006
- _____. and Elia Zureik (eds.). *Computers, Surveillance and Privacy*. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1996.
- Macey, David. *Love Online*. Cambridge: Polity, 2012.
- Marx, Gary T. *Undercover: Police Surveillance in America*. Berkeley: University of California Press, 1988
- Minton, Anna. *Ground Control: Fear and Happiness in the Twenty-First Century City*. London: Penguin, 2011
- Monahan, Torin. *Surveillance in the Time of Insecurity*. New Brunswick: Rutgers University Press, 2010.
- Mosco, Vincent. *The Digital Sublime: Myth, Power and Cyberspace*. Cambridge, MA: MIT Press, 2004

- Negri, Antonio. *Multitude: War and Democracy in the Age of Empire*. New York: Penguin, 2004.
- Noble, David. *The Religion of Technology: The Divinity of Man and the Spirit of Invention*. New York: Penguin, 1997.
- Papiloud, Christian and Cécile Rol (eds.). *The Possibility of Sociology*. Wiesbaden: VS Verlag für Sozialwissenschaften, 2008.
- Pariser, Eli. *The Filter Bubble: What the Internet Is Hiding from You*. New York: Penguin, 2011.
- Ploeg, Irma van der. *The Machine-Readable Body*. Maastricht: Shaker, 2005.
- Rhodes, Lorna. *Total Confinement: Madness and Reason in the Maximum Security Prison*. Berkeley: University of California Press, 2004.
- Sakai, Naoki and Jon Solomon (eds.). *Traces 4: Translation, Biopolitics, Colonial Difference*. Hong Kong: Hong Kong University Press, 2006.
- Solove, Daniel. *The Digital Person: Technology and Privacy in the Information Age*. New York: New York University Press, 2004.
- Staples, William O. *Everyday Surveillance: Vigilance and Visibility in Postmodern Life*. Lanham: Rowman & Littlefield, 2008.
- Tester, Keith. *Conversations with Zygmunt Bauman*. Cambridge: Polity, 2000.
- _____. *The Social Thought of Zygmunt Bauman*. London: Palgrave Macmillan, 2004.
- Trottier, Daniel. *Social Media as Surveillance: Rethinking Visibility in a Converging World*. London: Ashgate, 2012.
- Turkle, Sherry. *Alone Together: Why We Expect More of Technology and Less of Each Other*. New York: Basic Books, 2011.
- Volf, Miroslav. *Exclusion and Embrace: A Theological Exploration of Identity, Otherness and Reconciliation*. Nashville: Abingdon Press, 1996.
- _____. and William H. Katerberg. *The Future of Hope: Christian Tradition amid Modernity and Postmodernity*. Grand Rapids, MI: Eerdmans, 2004.
- Wacquant, Loïc. *Punishing the Poor: The Neoliberal Government of Social Insecurity*. Durham: Duke University Press, 2008.

Zurcik, E. and M. B. Salter (eds.). *Global Surveillance and Policing*. Cullompton: Willan, 2005.

_____. (et al.) (eds.). *Surveillance, Privacy and the Globalization of Personal Information*. Montreal: McGillQueen's University Press, 2010.

Periodicals

Boyd, Dana. "Dear Voyeur, Meet Flaneur, Sincerely, Social Media." *Surveillance and Society*: vol. 8, no. 4, 2011.

Bumiller, Elisabeth and Thom Shanker. "War Evolves with Drones, Some Tiny as Bugs." *New York Times*: 19/6/2011.

Deleuze, Gilles. "Postscript on the Societies of Control." *October*: vol. 59, Winter 1992.

Doyle, Aaron. "Revisiting the Synopticon: Reconsidering Mathiesen's "Viewer Society" in the Age of Web 2.0." *Theoretical Criminology*: vol. 15, no. 3, 2011.

Gandy, Oscar. "Consumer Protection in Cyberspace." *Triple C*: vol. 9, no. 2, 2011.

Gladwell, Malcolm. "Small Change: Why the Revolution will not be Tweeted." *New Yorker*: 24 October 2010.

Graham, Stephen. "Cities and the "War on Terror"." *International Journal of Urban and Regional Research*: vol. 30, no. 2, 2006.

Goldstein, Evan R. "The Trials of Tony Judt." *Chronicle Review*: 6 Jan. 2010.

Haggerty, Kevin and Richard Ericson. "The Surveillant Assemblage." *British Journal of Sociology*: vol. 54, no. 1, 2000.

Lewis, Paul. "Teenage Networking Websites Face Anti-paedophile Investigation." *Guardian*: 3 July 2006.

Lyon, David. "Everyday Surveillance: Personal Data and Social Classification." *Information, Communication, and Society*: vol. 5, no. 1, 2002.

Marx, Gary T. "An Ethics For The New Surveillance." *Information Society*: vol. 14, no. 3, 1998.

Mathiesen, Thomas. "The Viewer Society: Michel Foucault's Panopticon Revisited." *Theoretical Criminology*: vol. 1, no. 2, 1997.

"McDonald's #McDStories Twitter campaign backfires." *Daily Telegraph*: 24/6/2012, at <<http://www.telegraph.co.uk>> (accessed Apr. 2012).

Murray, S. F. "Battle Command: Decision-Making And The Battlefield Panopticon." *Military Review*: July-Aug. 2006.

"Pour les enfants, Internet est aussi naturel que la mer ou la montagne." *Le Monde*: 30 Nov. 2011.

Rhodes, Lorna. "Panoptical intimacies." *Public Culture*: vol. 10, no. 2, 1998.

Shanker, Thom and Matt Richtel. "In New Military, Data Overload Can Be Deadly." *New York Times*: 16/1/2011.

Simmel, Georg. "The Sociology of Secrecy and of The Secret Societies," *American Journal of Sociology*: vol. 11, 1906.

"Tony Judt: "I am not pessimistic in the very long run"." *Independent*: 24 Mar. 2010.
Vierteljahreshefte für Zeitgeschichte: no. 4, 1993.

Working Paper

Introna, Lucas. "The Face and the Interface: Thinking with Lévinas on Ethics and Justice in an Electronically Mediated World." (Working Paper, Centre for the Study of Technology and Organization, University of Lancaster, 2003).

Electronic Studies

Bumiller, Elisabeth. "Air Force Drone Operators Report High Levels Of Stress." *New York Times*: 18/12/2011, At: <http://www.nytimes.com/2011/12/19/world/asia/air-forcedrone-operators-show-high-levels-of-stress.html?_r=3> (accessed Mar. 2012).

"Michel Houellebecq, the Art of Fiction no. 206." *Paris Review*: no. 194 (Fall 2000), At <<http://www.theparisreview.org/interviews/5040/the-art-of-fiction-no-206-michel-houellebecq>> (accessed Apr. 2012).

Rose, Josh. "How Social Media is Having a Positive Impact on Our Culture." 23 Feb. 2011, at <<http://mashable.com/2011/02/23/social-media-culture/>> (accessed Mar. 2012).

Stelter, Brian. "Now Drones are Absolute." at <<http://motherboard.vice.com>>.

هذا الكتاب

المراقبة السائلة

ليس هذا كتاباً في تكنولوجيا المراقبة والكاميرات، بل هو كتاب في علم اجتماع الآلة وأثرها في الوعي بالذات، وفي توظيف التطورات التكنولوجية لخدمة الأجندات السياسية التي تجور على الحريات وتنتهك الحدود الشخصية. إنه كتاب في حياتنا اليومية التي تغزوها المعلومات وتسلبنا كل ما عندنا من بيانات لتقوم بتوظيفها لمصلحة شبكات كبرى - اقتصادية وسياسية - فتزيد من قدرتها على النفاذ إلى أدق خصوصياتنا.



والكتاب حوار يدور بين اثنين من علماء الاجتماع حول أثر انتشار متصات الرقابة بها فيها أدوات الاتصال الاجتماعي التي باتت نافذة يمكنك أن تطل منها على العالم... وفي الوقت ذاته يطل منها العالم عليك ويتابعك، وصولاً لاختراق كاميرا الهاتف المحمول وكاميرا جهاز اللاتوب لمراقبتك وتتبع خطواتك وتسجيل حواراتك الخاصة. فكيف يؤثر ذلك علينا وفي تصوراتنا عن الذات وسلوكنا المجتمعي وعلاقتنا بالعالم؟



28-05-2017

الثمن: ٦ دولارات

أو ما يعادلها

ISBN 978-614-431-140-0



9 786144 311400

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

المكتب الرئيسي - بيروت

هاتف: 0096131219917 - 0096131219917

E-mail: info@arabianetwork.com